الجامعـــــة الإســـــلامية – غـــــزة

عمـــــــادة الدراســـــات العليـــــا

كليـــــــــــــــــــــة الآداب

قســـم اللـــــــــــغة العربيـــــــة

شاعرية ابن حجر العسقلاني

دراسة تحليلية

إعداد الطالب

محمد صبحي علي مقداد

إشراف

أ.د . نبيل خالد أبو علي

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد من كلية الآداب من الجامعة الإسلامية ـ غزة

(١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م)

نموذج رقم (1)

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	محمد هيثي علي حمدان	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:	٢/٥/٢٠١٥م	التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم... ج.س.غ/35/..... Ref

التاريخ 2015/04/27..... Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **محمد صبحي علي مقداد** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

شاعرية ابن حجر العسقلاني – دراسة تحليلية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الاثنين 08 رجب 1436هـ، الموافق 2015/04/27م الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. نبيل خالد أبو علي	مشرفاً و رئيساً	.....
أ.د. كمال أحمد غنيم	مناقشاً داخلياً	.....
د. محمد إسماعيل حسونة	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز

P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine fax: +970 (8) 286 0800 فاكس Tel: +970 (8) 286 0700 ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين هاتف
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps

الإهداء

إلى ..... من كان لي نبراساً يضيء فكري بالنصح والتوجيه في حياتي،

إلى **أبي العزيز**.

إلى ..... من أرضعتني الحنان الصادق، ومن تحت قدميها تكمن الجنة،

إلى **أمي الحنون**.

إلى ..... من ساندتني وآزرتني في حربي،

إلى **زوجتي الغالية**.

إلى ..... من أنارت لي الدنيا بقدومها،

إلى **ابنتي ليان** .

إلى ..... من شملوني بالعطف وأمدوني بالعون ،

إلى **أخي وأختي**

إليهم جميعا أهدي جهدي المتواضع هذا راجياً الله الإطالة في أعمارهم ليروا ثمرة جهدهم.

الشكر والعرفان

قال صلى الله عليه وسلم : "من لا يشكر الناس لا يشكر الله" .

انطلاقاً من العرفان بالجميل، فإنه ليسرني وليثلج صدري أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى أستاذي، ومشرفي **الأستاذ الدكتور نبيل خالد أبو علي** الذي مدَّني من منابع علمه بالكثير، والذي ما توانى يوماً عن مد يد المساعدة لي وفي جميع المجالات، وحمداً لله بأن يسره في دربي ويسر به أمري وعسى أن يطيل عمره ليبقى نبراساً متلألئاً في نور العلم والعلماء .

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذيَّ أعضاء لجنة النقاش الموقرين **الأستاذ الدكتور كمال أحمد غنيم، والدكتور محمد إسماعيل حسونة،** على ما تكبداه من عناء في قراءة رسالتي المتواضعة وإغنائها بمقترحاتهما القيمة .

وكذلك أتقدم بجزيل الشكر إلى الهيئة التدريسية في كلية الآداب قسم اللغة العربية، لكل ما قدموه لي من مساعدة ومساندة مكنتني من المضي بخطى ثابتة في مسيرتي العلمية .

وأتقدم كذلك بجزيل الشكر إلى جامعتي الحبيبة **الجامعة الإسلامية بغزة**، ذلك الصرح الشامخ منهل العلم والعلماء، منبع الأدب والأدباء .

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من علم الناس الدين القويم، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالشعر ديوان العرب، ومنبع مفاخرهم، وخزانة حكمتهم، ومعرض فصاحتهم، ومستودع علومهم، وسجل تأريخهم، ولذلك كان للشاعر مكانة رفيعة في قومه، لكونه أكثرهم علماً بتأريخهم، ومفاخر أنسابهم.

وقد عُدَّ الشاعر أحد ثلاثة تفرح بها العرب وتسعد، فكانوا لا يُهنِئون بعضهم إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج، وكان ذلك بسبب شدة حاجتهم إلى الشاعر الذي يدون مآثرهم، ومفاخرهم، ويقلل من رهبة عدوهم ، فالشعر حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم.

ولما كان الشعر العربي هو من أجمل وأعظم فنون الأدب العربي، وكانت له الهيمنة الكبرى عند العرب ، فلم تختص به فئة دون أخرى ، لذا فإن من الروعة والجمال وقمة الشاعرية أن تجد عالماً فقيهاً محدثاً ينتج ديواناً شعرياً راقياً يضاهي في قوته ورونقه أصحاب الحرفة أنفسهم، وكأنه يريد أن يؤكد أن هذه الملكة لا تقتصر على أصحاب الكتابات الشعرية فحسب، وإنما يملكها من لديه تدفق فكري لغوي يصقله من خلال أبيات شعرية فيها من فصاحة اللسان وقوة المعاني والأفكار، لذلك فمن استطاع تقدير جهود هؤلاء العلماء، فقد أقام الميزان العدل ووافاهم حقهم ، وأنزلهم مكانتهم ومقامهم المرموق.

وقد تداول الشعراء الشعر عبر العصور المتعاقبة، وكان من أهمها العصر المملوكي الذي تربع في مكانة مرموقة في الأدب العربي، لكثرة علمائه وشعرائه، وبالرغم من ذلك لم ينل نصيبه من الدراسة والبحث والتقصي كباقي العصور، وذلك بسبب النظرة الخاطئة التي رسخت، وهي اتهامه بالانحطاط والتخلف، مما جعل الكثير من الكنوز العلمية والأدبية تبقى مدفونة بحاجة لمن يكتشفها ويبحث فيها، ليرى غزارة الأدب والعلم الذي تحويه، ويبطل الادعاءات حوله.

وقد حاولت أن أساهم في كشف إحدى تلك الكنوز من خلال البحث عن شاعرية ابن حجر العسقلاني في ديوانه، وأحسب أن هذا البحث يمثل فتحاً جديداً في ميدان الأدب في العصر المملوكي، الذي وقع عليه الإجحاف بسبب اتهامه بالقصور في مجالات العلم، وكذلك تكمن هذه الأهمية في رسم ملامح النهج الذي سار عليه الشاعر، بين سنة الأولين القدماء في تناول أغراضهم، وبين ما نهجه من التجديد.

خطة البحث

قسمت بحثي إلى ثلاثة فصول ، ثم خاتمة، ففهرس عام، وقد تحدثت في الفصل الأول عن حياة ابن حجر العسقلاني مولده ونشأته ، وحياته العلمية ورحلاته، وما صنفه من مؤلفات جمة، وما حازه هذا العالم من مكانة علمية مرموقة لما قدمه خدمة للدين والعلم.

وكذلك تحدثت في الفصل الأول عن العصر المملوكي الذي هو عصر الشاعر وما امتاز به في الحياة السياسية، والبيئة الاجتماعية، وما امتاز به هذا العصر في الحركة العلمية التي أنتجت الكثير من العلم والعلماء.

أما الفصل الثاني فكان لدراسة الموضوعات الشعرية التي تعرض إليها الشاعر في ديوانه، فدرست مدحه للنبي –صلى الله عليه وسلم– ، والمديح بشكليه الأميريات والملوكيات، وكذلك الغزل، والأغراض الأخرى من رثاء وزهد، وشكوى ، وألغاز، وغيرها.

أما الفصل الثالث فخصصته للدراسة الفنية، فدرست بناء القصيدة لدى ابن حجر، وأسلوبه الذي اتبعه في قصائده، ولغته الشعرية، والصورة الشعرية، والموسيقى الشعرية بنوعيها الداخلية والخارجية.

وأخيراً ختمت البحث بخاتمة عرضت فيها ملخصاً للبحث، وأتبعتها بعرض لأهم النتائج التي توصلت إليها، ثم أتبعته بفهرس يسهل الرجوع إلى الموضوعات الرئيسة.

أما منهج البحث اقتضت الدراسة أن أنهج المنهج التكاملي الذي يتيح للباحث استخدام أكثر من منهج تمكن الباحث من الإحاطة بجميع مكونات النص الأدبي ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر المنهج التاريخي ، والمنهج الإحصائي، والمنهج الوصفي.

فقد حاولت في هذا البحث أن أرد التهم التي دارت حول شعر وشعراء العصر المملوكي وتبيين الظلم الواقع على عصر هذا العالم الذي اتهم بالقصور العلمي والفكري والأدبي على الرغم مما أنتجه لنا الفقهاء والعلماء والأدباء من كنوز ثمينة شغلت مساحات واسعة في المكتبات العربية في جميع المجالات العلمية والأدبية.

وهذا مبلغ علمي وجهدي، فإن وفقت فيه فذلك بفضل الله تعالى، ثم بتوجيه مشرفي الأستاذ الدكتور **نبيل خالد أبو علي**، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت، والله الموفق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الأول

ابن حجر العسقلاني وعصره

حياة ابن حجر

- مولده ونشأته.
- حياته العلمية ورحلاته.
- مؤلفاته ومكانته العلمية.

اسمه:

هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني الأصل، المصري المولد والنشأة ولد في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة[١].

وقد اختلف في جده الرابع من حيث إثباته وحذفه ومن حيث تقديمه وتأخيره ، فقد أثبت السخاوي في نسبة جده الرابع محمود، قبل أحمد[٢].

وقد ذكر في تصنيفه " تبصير المنتبه بتحرير المشتبه " ترجمة عم والده فخر الدين عثمان بن محمد بتقديم محمود على أحمد فيقول: " وفخر الدين عثمان بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الكناني المصري الشافعي يُعرف بابن البزاز "[٣].

ولكن صاحب الترجمة خالف ذلك الترتيب في كتابه الدرر الكامنة في ترجمة عم والده بتأخير محمود عن أحمد، فقال : "عثمان بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود الكناني العسقلاني"[٤].

وقد كتب في مقدمة تصنيفه إنباء الغمر " أما بعد فيقول العبد الضعيف أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن أحمد بن حجر العسقلاني" [٥]، فقد أثبت جده الخامس محمود بين أحمدين.

---

(١) ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ): رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٦٢.

(٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (المتوفي ٩٠٢هـ): الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر، تحقيق ابراهيم باجس عبد المجيد، ط١، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٩٩٩م، ص ١٠١.

(٣) ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق محمد علي النجار، ط. المكتبة العلمية بيروت، د.ت، ٤١٤/١.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق مراقبة: محمد عبد المعيد ضان، ط٢. مجلس دائرة المعارف العثمانية ، صيدر اباد، الهند، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م ، ٢٦٢/٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ٣/١.

وقد أورد في قصيدة شعرية أثبت فيها أن لقبهم بحجر إنما كان لقب جد جد أبيه أحمد، يقول[١]:

مـن أحمـد بـن علـي بـن محمـد بـن محمـد بـن علـي الكنـاني المحتـد

ولجـــد جـــد أبيـــه أحمـــد لقبـــوا حجـراً ، وقيـل بـل اسـم والـد أحمـد

وما اعتمدته من نسبه هو أنه أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد العسقلاني ، كما اعتمده صاحب الجواهر والدرر مبرراً ذلك بكثرة وجوده [٢]، وإن كان كثير منه ورد بخطه مختصراً أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني.

كنيته ولقبه

لقب بشهاب الدين وشيخ الاسلام [٣] ، علم الأعلام ، أمير المؤمنين في الحديث ، حافظ العصر[٤] ، الشهير بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه [٥] ، ويقال نسبة إلى آل حجر وهم قوم يسكنون الجنوب الآخر على بلاد الجريد وأرضهم قابس[٦].

ويكنى بأبي الفضل، وكني بذلك تشبيهاً بقاضي مكة أبي الفضل محمد بن أحمد بن عزيز العقيلي النويري، وكذا كناه شيخه العراقي أيضاً على الجادة أبا العباس، وكذا كناه بها العلاء بن المغلي وغيرهما، وكناه آخر أبا جعفر، وهو شذوذ[٧].

---

(١) عنوان الزمان: ١١٥,١١٦/١.

(٢) انظر: الجواهر والدرر: ص ١٠٢.

(٣) لقب شيخ الاسلام يطلق على المتبع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مع المعرفة بقواعد العلم والتبحر في الاطلاع على أقوال العلماء ، انظر الجواهر والدرر: ص ٦٥.

(٤) يطلق هذا اللقب على من يكون عارفاً بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصيراً بطرقها ، مميزاً لأسانيدها ، انظر الجواهر والدرر: ص ٧٩.

(٥) انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن(المتوفي ٩٠٢هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة دار مكتبة الحياة ، بيروت، د.ت، ٣٦/٢.

(٦) انظر: ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة دار ابن كثير ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ٣٩٥/٩.

(٧) انظر: الجواهر والدرر: ص ١٠٢.

مولده ونشأته :

وهو يترجم لنفسه في مصنفه (رفع الإصر) قال: أن مولده ونشأته في مصر، وولد في الثاني والعشرين[١] من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، ومات أبوه في رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل، فنشأ يتيماً[٢].

وقد عاش شيخنا في كنف ورعاية وصيه الرئيس الشهير زكي الدين أبو بكر ابن نور الدين علي الخروبي ، حيث استصحبه معه ، إذ لم يكن له من يكفله [٣].

أما نسبته ، فأصله من عسقلان بفلسطين، وقد قال عن والده : "والدي كناني الأصل، يعني بكسر الكاف ، وفتح النون ، وبعد الألف نون ثانية ، وكتب شيخنا مرة ، الكنانيّ القبيلة، قال : وكان أصلهم من عسقلان وهي مدينة بساحل الشام من فلسطين"[٤].

وقد نظم نسبه ومولده وغير ذلك في قصيدة كتبها[٥] :

الحَمْـــــدُ للهِ الكـــــريم السـيد	**ذي الفضـل مـن بهـاده يهتـدي**
ثـم الصـلاة مـع السـلام الأكمـلا	**ن الأزكيـان علـى النبـي محمـد**
وعلـى الصـحابة الطيبـين ولـه	**الغـر الكـرام نجـوم كـل مقلـد**
والتـابعين وبعـد فالعلمـاء قـد	**منحـوا الإجـازة عنـد حسـن القصـد**
لا سـيما لمحـدث متبحـر	**عسـرت عليـه رحلـة للمـورد**
واحتـاج لاسـتيعاب مـا يـروي مـن الـ	**مرفـوع والموقـوف ضـمن المسـند**
والمسـتحب إجابـة المسـئول سـا	**ئلـه بغيـر توقـف وتـردد**
فلـذلك صـحت مطلقـا لجميـع مـن	**ذكـر الإجـازة ، لا بقيـد مقيـد**

---

(١) وفي عنوان الزمان " ثاني عشر" .

انظر: ابراهيم بن حسن البقاعي ، عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشي ، ط١، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ،٢٠٠١م، ١١٥/١.

(٢) انظر: رفع الإصر: ص ٦٢.

(٣) السابق: ص ٦٢.

(٤) الجواهر والدرر: ١٠٣.

(٥) عنوان الزمان ١١٥,١١٦/١.

مـن أحمـد بـن علـي بـن محمـد بـن ... محمـد بـن علـي الكنـاني المحتـد

ولجـد جـد أبيـه أحمـد لقبـوا ... حجـراً ، وقيـل بـل اسـم والـد أحمـد

وبمصـر مولـده وأصـله جـدوده ... مـن عسـقلان المقدسـية قـد بـدي

فأجـاب مـا سـألوا لهـم وأجـازهم ... مسـموعه عـن كـل خبـر مسـند

ومجـازه مـنهم ومسـموعاته ... فـي كـل فـن منتـه أو مبتـدي

وكـذلك الإنشـاء مـن خطـب ومـن ... نثـر ونظـم مـوجز ومقصـد

فأجـازهم بجميـع ذلـك شـاملاً ... لجمـيعهم بـاللفظ مـع خـط اليـد

شـعبان عـام ثـلاث مـن بعـد سـبع ... وسـبعين : اتفـاق مولـدي

وكتبـت ذا فـي الثـاني مـن صـفر لعـ ... ـام الضـاد مـع بسـط لهجـرة أحمـد

مـا غنـت الورقـاء فـي فـنن ومـا ... ومـا نـاح المطـوق شـيقاً لمغـرد

حياته العلمية ورحلاته :

بدأت علامات النبوغ تظهر عليه منذ صغره مع أنه لم يدخل الكتَّاب حتى أكمل خمس سنين، حيث حفظ القرآن الكريم وله تسع سنين، وصلى بالناس التراويح وقد أكمل اثنتي عشرة سنة[١].

وكانت أولى حياته العلمية في مكة، حين استصحبه وصيه زكي الدين الخروبي في حجه سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، فقد سمع صحيح البخاري على مسند الحجاز عفيف الدين عبد الله النشاوري ، آخر أصحاب إمام المقام رضي الدين الطبري ، وكان سماعه بقراءة الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السَّلاوي الدمشقي[٢].

فكانت تلك فاتحة شغفه في طلب الحديث النبوي الشريف، فطلبه بنفسه في سنة ثلاث وتسعين لكنه لم يلزم الطلب إلا من ست وتسعين[٣]، فملأ الأرض سماعاً ، ورحل فيه حتى طاف البلاد، فسمع بالقاهرة من شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ، والحافظين ابن الملقن والعراقي ، وأخذ عنهم الفقه ، ومن الشيخ برهان الدين إبراهيم الإبناسي ، ونور الدين الهيثمي، والشيخ تقي الدين محمد بن محمد الدجوي ، والقاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم السلمي، وآخرين.

وبسرياقوس من المفتي صدر الدين سليمان بن عبد الناصر الأبشيطي.

وبغزة من أحمد بن محمد بن عثمان الخليلي ، وبالرملة من أحمد بن محمد الأيكي، وبالخليل من صالح بن خليل بن سالم ، وببيت المقدس شمس الدين محمد بن إسماعيل القلقشندي ، وبدر الدين حسن بن موسى بن مكي ، ومحمد بن محمد علي المنبجي ، ومحمد بن عمر بن موسى.

---

(١) انظر: الضوء اللامع ٣٦/١.

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١٢٣ ، ورفع الإصر ٦٣.

(٣) انظر: الضوء اللامع ٣٧/١.

وبدمشق من بدر الدين محمد بن محمد بن قوام البالسي ، وفاطمة بنت محمد بن أحمد بن المنجا التنوخي ، وفاطمة بنت محمد بن عبد الهادي ، وغيرهم .

وبمنى من زين الدين أبي بكر بن الحسين[١].

وقد رزقه الله ملكة سرعة الحفظ في صغر سنه ، بحيث كان كل يوم يحفظ نصف حزب، وبلغ من أمره في ذلك أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد ، وأنه كان في أكثر الأيام يصحح الصفحة من " الحاوي الصغير " ثم يقرأها تأملاً مرة أخرى ، ثم يعرضها في الثالثة حفظاً [٢].

وقد حفظ القرآن وهو ابن تسع والعمدة وألفية ابن العراقي والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب الأصلي والملحة وغيرها ، وبحث في صغره وهو بمكة "العمدة" على الجمال بن ظهيرة وبعد بلوغه لازم أحد أوصيائه الشمس بن القطان في الفقه والعربية والحساب وغيرها [٣] .

واشتغل بطلب العلوم الأخرى ، فأطلق العنان لنفسه وعزمه في طلب الفقه ، والنحو وعلوم الأدب ، والمعاني والبيان وغيرها.

أما طلبه للفقه ، فقد تفقه على يدي ابن القطان ، والإمام الزاهد الفقيه برهان الدين إبراهيم بن موسى الأبناسي ، ولازمهما كثيراً ، وتفقه أيضاً على يدي شيخ الإسلام العلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني ، لازمه مدة وحضر دروسه الفقهية ، وقرأ عليه الكثير من " الروضة"، وتفقه على يدي العلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن الملقن، وقرأ في الفقه والعربية أيضاً على الشيخ الإمام نور الدين على بن أحمد الأدمي[٤].

---

(١) ابن تغري بردى ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ١٨,١٩/٢.

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١٢٣/١.

(٣) انظر: الضوء اللامع ٣٦,٣٧/١.

(٤) انظر: الجواهر والدرر ١٢٨,١٢٩/١.

أما طلبه للأدب والنحو وعلوم اللغة ، فقد نظر في فنون الأدب في سنة اثنتين وتسعين[١]، حتي فاق فيها، فكان لا يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذه الناظم ، وتولع بذلك فطارح الشعراء وقال الشعر الرائق والنثر الفائق ، ونظم المدائح النبوية، وقطع شعرية[٢]، "ولبليغ نظمه ونثره، فقد كان ينشد منه في المحافل ويخطب من ديوانه على المنابر"[٣].

مصنفات ابن حجر العسقلاني:

إن أول تصانيفه تغليق التعليق وصل فيه تعليقات البخاري، وهو كتاب نفيس، قرض عليه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وغيره، وهو من تصانيفه الجليلة القديمة، وشرح البخاري في نيف وعشرين مجلداً، وهو فتح الباري، وصنف له – أي لكتاب فتح الباري– مقدمة في مجلد، وكتاب فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في البخاري زيادة على تهذيب الكمال في مجلد ضخم، وكتاب تجريد التفسير من صحيح البخاري على ترتيب السور، وكتاب تقريب الغريب، وكتاب إتحاف المهرة بأطراف العشرة في ثمان مجلدات، ثم أفرد منه أطراف مسند الإمام أحمد وسماه أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي في مجلدين، وكتاب أطراف الصحيحين، وكتاب أطراف المختارة للضياء مجلد ضخم، وكتاب تهذيب الكمال للحافظ المزي في ست مجلدات، ومختصره تقريب التهذيب مجلد ضخم، وكتاب تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة خمس مجلدات، وكتاب لسان الميزان وتحرير الميزان، وكتاب تبصير المنتبه بتحرير المشتبه مجلد ضخم، وكتاب طبقات الحفاظ في مجلدين، والدرر الكامنة في المائة الثامنة، وإنباء الغمر بأنباء العمر، وكتاب قضاة مصر مجلد ضخم، وكتاب الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف مجلد، وكتاب الاستدراك عليه في مجلد آخر، وكتاب التمييز في تخريج أحاديث الوجيز مجلدين، وكتاب الدراية في منتخب تخريج الهداية، وكتاب الإعجاب ببيان الأسباب مجلد ضخم، وكتاب الأحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام، وكتاب الزهر المطول في بيان الحديث المعدل مجلد، وشفاء الغلل في بيان العلل، وتقريب النهج بترتيب الدرج، والإفتان في رواية القرآن، والمقترب في بيان

---

(١) وفي عنوان الزمان: "بدأ اشتغاله بالأدب في سنة سبع وثمانين" ١١٧/١.

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١٢٦/١.

(٣) الضوء اللامع ٣٨/١.

المضطرب، والتعريج على التدريج، ونزهة القلوب في معرفة المبدل من المقلوب، ومزيد النفع بما رجح فيه الوقف على الرفع، وبيان الفصل بما رجح فيه الإرسال على الوصل، و تقويم السناد بمدرج الأسناد، والإيناس بمناقب العباس، وتوالي التأنيس بمعاني ابن ادريس، والمرجة الغيثية عن الترجمة الليثية، والاستدراك على الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء مجلد، وتخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي وقع في الإملاء مجلدين، وتحفة الظراف بأوهام الأطراف مجلد، والمطالب العالية من رواية المسانيد الثمانية، والتعريف الأوحد بأوهام من جمع رجال المسند، وتعريف أولى التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، وكتاب الأعلام بمن ولي مصر في الإسلام، وتعريف الفئة بمن عاش مائة من هذه الأمة، والقصد الأحمد في من كنيته أبو الفضل واسمه أحمد، وكتاب إقامة الدلائل على معرفة الأوائل، والخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة، والشمس المنيرة في تعريف الكبيرة، والإتقان في فضائل القرآن مجلد، وكتاب الأنوار بخصائص المختار، والآيات النيرات للخوارق المعجزات، والنبأ الأنبه في بناء الكعبة، والقول المسدد في الذب عن المسند، وبلوغ المرام بأدلة الأحكام ، وبذل الماعون بفضل الطاعون، والمنحة فيما علق الشافعي به القول على الصحة، والأجوبة المشرقة عن الأسئلة المفرقة، ومنسك الحج، وشرح مناسك المنهاج كذلك، وتصحيح الروضة كتب منه ثلاث مجلدات، ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر كراسة، وشرحها نزهة النظر بتوضيح الفكر، والانتفاع بترتيب الدارقطني على الأنواع، ومختصر البداية والنهاية لابن كثير، وتخريج الأربعين النووية بالأسانيد العلية، والأربعين المتباينة، وغير ذلك عدة تصانيف أخر، وله ديوان شعر كبير وآخر صغير[1].

(١) انظر: الأعلام ١/ ١٧٨- ١٧٩.

عصر ابن حجر

- البيئة السياسية.
- البيئة الاجتماعية.
- البيئة الثقافية.

البيئة السياسية:

يعد العصر المملوكي من أهم العصور في التاريخ الإسلامي؛ لما له من دورٍ كبيرٍ وواضح في التطور الحضاري الذي انعكس على شتى العلوم ، فقد أصبح هذا العصر يتسم بعصر الموسوعات العلمية ، فقد أنتج لنا علماء هذا العصر الكثير من الفنون والعلوم في مجلدات ضخمة كالفقه ، والادب والطب والتاريخ وغيرها .

ولعناية المماليك بالحركة العلمية ، نشأ جيل من المتعلمين ، وظهر لفيف من العلماء الأجلاء ، منهم شهاب الدين النويري ، وابن حجر العسقلاني ، وابن فضل الله العمري ، والقلقشندي، وتقي الدين المقريزي ، وابن تغري بردي ، وشمس الدين الخاوي ، وجلال الدين السيوطي .

أصل المماليك:

يعرف المملوك لغة بأنه " العبد "[١] ، أما في تاريخ العالم الإسلامي فالمماليك هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي ، ولا سيما في مصر والشام في صراعهم ضد بعضهم البعض في خضم الفوضى السياسية التي نشبت عقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان أولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية وخاصة ليكونوا عدتهم في الصراع المرتقب[٢].

ويذكر المؤرخون أن أول من استخدم المماليك وجلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة لجيشه هو أحمد بن طولون[٣]، وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربي ، بعدها اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخلطوا في جندهم بين أجناس مختلفة ، ولم وصل المُلك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ومجلوبي المرتزقة وحذا خلفاؤه حذوه ، ثم جاء المَلك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦هـ ، استكثر من المماليك الأتراك ، ونشَّأهم نشأة

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، طبعة دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، مادة ملك ، ٣٦٣/٨ .

(٢) انظر: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤م،ص ٧، ٨.

(٣) ابن طُولُون (٢٢٠ – ٢٧٠ هـ = ٨٣٥ – ٨٨٤ م) : أحمد بن طولون، أبو العباس: الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، تركي مستعرب.(الأعلام : ١٤٠/١).

عسكرية ، وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها ، وسماهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه[١].

أما بداية العصر المملوكي فقد رأى العديد من المؤرخين[٢] بأن أول من تولى أمر دولة المماليك هي شجر الدر زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث تولت السلطة بعد وفاته ، ومن ذلك نورد قول المقريزي : " إن شجر الدر أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، فهي أولى سلاطين المماليك في مصر ، وذلك لأنها كانت جارية تركية الجنس اشتراها الملك الصالح أيوب، وحظيت عنده حتى أعتقها وتزوجها .. "[٣].

وتحملت شجر الدر الأهوال والمحن مع زوجها الصالح الى أن تسلطن ، فكانت تدبر أمور مصر في حياته وفي مرضه وبعد موته ، يقول ابن تغري بردى: " وإليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته "[٤].

ومن الأعباء التي تحملتها شجر الدر ، تدبر أمور مصر بعد موت زوجها حيث قامت بإخفاء نبأ وفاة زوجها في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة وصارت تعلِّم بخطها مثل علامة الملك الصالح ؛ لكي لا يتفرق شمل الجند وهو يحاربون الصليبيين في المنصورة ، وأرسلت في طلب ابنه توران شاه _ حاكم حصن كيفا وديار بكر نيابة عن أبيه في الشام _ كي يتسلم مقاليد الحكم ، فلما وصل القاهرة مضت زوجة أبيه إلى القدس، ولكنه أشغل نفسه بتهديدها ، فبعث يطلب الأموال والجواهر منها ، فكاتبت فيه ، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله _ وهم مماليك

---

(١) انظر: محمود رزق سليم ، موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ، ١٣٨١هـ – ١٩٦٢م ، : ١٣,١٤/١.

(٢) فممن رأوا بأن شجرة الدر أول سلاطين المماليك قاسم عبده قاسم حيث قال : " ثم تولت العرش شجر الدر أول سلاطين المماليك في مصر والشام " . (انظر: عصر سلاطين المماليك ص ٨).

(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩، ٢٦١/١ .

(٤) يوسف بن تغري بردي (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت، ٣٧٣/٦.

أبيه البحرية _ ، وكان قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر محرم للعام ثمانية وأربعين وستمائة هجرية[١].

وبعدها تولت شجر الدر حكم البلاد ثمانين يوماً، ثم تنازلت عن الحكم لزوجها الملك المعز عز الدين أيبك[٢] الذي تزوج بها في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، حيث أصبح أتابك[٣] العساكر مع شجر الدر، حتى أنكر عليها الخليفة العباسي المستعصم بالله ؛ لأنها امرأة[٤].

وفي الخامس من جمادى الأولى بعد سلطنته بخمسة أيّام ثارت المماليك البحريّة الصالحيّة وقالوا: لابدّ لنا من سلطان يكون من بنى أيّوب يجتمع الكلّ على طاعته، واتّفقوا على أن يكون الملك المعزّ أيبك هذا أتابكاً عليهم، واختاروا أن يقيموا صبيّاً عليهم من بنى أيّوب يكون له اسم السلطنة، وهم يدبّرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به ، فوقع الاتّفاق على الملك الأشرف مظفّر الدين موسى، وكان عمر هذا الصبىّ، عشر سنين [٥].

بعدها اجتمع الأمراء عند الملك المعز أيبك لقتال صلاح الدين يوسف صاحب الشام وحلب ليسترد ملك ابن عمه الملك المعظم توران شاه، وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة خلع المعز أيبك الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي ، فاستقل بذلك بالحكم إلى أن قتل يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة [٦].

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٣٧١/٦.

(٢) الملك عز الدين أيبك كان تركي الأصل والجنس فانتقل إلى ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركماني فعرف بين البحرية بأيبك التركماني وترقي عنده في الخدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية وعمله جاشنكيرا (متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم)، إلى أن مات الملك الصالح وقتل بعده ابنه الملك المعظم. السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٦٣/١.

(٣) تعني الأب الأمير وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش .وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة . ويدعى أيضاً"" أتابك العساكر"" لم تكن له صلاحيات أمر ونهي.

(٤) حيث كتب لأمراء مصر يعاتبهم ويقول لهم : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٦٤/١.

(٥) النجوم الزاهرة ٥/٧.

(٦) حيث قتلته شجر الدر حين أراد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم صاحب الموصل وكانت شجر الدر شديدة الغيرة. انظر: النجوم الزاهرة ٥,١٢,١٣/٧.

" فكانت مدة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوماً وعمره نحو ستين سنة"[١].

وبعدها بعام في سنة ست وخمسين وستمائة، حصل للأمة أمرٌ لم يكن أفظع منه على مرِّ التاريخ، وذلك بتدبير من الوزير الرافضي ابن العلقمي الذي كان حريصاً على زوال دولة بني العباس ونقلها إلى العلويين، حيث كان يتواصل سراً بالتتار ويرسل إليهم؛ لينتقم من العباسيين[٢]، فأشار على الخليفة المستعصم _ وكان ضعيف الرأي والتدبير _ بقطع أرزاق أكثر الجند، وكانت بغيته من وراء هذه المشورة أن تكون سبباً في تفتت الجيش وضعفه وغضبه على الخليفة، وبعدها اجتهد في تسهيل مهمة التتار في احتلال وتخريب العراق، فكاتبهم سراً وأطمعهم في البلاد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد فوعدوه بذلك، فعندما دخل هولاكو بغداد بجيش جرار يبلغ حوالي مائتي ألف مقاتل، كان أول من استقبلهم الوزير ابن العلقمي حيث أشار على الخليفة أن يخرج إليهم في تقرير الصلح، فاجتمع بهولاكو، ودبر أمر إهانة الخليفة ، فأمعن التتار في إذلاله ، ثم قتلوه وبدأ الخراب في العاصمة بغداد حيث استمر القتل والنهب والسبي بضعة وثلاثين يوماً ، فلم ينجُ منهم إلا من اختفى[٣]، فكان عدد القتلى كما قول الذهبي: " أنهم بلغوا ثمانمائة ألف "[٤].

بعد هذه الحادثة لم يبق من جذوة الإسلام شيءٌ إلا في مصر، ومن تسلطنوا عليها، فكانت تلك الحادثة الابتلاء الحقيقي لهم في مواجهة أعداء الإسلام ، والدفاع عن بلادهم، واسترداد ما

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٩٤/١.

(٢) سبب حنق ابن العلقمي على أهل السنة أنه كان يريد الفتنة بين أهل السنة والرافضة ، حتى تجالدوا بالسيوف ، وقتل جماعة من الرافضة ، فاشتكى أهل البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدّوادار وللأمير أبي بكر ابن الخليفة ، فأمرا الجند بنهب الكرخ ، فهجموا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة ، فأمرهم ابن العلقمي بالصبر وقال لهم : أنا أكفيكم فيهم . انظر: النجوم الزاهرة ٤٨/٧

(٣) انظر: النجوم الزاهرة ٧/ ٤٧-٥٠.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط٢، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٩٣ م، ٣٦/٤٨.

وقع بأيدي التتار من الأراضي الإسلامية، حيث استولى التتار على جميع دول المشرق الإسلامي باستثناء مصر والحجاز واليمن[١].

فبرز لتلك المهمة الملك المظفر سيف الدين قطز الذي تولى الإمارة بعد أن خلع السلطان الملك المنصور نور الدين علي ، حيث كان صغير السن لا يحسن التدبير، وأمور البلاد تعظم وتدلهم، فطلب الناس خلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر الجلل ، فتم الأمر، وصمم على لقاء التتار[٢]، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، ووقع القتال بين الطائفتين ، فقتل الكثير منهم ، لكن الملك المظفر أبلى بلاء حسناً ، حيث أظهر براعةً ودهاء في القتال ، حتى تمَّ نصر الله بإعلاء كلمته، وإذلال أعداء الله فانكسر التتار وولوا مدبرين بعد أن قتل معظم أعيانهم وقتل مقدم العساكر التترية كتبغانوين، وتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ما تبقى من جيشهم المهزوم إلى أطراف البلاد[٣].

وقد أشاد بهذا الانتصار العظيم العديد من الشعراء، ومن ذلك قول بعض شعراء دمشق[٤]:

هلك الكفر في الشام جميعاً ... واستجدّ الإسلام بعد دُحُوضِهْ

بالمليك المظفّر الملك الأرْ ... وع سيف الإسلام عند نهوضهْ

ملك جاءنا بعزْمٍ وحزْمٍ ... فاعتززنا بِسُمْره وبِيْضِهْ

أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائما مثل واجبات فروضهْ

وفي هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة[٥]:

غلب التّتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركى يجود بنفسِهِ

بالشام أهلكهم وبدّد شملهمْ ... ولكلّ شيء آفة من جنسِهِ

---

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٧٨/٧.

(٢) كانت قلوب المسلمين قد أيست من النصرة على التتار لأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ، فأجمعوا على حفظ مصر لا غير. النجوم الزاهرة ٧٨/٧.

(٣) النجوم الزاهرة ٧٨/٧-٧٩.

(٤) السابق: ٨٢/٧.

(٥) السابق:٨٢/٧.

وبعدها جاءت ولاية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، فقد حصلت بينه وبين الملك المظفر وحشة بسبب ولاية حلب، حيث وعده الملك المظفر بولاية حلب، فلما وضعت الحرب أوزارها وارتفعت كلمة الحق، فانصرف عن إعطائها له، وولَّاها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فدبَّر الظاهر بيبرس مكيدة لقتل الملك المظفر، وهو في طريق عودته إلى مصر ، فقتله عند الصالحية يوم السبت السادس عشر من شهر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فمراسيم الاحتفال بالنصر المعدَّة لاستقبال الملك المظفر قطز ، أصبحت لمبايعة الظاهر بيبرس[١].

ونهج بيبرس نهج الملك المظفر في تتبع التتار والصليبيين للقضاء عليهم ، فلحق بهم إلى أطراف البلاد حتى قتل منهم الكثير[٢].

ويعتبر المؤرخون بيبرس المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ؛ لما تمَّ على يده وفي عهده من أعمال جليلة[٣].

ثم ولي الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٨هـ ، فلم تمضِ على توليه الإمارة مدة يسيرة ، حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق ، فانشغل قلاوون في هذه الفتنة الداخلية لرد دمشق إلى حكمه وولايته ، فاستغل التتار هذا الخلف فقصدوا البلاد الشامية ، فخرج لملاقاتهم جميع من كان بدمشق من العساكر الشامية والمصرية ، وأرسلوا إلى سنقر للتكاتف خوفاً على هلاك الإسلام ، فامتثل سنقر لذلك ، فدخل التتار حلب وعاثوا فيها الفساد يومين ، ولما بلغهم من أمر وحدة المسلمين خرجوا منها ، وبعدها دانت البلاد للمنصور، وقد حاول التتار الهجوم مجددا على الشام ، فخرج لهم قلاوون بجند من عسكر الشام وعسكر مصر حتى كسر هيبتهم وشتت شملهم[٤].

---

(١) النجوم الزاهرة ٨٤/٧.

(٢) السابق :٨٢/٧.

(٣) موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ٢٦/١.

(٤) النجوم الزاهرة ٣٠٠/٧-٣٠١.

وفي عام أربع وثمانين وستمائة هجرية ، استولى المنصور قلاوون على حصن المرقب، ثم فتح طرابلس في عام ثمان وثمانين وستمائة ثم خرج على رأس جيشه قاصداً عكا ، ولكنه توفي في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة [١].

لذلك كله اعتبر السلطان قلاوون من أعظم سلاطين المماليك ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكاً، وحكموها وحدهم قرابة مائة عام ، وكان قلاوون مغرماً بشراء المماليك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثنى عشر ألف مملوك[٢].

وفي عام (٧٨٤هـ – ١٣٨٢م) بدأ عهد الدولة الجركسية ، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي ، أحضروا في عصر المنصور قلاوون ، حيث "أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الأمراء والجراكسة ، وجعلهم بالقلعة ، وسماهم البرجية ، وأقام نوابه في البلدان من مماليكه .. "[٣].

فقد استطاع مؤسس هذه الدولة السلطان الظاهر برقوق[٤] أن يرد كيد التتار ، بعد أن استطاع القائد المغولي تيمورلنك أن يزحف بجيشه الجرار على غرب آسيا ، فخرب تبريز ، وقتل أهلها ، وهاجم بلاد التركمان والأكراد وتوجه بعدها إلى بغداد ، ثم حلب ودمشق، ثم أرسل رسالة تهديد للسلطان الظاهر برقوق ، فقتل برقوق الرسل وخرج على جيش كبير لمواجهته ، فدخل الظاهر برقوق بغداد، وطرد الحامية المغولية منها، وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان الظاهر برقوق في مصر، وبعد ست سنوات تمكن تيمورلنك من السيطرة ثانية على بغداد سنة ١٣٩٩م،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣١٧/٧– ٣٢٠.

(٢) موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : ٢٩/١.

(٣) النجوم الزاهرة ٣٣٠/٧.

(٤) السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثمانى اليلبغاوى الجاركسىّ القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثانى من الجراكسة ، حيث تولى السلطة في التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة. انظر النجوم الزاهرة ٢٢١/١١.

ثم توفي السلطان الظاهر برقوق ، فخرج ابنه على رأس الجيش لمواجهة تيمورلنك ، وتمكن من هزيمته في دمشق ، وبعدها انتهاء تيمورلنك هدأت رياح الشر التترية[١].

أما على صعيد الصليبيين استطاع السلطان الأشرف برسباي بحملاته الثلاث التي امتدت على مدار ثلاث سنوات من سنة ٨٢٧هـ وحتى ٨٢٩هـ غزو قبرص وتأديب أهلها ، وإخضاع الجزيرة وأهلها لسلطان المماليك[٢].

وبذلك استطاع المماليك أن يكون لهم الشرف بأن يكونوا الدرع الحامي لهيبة الإسلام من أعدائه بشتى أشكالهم من تتار وصليبين وغيرهم ، وأسسوا ملكاً استمر زهاء ثلاثة قرون تبوأت فيه مصر الصدارة سياسياً وأدبياً وعلمياً وثقافياً ودينياً ، إلى أن انتهى عصر المماليك بهزيمة السلطان التركي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق بالشام أمام السلطان العثماني سليم الأول ٩٢٢هـ.

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ١٩١/٧-١٩٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٩٢/١٤-٢٩٥.

البيئة الاجتماعية :

اختلف المؤرخون في تصنيف طبقات المجتمع في زمن المماليك فابن خلدون في مقدمته اهتم في تقسيمه على طبقتين، هما الطبقة الحاكمة، وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة ، والثانية طبقة الرعية ، وتشمل كل فئات الشعب وشرائحه(١).

يتضح من تقسيم ابن خلدون أنه أذهب كل الفروق داخل الطبقة الواحدة، وعمد فقط على إظهار الفجوة الواسعة بين الطبقتين.

أما القلقشندي فقد اهتم بطبقة من انتظم بهم أمر المملكة وقيام الملك وهم أعيان المملكة وأرباب المناصب فقد قسمها على أربعة أضرب : الأول أرباب السيوف وهم على وجهين الأول من حيث مراتبهم وهي على نوعين: الأول الأمراء وهم على أربع طبقات: الطبقة الأولى أمراء المئين مقدمو الألوف، وعدة كل منهم مائة فارس ، والطبقة الثانية أمراء الطبلخاناه ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً، الطبقة الثالثة أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس، الطبقة الرابعة أمراء الخمسات ، والنوع الثاني الأجناد ، وهم على طبقتين : الطبقة الأولى المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً ، والطبقة الثانية أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، أما الوجه الثاني في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف فهم على نوعين ، النوع الأول من هو بحضرة السلطان ، وهي خمسة وعشرون وظيفة : الأولى النيابة وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، الثانية الأتابكية ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل ، والثالثة وظيفة رأس نوبة وموضعها الحكم على المماليك السلطانية، الرابعة إمرة المجلس ، الخامسة إمرة سلاح. وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في المجامع الجامعة، السادسة إمرة أخورية وموضوعها التحدّث على إصطبل السلطان وخيوله ، السابعة الدّواداريّة، وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، الثامنة الحجوبية ، وموضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يردّ، وعرض الجند وما ناسب ذلك ، التاسعة إمرة جاندار، وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان ، العاشرة

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٣٢١هـ ، ص ١٨٣.

الاستادريّة ، وموضوعها التحدّث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشّراب خاناه والحاشية والغلمان، الحادية عشرة الجاشنكيريّة ، وموضوعها التحدّث في أمر السّماط مع الأستادار على ما تقدّمت الإشارة إليه، الثانية عشرة الخازندارية، وموضوعها التحدّث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك ، الثالثة عشرة شدّ الشراب خاناه. وموضوعها التحدّث في أمر الشراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السّكّر والمشروب والفواكه وغير ذلك، الرابعة عشرة أستادارية الصحبة، وموضوعها التحدّث على المطبخ السلطانيّ والإشراف على الطعام والمشي أمامه والوقوف على السّماط ، الخامسة عشرة– تقدمة المماليك. وموضوعها التحدّث على المماليك السلطانية والحكم فيهم، ولا يكون صاحبها إلا من الخدّام، والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه، وله نائب أمير عشرة. السادسة عشرة– زمامية الدور السلطانية. وصاحبها من أكبر الخدّام، وهو المعبر عنه بالزّمام، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه ، السابعة عشرة– نقابة الجيوش ، وهي موضوعة لتحلية الجند في عرضهم، ومعه يمشي النّقباء ، الثامنة عشرة– المهمندارية. وموضوعها تلقّي الرسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها. التاسعة عشرة شدّ الدواوين ، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدّثا في استخلاص الأموال ، العشرون إمرة طبر، وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطّبر في المواكب ، الحادية والعشرون إمرة علم، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثاً على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا في أمرها؛ وعادتها إمرة عشرة ، الثانية والعشرون إمرة شكار، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا في الجوارح السلطانية من الطّيور وغيرها والصّيود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها؛ وهي إمرة عشرة ، الثالثة والعشرون– حراسة الطير. وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثاً على حراسة الطيور من الكراكيّ التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ، الرابعة والعشرون شدّ العمائر، وموضوعها أن يكون صاحبها متكلماً في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار؛ وهي إمرة عشرة. الخامسة والعشرون الولاية ، والولاة بالحاضرة على صنفين : الصنف الأول ولاة الشّرطة، المعروفون في الديار المصرية بولاة الحرب؛ وهم ثلاثة، بالقاهرة، والفسطاط المعروف بمصر، والقرافة ، أما الصنف الثاني فهم ولاة القلعة، وهم اثنان : الأول والي القلعة و الثاني والي باب القلعة، النوع الثاني ما هو خارج عن الحضرة السلطانية، وهم على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى نوّاب السلطنة ، الطبقة الثانية

الكشّاف ، الطبقة الثالثة الولاة بالوجهين: القبليّ والبحريّ ، أما الضرب الثاني من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقلام، وهم على نوعين : النوع الأوّل أرباب الوظائف الدّيوانية، منها الوزارة ، وأرباب الوظائف الدينية ، وفيها قاضي القضاة ، وقضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل[١].

من التقسيم الدقيق لطبقة أعيان الدولة يتبين اهتمام القلقشندي بهذه الطبقة دون ذكر لباقي طبقات المجتمع ، كما ذكرها المقريزي الذي فصّل في طبقات المجتمع فجعلها على " سبعة أقسام ، وهي : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم البزّ ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، والقسم الرابع أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، ، والقسم الخامس الفقراء ، وهم جلّ الفقهاء وأصحاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهو السؤّال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم"[٢].

بذلك يرى الدكتور نبيل أبو علي حسب تقسيم ابن خلدون والمقريزي لطبقات المجتمع في العصر المملوكي أنه يمكن تصنيفها في " أربع طبقات وهي : طبقة رجال الدولة وتشمل السلطان والأمراء ، والوزراء و قادة الجند وكبار موظفي الدولة من القضاة ورؤساء الدواوين وكبار الكتاب ، ثم طبقة ذوي اليسار من التجار والفقهاء والعلماء ، أما الطبقة الثالثة فتشمل متوسطي الحال من الباعة وأرباب الحرف وطلاب العلم وأهل الزراعات وسكان الريف والقرى ، وأخيراً الفقراء والمساكين ، وقد كان عددهم يزيد وينقص حسب أحوال البلاد السياسية والاقتصادية " [٣].

---

(١) أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت ٤/١٤-٣٤.

(٢) تقي الدين المقريزي (المتوفي ٨٤٥هـ) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. كرم حلمي فرحات ، ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م ، ص ١٤٧.

(٣) نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط١، دار المقداد، غزة ، ٢٠٠٨م ، ص ٣٤.

وقد عاش أفراد الطبقة الأولى حياة الترف والبذخ لما تمتعوا به من امتيازات، " حيث استولى من كان في الطبقة من سلاطين ووزراء وأمراء على كثير من خيرات البلاد ، كعائدات الأراضي الزراعية الموقوفة ، وعائدات التجارة التي كان يشتغل بها الكثير منهم" [١].

كان المماليك في هذا العصر هم الطبقة العسكرية الحاكمة بدولتيها- البحرية والبرجية -، فبقيت هذه الطبقة في المناصب الرفيعة ، وعاشت في القصور الفخمة ، ولم تشارك في حياة الشعب العامة إلا من خلال الأعياد والاحتفالات الدينية، ومراسم التنصيب وغيرها، كما أن الشعب اعتبر المماليك طائفة غريبة، غير أن المماليك أنفسهم شعروا بأنهم غرباء عن البلاد ولم يحاولوا الاندماج فيها ، مما جعلهم تصرفون كأقلية عسكرية حاكمة[٢].

أما " أولاد الناس " وهم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق ، فكانوا غالباً ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التي كان آباؤهم يحيون فيها ، فكانوا يقضون أوقاتهم في لعب الكرة ورمي الرمح وغيرها، ويتمتعون بالثروات التي يرثونها عن آبائهم مما يكفل لهم العيش في ظل الرفاهية، وقد عني بعضهم بالمشاركة في النشاط الثقافي ، وقد برزت من بينهم طائفة كبيرة من المؤرخين منهم " ابن أيبك الدواداري صاحب كتاب كنز الدرر وجامع الغرر المتوفي سنة٧٣٤هـ" و " خليل بن شاهين الظاهري صاحب كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك المتوفي سنة ٨٧٣هـ " و " ابن دقماق صاحب كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار المتوفي سنة ٨٠٩هـ " و "ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المتوفي سنة ٨٧٤هـ " و " ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور المتوفي سنة ٩٣٠هـ " وغيرهم [٣].

اهتم السلاطين في العصر المملوكي على إظهار الواجهة الدينية لحكمهم مما جعلهم يقربون " أهل العمامة " ، فكان المتعممون[٤] يتمتعون بحياة رغيدة وهانئة ، ويقتنون الثروات الطائلة

---

(١) الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ص ٣٤.

(٢) عصر سلاطين المماليك ١٤ .

(٣) انظر : قاسم عبده قاسم : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٥م، ٢٩٠/٣ .

(٤) المتعممون: هو لفظ للفئة التي كانت عمائمهم أكبر في حجمها من عمائم الآخرين حسب مكانة الشخصية، انظر: عصر سلاطين المماليك ٢٠.

التي كانت الأوقاف الكثيرة توفرها لهم ، ويتقاضون مرتبات عينية ونقدية من الديوان السلطاني وقد تمسكوا بمظاهر الحياة المترفة المنعمة ، فكانوا يركبون الخيول المسومة ، ويرتدون الثياب الغالية، وهو ما يكشف عن أن القضاة والفقهاء قد وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة"[١] .

وثمة فئة عاشت على هامش الطبقة الحاكمة بحكم عملها في الجهازين الإداري والمالي لدولة سلاطين المماليك ، هم فئة المحاسبين والماليين من أهل الذمة الذين عملوا في خدمة الديوان السلطاني ودواوين الأمراء ، وكانت لهم هذه المكانة بحكم خبرتهم في هذا المجال فصعب الاستغناء عنهم ، حيث أخذ عليهم استغلالهم نفوذهم ضد المسلمين ولصالح أبناء طوائفهم[٢].

أما طبقة الرعية فكانت تشمل صغار التجار والفقهاء وأصحاب الحرف، والصنائع والفلاحين وعامة أهل المدن، فكان الرابط بينهم وبين الطبقة الحاكمة فقط الضرائب التي كان يفرضها عليهم السلاطين[٣].

---

(١) انظر: عصر سلاطين المماليك ١٩,٢٠ .

(٢) انظر السابق: ٢٠,٢١.

(٣) انظر السابق: ٢١.

الحياة الثقافية :

كان للتنشئة الخاصة التي مرّ بها المماليك الأثر الكبير في حياتهم الفكرية والثقافية ، فقد اهتم السلاطين بتربية المماليك تربية خاصة تصل حدّ الإشراف عليها ، وكانت هذه التربية تمر بمراحل ، فمنذ صغرهم يبدؤون بتعليمهم القرآن الكريم ، وبعدها يهتمون بتعليمهم آداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار، فإذا شبّ كان تعليمهم شيئاً من الفقه، حتى إذا وصل سن البلوغ بدأ تعليمهم أساليب القتال، وكانوا يعيشون في ثكنات عسكرية تسمى الطباق ، ولم يكن يسمح لهؤلاء المماليك ، وخصوصا الصغار منهم بمغادرة تلك الطباق إلا فيما ندر، فقد وصف المقريزي هذه التنشئة: " كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، منها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان، وأنزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتحدث بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئا من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه أساليب الحرب، من رمي السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر"[1].

من ذلك نتبين مدى التربية التي نشأ عليها المماليك مما ساعد على وجود أجيال من العلماء والفقهاء والمفكرين ، الذين أبهروا البشرية بموسوعاتهم وعلمهم الجم الغزير.

---

(١) تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ ، ٣٧٢/٣ ، ٣٧٣.

وقد تعددت مظاهر اهتمام المماليك بالعلم، وتسهيل سبل الوصول إليه حيث ساروا على سنة الأيوبيين في رعاية العلماء وطلاب العلم وتنشيط الحركة الفكرية، ومما ساعد على ازدهار النشاط العلمي في مصر زمن المماليك عدة عوامل أهمها:

انتقال ولاية العلم لها بعدما دمر التتار الحضارة الفكرية في بغداد، وأضاع على الأمة واللغة نفائس لا تعوض ، ففرّ كثير العلماء ، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدراً .

وقد أغرى ذلك الكثير من العلماء في الأصقاع المختلفة حيث الأمن والسلام ، وأصبح الترحيب بهم سنة متبعة ، فممن وفد إلى مصر: ابن خلكان الإربلي المؤرخ صاحب وفيات الأعيان، وابن مالك النحوي الأندلسي صاحب الألفية والتسهيل ، وابن خلدون المغربي صاحب كتاب العبر ومقدمته الشهيرة ، وابن تيمية الحراني الإمام المجتهد صاحب الفتاوي ، وابن منظور الإغريقي صاحب لسان العرب[١] .

ومنها الغيرة الدينية عند الحكام وتعظيمهم العلماء ورعايتهم ، واستشارتهم في أمورهم العليا، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما ، لما كان لعلماء الدين من جاه عند العامة، ولما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب[٢].

ومنها أيضاً اهتمام السلاطين في إنشاء دور التعليم ورصد الأوقاف ، مما هيأ بيئة تعليمية للمشتغلين بالعوم والآداب طلاباً وأساتذة .

فأنشئوا عدداً ضخماً من دور التعليم في القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية ، حيث بلغ عدد المدراس في القاهرة وحدها أربعين مدرسة ، وأوقفوا عليها الأوقاف التي تهيء لها أسباب

---

(١) محمود رزق سليم : الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧، ص ٩.

(٢) الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث : ص ١٠.

الاستمرار ، وقد عبر ابن بطوطة عن دهشته من كثرة المدراس في مصر فيقول : " وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"[١].

وكان بناؤهم للمدارس إما تقرباً لله ورعاية للشعب، أو مجالاً للمفاخرة ، أو وسيلة تأمين مستقبل أبنائهم عن طريق الوقف على هذه المدراس واشتراط النظر لذريتهم.

ومن عاداتهم في افتتاح المدراس أن يقوموا بحفلات شائقة تلقى فيها الخطب والقصائد، ويختارون للتدريس فيها أبرع العلماء وأفضل الشيوخ .

ومن هذه المدارس: المدرسة الظاهرية التي أسسها الملك الظاهر بالقاهرة عام ٦٦٢هـ، والمدرسة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون ، والمدرسة الناصرية التي أنشأها العادل كتبغا وأكملها الناصر محمد بن قلاوون ، ومدرسة السلطان حسن ، والمؤيدية ، وغيرها .

ومن أهم الدور التعليمية المجيدة : المارستان المنصوري ، بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢هـ ، ويحتوي على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب[٢] ، وقد أثار المارستان إعجاب ابن بطوطة في رحلته فيقول : " وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصر"[٣].

وقد اهتموا بتعليم الفقراء والأيتام ، فقد روى المقريزي عن الجامع الأزهر: " وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة كان عدد كبير من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدّتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة، ومن أهل ريف مصر ومغاربة، ولكلّ طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الإنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا

---

(١) ابن بطوطة (المتوفى: ٧٧٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ٢٦/١.

(٢) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١١، ١٢.

(٣) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، ٢٦/١.

الجامع بأنواع البرّ من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكلّ قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات، لا سيما في المواسم"[١].

ومنها أيضاً – أسباب ازدهار الحركة العلمية – الاهتمام بإنشاء دور الكتب ليجمعوا فيها أنفس ما أنتجت عقولهم من مؤلفات وموسوعات ، ومن أشهرها : خزانة جامع بأمر الله زوده بها السلطان العادل بيبرس عام ٧٠٣هـ، وخزانة جامع المؤيد زوده بها منشئ الجامع وهو الملك المؤيد شيخ عام ٨١٩هـ، وخزانة القبة المنصورية وأنشأها المنصور قلاوون[٢].

هذا ما كان من مكتبات عامة أما ما كان يقتنيه بعض العلماء والأمراء فقد روى ابن إياس: " أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي ، كان عالماً فاضلاً، ولما مات وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة"[٣].

ومنها أيضاً اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية وهذا ما جعلها حية نامية، رغم أن السلاطين كانوا يتكلمون التركية ، فكانت لغة عاجزة عن أداء حاجة الدولة؛ لأنهم كانوا يحكمون شعوباً عربية ولا يمكن التفاهم بينهم إلا بلغتهم؛ لهذا اتخذوا العربية لغة رسمية في دواوين الدولة، وكان ألمع دواوينها " ديوان الإنشاء " الذي اختص بالمكاتبات العربية الديوانية العليا وكان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والادب والكتابة ، مما كان ذلك كله سبباً في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء[٤].

بذلك كله اتسم هذا العصر بنشاط حركة التأليف ، فقد ظهرت طائفة من العلماء الأفذاذ الذين أنتجوا للأمة الإسلامية أنفس الكنوز الأدبية في جميع المجالات والفنون، نذكر بعضها، فمن كتب التاريخ مثلاً: الوفيات لابن خلكان، والطالع السعيد للإدفوي، والوفي بالوفيات للصفدي ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، والخطط والسلوك

---

(١) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٥٧/٤.

(٢) انظر: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١٣.

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، ط١، دار إحياء الكب العربية ، القاهرة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، ٢٠١/٣.

(٤) انظر: الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١٣.

للمقريزي ، وبدائع الزهور لابن اياس المصري ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي .

ومن كتب العربية : الألفية والتسهيل لابن مالك النحوي والأندلسي ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام المصري ، وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين الحلبي ، وخزانة الأدب في علوم الأدب والبلاغة لابن حجة الحموي ، وتلخيص المفتاح للجلال القزويني ، والمزهر في فقه اللغة للسيوطي ، ولسان العرب لابن منظور.

ومن الموسوعات التي ضمت علوماً وفنوناً عدة : مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ونهاية الأرب لشهاب الدين النويري ، وصبح الاعشى لشهاب الدين القلقشندي.

الفصل الثاني

الدراسات الموضوعية

- المدائح النبوية.
- المديح.
- الغزل.
- أغراض أخرى.

الشعر لغةً:

إن المادة اللغوية لكلمة الشعر تتكون من ثلاثة حروف (ش ع ر) وهذه الأصول تحمل معاني الإحساس بالشيء والشعور به، أو ما يخطر ببال الإنسان فينسجه في كلمات تحمل هذا الشعور، فالشعر هو " شعَرَ بـ يَشعُر، شُعوراً، فهو شاعِر، والمفعول مَشعور به.

• شعَر به:

١ – أحسّ به، أو أدركه بإحدى حواسِّه الظّاهرة أو الباطنة "لم يشعر به أحد– شعَر بالبرد، التعب والإجهاد.

٢ – خَطَرَ ببالِه :﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

ويقال: شعُرَ/ شعُرَ بـ يَشعُر، شِعْراً، فهو شاعر، والمفعول مَشْعُور به.

• شعُر فلانٌ: صار شاعراً، اكتسب ملكة الشِّعر فأجادَه "خالط الشُّعراءَ فشعُر.

• شَعُر به: شعَر به؛ أحسَّ به[١].

أما الشعر اصطلاحاً:

فقد عرفه النقاد الأوائل ففي تعريف ابن طباطبا العلوي بأنه: "كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود؛ فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق بها حتى تصير معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه[٢].

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة : ١٢٠٥/٢.

(٢) ابن طباطبا العلوي (المتوفى: ٣٢٢هـ): عيار الشعر ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، طبعة مكتبة الخانجي – القاهرة، د.ت، ص ٦.

فالذي يحكم استعانة الشاعر بالأوزان العروضية من عدمه هو الذوق السليم، والطبع القويم، فصاحب الذوق السليم لا يحتاج إلى الأوزان الشعرية حتى ينسج عليها شعره، على عكس من فسد طبعه.

أما قدامة بن جعفر فقد وضع حداً للشعر ما تخطاه من الكلام فليس منه، واختصر التعريف بقوله: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى".

فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر.

وقولنا: موزون: يفصله مما ليس بموزون، إذ كان من القول موزون وغير موزون.

وقولنا: مقفى: فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع.

وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى.

فإنه لو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئاً كثيراً على هذه الجهة لأمكن وما تعذر عليه.

فإذ قد تبين أن كذلك، وأن الشعر هو ما قدمناه، فليس من الاضطرار إذن أن يكون ما هذه سبيله جيداً أبداً ولا رديئاً أبداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران، مرة هذا، وأخرى هذا، على حسب ما يتفق، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الرديء[١].

فالملاحظ من تعريفات القدماء أنهم عمدوا على الذوق والطبع في تحديد جيد الشعر من رديئه، وكذلك في وضع الحدود العامة للشعر في الوزن والتقفية.

أما النقاد المحدثين فقد عدّوا الشعر صناعة معقدة غاية التعقيد، وأنه ليس عملاً سهلاً ساذجاً؛ لأنه كما يرى شوقي ضيف : "أنه يخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى ، ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره"[٢].

---

(١) قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ): نقد الشعر ، ط١، مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، ١٣٠٢، ص ٣.

(٢) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط٩، دار المعارف، القاهر، د.ت، ص ١٤.

وقد قسم القدماء الشعر إلى خمسة أقسام حسب الذوق والطبع فمنها المُرقِص، والمُطرب والمقبول، والمسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه الطبع، والمتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع[١].

وقد قسم بعض النقاد فنون الشعر حسب الأغراض التي قيلت فيها واختلفوا في حصرها فقد عدّها أبو هلال العسكري ستة أقسام هي " المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمراثي، والفخر[٢].

وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع: "الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهي: غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وأدب وزهد وخمريات ومراث وبشارة وتهاني ووعيد وتحذير وتحريض وملح، وباب مفرد للسؤال والجواب[٣].

غير أن الذوق العربي العام كان يفضل من بين أغراض الشعر أربعة يؤثرها على غيرها، وهي : النسيب، والفخر، والمديح ، والهجاء؛ وسبب إيثارهم لهذه الأغراض لما لها من صلة وثيقة بحياة الشعور والاجتماع ، فالنسيب لشيوع الغناء وكثرة الغنيين ، والأغراض الثلاثة الأخرى هي صورة الحياة الاجتماعية عند العرب، بما فيها من عصبية ونضال واكتساب معايش، وكأن الشعر عندهم تصوير حياتهم الروحية والاجتماعية[٤].

---

(١) انظر: الأبشيهي (محمد بن أحمد) المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي، ط٥، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م، ص٥٨٤.

(٢) العسكري، (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران)، (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) الصناعتين ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة المكتبة العنصرية – بيروت،١٤١٩ هـ، ص ٤٣١.

(٣) المستطرف ص ٥٨٤.

(٤) أحمد أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر ،القاهرة ، ١٩٩٦م ص ١٣٦.

الشاعرية:

أما الشاعريَّة: مصدر صناعيّ من شاعر: موهبة قول الشِّعر "يتمتّع هذا الرَّجُل بشاعريّة فيّاضة"[١].

الشعرية لغة : الشعرية اسم مشتق من كلمة "شعر" وقد أضيفت إليها اللاحقة "ية" لإضفاء الصفة العلمية، تماما كما لو يقال: علم الشعر، وذلك جرياناً على نحو الأسلوبية، والألسنية، والأدبية، الشعرية اصطلاحاً: مفهوم الشعرية نابع من الشعر، وكامن فيه عبر التاريخ، حيث تعود أصول تواجد هذا المفهوم إلى كتاب الشعر لأرسطو، الذي اعتمد نظرية المحاكاة كأساس نظري لشعريته، التي يمكن أن نطلق عليها (شعرية المحاكاة) التي قعد لها أرسطو، يبتغي منها أن تكون مدعاة (للتطهير)، وأنموذجاً للمجتمع المثالي الذي تتطلع إليه الحضارة اليونانية، ثم تغير مفهوم الشعر ومن خلاله مفهوم الشعرية، وفق التطورات التي ظل يشهدها التاريخ، ومدى تأثير تلك التداعيات ،التي أخرجت إلى الوجود مدارس واتجاهات مذهبية أدبية، على غرار الكلاسيكية، ثم الرومانسية فالواقعية والتعبيرية ثم الرمزية، فالسريالية والواقعية الروسية ثم اتجاه الشعر الخالص، وغير ذلك.وإن أتينا إلى ما يميز الشعر لوجدناه يعتمد مبدأ التخييل، الذي يعد جوهره الأساس بحيث يزوده بصفة الحسية، والشعور بالمدركات التي أعيد تشكيلها[٢]، عن طريق المحاكاة، التي تقتضي فراسة الشاعر، وحذقه ومهارته أو ما يسمى (الشاعرية)، فالشاعرية هي التي تصنع (شعرية النص أو الخطاب الأدبي)، وبتعبير أوسع وأعم، فشاعرية الفنان هي التي تصنع شعرية فنه .

ويذهب التصور الإغريقي الأرسطي في رؤيته للشاعرية على نحو أن "الشاعر لا يحاكي ما هو كائن، ولكنه يحاكي ما يمكن أن يكون، أو ما ينبغي أن يكون بالضرورة أو الاحتمال، فإذا حاول الفنان أن يرسم منظراً طبيعياً مثلاً، ينبغي عليه ألا يتقيد بما يتضمنه ذلك المنظر، بل يحاكيه ويرسمه كأجمل ما يكون، أي بأفضل مما هو عليه، فالطبيعة ناقصة ، والفن يتمم ما في الطبيعة من نقص، لذلك فإن الشعر في نظره مثالي وليس نسخة طبق الأصل عن الإنسانية"[٣]،

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة : ١٢٠٦/٢.

(٢) ينظر: إحسان عباس، فن الشعر، (دن)، بيروت 1959 ،ص.210

(٣) شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ، دار الحداثة بيروت ،1986،ط١ ص .33

فالمحاكاة هنا تستدعي براعة الفنان وإبداعيته أو شاعريته، لأنه إذ يحاكي فهو لا يقرر الحقيقة، وإنما يتخيل ليقول ما هو غير ممكن في الواقع، وبالتالي يداعب أحاسيس الجماهير ويرفعها لتكون أكثر مثالية، وبالتالي يكون تأثير محاكاته أبلغ .

فشعرية النص –من هذا المنطلق– تعني كل ما يشحن اللغة العادية، ويجعل منها قطعة شعرية جذابة ومؤثرة، ذات وقع خاص على النفس.

ولو أردنا تمثل الشعرية في صورة فوتوغرافية لوجدنا أن كل واحد منا يلتقط لنفسه العديد من الصور، على مراحل من الزمن، ولكنه ينجذب إلى واحدة منها بالذات، دون سواها من الصور، فشعرية تلك الصورة هي ما يغلفها من سر يجعلنا ننجذب إليها، ونتأثر بها .وما ينبغي الإشارة إليه هنا، هو أن رؤيتنا لتلك الصورة حتما لا تكون على درجة واحدة من الإعجاب، إذ تتفاوت درجات جماليتها من ناظر إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى ،ومن ثمة نكتشف أن شعرية العمل الفني متأرجحة وليست ثابتة، وقد تتأثر بعملية التلقي والتأويل، باعتبار أن المتلقي فاعل عند قراءته، وله سهمه في الأثر الفني ، وينطوي ذلك على خلفيته الثقافية، التي دون شك تختلف عن ثقافة غيره، وعلى سبيل المثال: ما يراه العاشق خالا* ينمق خد معشوقه، يراه الطبيب سرطاناً مقيتاً، سيأتي يوماً ما على نخر وتخريب ذلك الوجه الصبوح.

ومن هذا المنطلق وكمختصر للقول يبدو أن الشعرية أو الشعريات . مادامت الشعريات مجرد جمع لمصطلح الشعرية. "كعلم للشعر" تهتم بمواصفات الخطاب الفني وماهيته وتسهم في البحث والتأصيل للكتابة النقدية التي تحوم حوله .إذ إن اللغة الأدبية أو اللغة الشعرية، قديما وحديثا، هي تلك اللغة التجاوزية، التي تخترق المعيار و"تختلف عن اللغة القياسية، لأنها تنزاح بطبيعتها عن معيارية اللغة ،لأن هدف اللغة الأدبية هو إثارة انفعال لا تقرير وقائع، فهي لغة استشرافية بطبيعتها لأنها لا تعرف اختزال المعنى، إنها توسع وتضيق في ذات الوقت التفاوت بين الرمز والفكرة ، بين العلامة والمكتوب ،والمكتوب والمعنى المحدد" [1]، ومن ثم فإن الشعرية على مستوى السماع تعني الإطراب وشدة الوقع على القلب وإثارة المشاعر، أما على مستوى اللغة،

(١) عبد الله إبراهيم ،التفكيك الأصول والمقولات ، دار إفريقيا الشرق،1989،المغرب ص.75

فهي التمرد على المعيار، والانحراف عن القاعدة، واللعب بحرية على وتر الدلالة، والتملص بمرونة من قبضة مقاصد الألفاظ المتواضع عليها.

الصنائع النبوية

أولاً : المدائح النبوية :

المديح هو ذكر الصفات الحسنة للممدوح ، ولكن قيمة المديح تتعلق بالممدوح ، وما اختص به هذا المدح أن الممدوح هو سيد الورى، إمام النبيين، أفضل البشر على الاطلاق ، من مدحه صدق ، ومن عدل عن ذلك من الكفرة خاب وخسر ، فكله محمود، صفاته ، أخلاقه ، معاملاته، حياته كلها توصف بما يوصف – صلى الله عليه وسلم – من الحسن.

فقد ارتبط هذا النوع من المديح بالعصر الذي أشرق فيه نور الهدى ، وتجلت فيه أسمى آيات الرقي بالفكر والإنسان ، فكان شعاع الإسلام يبدد ظلام الجهل والعبودية لغير رب العباد، فبعث لنا سراجاً نهتدي بما أمده الله له من الكتاب والحكمة ، فكان أعظم وأنبل رجل عرفته البشرية محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي أسدى لهذه الأمة جميلاً لو بقيت في صوامعها تشكر الله على هذه النعمة ما وفَّت هذه النعمة حقها، فالشغل في ذكر صفاته وأخلاقه فيه من الأجر العظيم ما فيه ، فحق لمن مدحه أن يفخر بما يصنع.

في بداية دعوته – صلى الله عليه وسلم – تعرض لهجمة إعلامية لتشويه ما يدعو إليه من الهدى ، فاشتد هجاء قريش له، فحث النبي – صلى الله عليه وسلم– أصحابه لنصرة دين الله ونصرة نبيه فقال: " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم " ، فبرز حسان بن ثابت وقال : أنا لها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشدُّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم وروح القدس معك"[1]، فكان حسان ابن ثابت من الثلاثة الذين دافعوا عن نبي الله صلى الله عليه وسلم وردوا غيظ الحاقدين ، فكان هو وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، من برزوا لتلك المهمة الجهادية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم في حقهم: " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل"[2].

---

(١) ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م ، ٣١/١.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ٣١/١.

فكانت المدائح النبوية في أول هذا العصر مهمة جهادية ، يمدح فيها الشعراء نبيهم ويفخرون به في نفس الوقت ، فكان شعرهم مدح وفخر ودفع ، ومن أشهر تلك القصائد ، همزية حسان بن ثابت، التي أولها[١]:

عفـــت ذاتُ الأصـــابعِ فـــالجواءُ إلـــى عـــذراءَ منزِلُهـــا خـــلاءُ

فسار فيها على النهج القديم فبدأ بالوقوف على الأطلال ، ثم ذكر المحبوبة ، ثم وصف الخمر، الغرض من القصيدة وهو مدح النبي– صلى الله عليه وسلم – وهجاء أبي سفيان أحد زعماء قريش.

وله مقطوعة من بيتين خصها لمدح النبي صلى الله عليه وسلم فيقول[٢] :

وأحســن منــك لــم تــرَ قــطُ عينــي وأجمــل منــك لــم تلــد النســاءُ

خُلِقْـــتَ مبـــرَّأً مـــن كـــل عيـــبٍ كأنـــك قـــد خُلِقْـــتَ كمـــا تشـــاءُ

ولكن الحق أن نمو هذا الفن وازدهاره كان في عصر الموحدين بالأندلس ، فقد توسعوا في موضوعاته ، وبرعوا في تناوله ، حيث برع في هذا الفن العديد من الشعراء حتى أنهم أفرغوا له أنفسهم ، من هؤلاء الشعراء الذين صرفوا شعرهم لهذا الفن عبد الرحمن الفازازي[٣] ، الذي وصفه المقري بأنه : "صاحب الأمداح في سيد الوجود – صلى الله عليه وسلم– "[٤] ، وقد أثنى عليه المقري في مدحه للنبي – صلى الله عليه وسلم– فقال : " له في مدح النبي – صلى الله عليه

---

(١) ديوان حسان بن ثابت : شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبد أ. مهنا ، ط٢، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٤م ، ص٢٠.

(٢) السابق: ص٢١.

(٣) هو عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجنشي الفازازي، ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان، وكان عالماً بالحديث متصرفاً في فنونه، كاتباً شاعراً مجوداً، مشاركاً في أصول الفقه، ذا معرفة بعلم الكلام، تجول ببلاد العدوة والأندلس كثيراً، وغلب عليه شعر الزهد والتصوف . (نفح الطيب ٤٦٨/٤)

(٤) أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ط١، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٧، ٤٦٨/٤.

وسلم –، بدائع قد خضع لها البنيان وسلم، أعظم تلك المعجزات نظماً ونثراً، وأوجز في تحبير تلك الآيات البينات فجلا سحراً، ورفع للقوافي راية استظهاراً تخير فيه الأظهر"[١].

وممن برز لفن المدائح النبوية أيضاً ابن الجنان الشاطبي فذكر المقري: " أن كلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل "[٢].

ومما يدل على ازدهار هذا الفن في العصر الأندلسي أن النساء كانت لهن مشاركة فيه ، كما كان للنثر أيضاً مشاركة واسعة فيه ما يعني رواج هذا الفن في هذا العصر [٣].

وقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها قصيدة المدح النبوي ، فنظم الشعراء قصائد في وصف مآثر الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، ومناقبه، ومعجزاته، ونظم آخرون يتشوقون فيها إلى زيارة مقامه الكريم ، ونظم بعضهم قصائد يتباركون فيها بآثاره الكريمة .

وقد سلك الشعراء في مدائحهم دروباً مختلفة في نظم المدائح النبوية ، فبعضهم يبني مدحته على قوله (صلى الإله على النبي الهادي) ، أو قوله : (صلوا على خير البرية) [٤]، فتتكرر هذه العبارة في مطلع كل بيت وتسير المدحة كلها على هذا النمط [٥].

وقد يبدأ الشاعر مدحته بتوجيه الخطاب مباشرة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، ويلتمس منه الشفاعة ، ومنهم من يستهل مدائحه النبوية بمقدمات غزلية ينتقلون بعدها إلى مدح النبي – صلى الله عليه وسلم– ، ومنهم من يلتفت إلى المعلقات والقصائد المشهورة ، فيأخذها ويصرف معناها إلى المدح النبوي[٦].

---

(١) نفح الطيب ٤٦٨/٤.

(٢) السابق: ٤٣١/٧.

(٣) فوزي سعد عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م، ص٢٦٧.

(٤) نفح الطيب ٤٤٠/٧.

(٥) انظر : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص ٢٦٨.

(٦) السابق: ٢٦٨-٢٧٠.

المدائح النبوية في عصر ابن حجر العسقلاني:

المديح النبوي فن أصيل في العصر المملوكي حيث رأى بعض النقاد أن اتساع ورسوخ هذا الفن واتضاح معالمه كان في هذا العصر، حيث أضحت له تقاليده وأصوله، وظهر الشعراء الذين اشتهروا به وأجادوه[١].

ولعل ذلك يرجع إلى جملة عوامل منها أن العصر كان عصر تعصب إسلامي ، وغيرة دينية واسعة بسبب حروب الصليبيين والتتار وطمعهم في أملاك المسلمين ، والقضاء عليهم وعلى دينهم ، ومنها أن العصر كان عصر ظلم وإرهاق واستبداد من الحكام ، فلاذ الشعب ببث آلامه بالتوسلات إلى الله سبحانه أن يكشف عنه الغمة ، وأشرف ألوان التوسلات ذكر النبي الكريم ، والتشفع به إلى الله.

وهناك عامل آخر وهو إعجاب الشعراء ببردة البوصيري التي وجهت المديح النبوي وجهة جديدة لم تكن من قبل ، فعارضوها بقصائد ضمنوها ألواناً من البديع وسموها "البديعيات" .

ومن رجال المديح النبوي – عدا البوصيري – الشاب الظريف ، وابن نباتة المصري ، وابن حجر العسقلاني ، وأصحاب البديعيات ومنهم صفي الدين الحلي ، وعز الدين الموصلي ، وتقي الدين ابن حجة الحموي[٢].

---

(١) انظر: محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤١٧هـ، ص١٨.

(٢) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ٦٩-٧٠.

كتب ابن حجر في ديوانه سبع قصائد في المدح النبوي ، فترى في مدائحه السبعة للمصطفى – صلى الله عليه وسلم – أنه سار على نهج المادحين القدماء في بناء قصائده، من أمثال كعب بن زهير في بردته ، والبوصيري ، فبدأ بالتغزل ، ولوم العواذل، وشدة الشوق ، ولوعة الوجد ، ولكن تظهر شاعرية ابن حجر في هذا الغرض في تعامله الخاص بالمقدمة الغزلية، التي تعامل معها على غرار السابقين، فلم يجعلنا نسبح بخيالنا في الغزل والنسيب، بعيداً عن مراده ومأربه، فأرض المحبوب هي بالنسبة إليه أرض ممدوحه المصطفى –صلى الله عليه وسلم–، فترى في مدحته السادسة يذكر في مقدمته الغزلية مناطق بأرض الحجاز، يقول[١]:

وذكري أرض نَعمان[٢] بها قد روتْ عينايّ عن ماءِ السماءِ

ويزيد على ذلك بأن يطلب من القوافل أن تأخذ جسمه وروحه إلى طيبة مدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فهي مجتمع الهناء، فيها الرائحة الطيبة والفوز بالخير والنجاة من الشر، والملاذ لكل تائه، فكحل ترابها دواء لرمد العيون، يقول[٣]:

وَلا أَنسى غداة البين لمّا رآني اليأسُ مُنقَطِعَ الرَجاءِ
وَقَد زُفَّت لَهُم نجبٌ تهادى كأَمثال العَرائِسِ للجِلاءِ
وَخَطَّت مِن مَناسمها سُطوراً وساروا فَهي خطّ الإستواءِ
فَقلتُ لَها خُذي جِسمي وَروحي لطيبةَ حيث مجتمع الهناءِ
مَنازِلُ طيبةَ الفَيحاءِ عرفاً مَفازة طيبةٍ وَمَلاذ نائي
فَإِن رمِدَت مِنَ التَسهيد عَينٌ فإثمد تربها عَينُ الدَواءِ

وفي نسيبه في مدحته الأولى تراه يستهجن لوم عذّاله له بمجرد معرفتهم بأن مغرم، مع عدم معرفتهم من محبوبه ، ولكن يعدهم بأن يأتيهم تأويل ما لاموا عليه، وهو بمعنى إذا علم العواذل بمن كان الشاعر يلام في غرامه وهواه ، لسكتوا وعلموا عين الخطأ، وفي هذا إشارة إلى أن هذا الهوى لا يختلف عليه اثنان ، ولا يكون محل لوم العذّال، يقول[٤]:

---

(١) الديوان : ١٢١
(٢) أرض نعمان موضع بالحجاز (انظر معجم البلدان : ٣٧٩/١)
(٣) الديوان : ١٢٢.
(٤) الديوان :٩٧.

لَـــو أَنَّ عُـــذّالي لِوَجهِـــكَ أَســـلَموا ... لَرَجَـــوتُ أَنّـــي فـــي المَحَبَّـــةِ أَســـلَمُ

كَيـــفَ السَـــبيلُ لِكَـــتمِ أَســـرارِ الهَـــوى ... وَلِســـانُ دَمعـــي بِـــالغَرامِ يُتَـــرجمُ

لامَ العَـــواذِلُ كُـــلَّ صـــادٍ لِلّقـــا ... وَمَلامُهُـــم عَـــينُ الخَطـــا إِن يَعلَمـــوا

لَـــم يَعلَمـــوا بِمَـــن الهَـــوى لَكِـــنَّهُم ... لامـــوا لعلمهـــمُ بِـــأَنّي مُغـــرَمُ

لامـــوا وَلَمّـــا يـــأتِهِم تأويـــلُ مـــا ... لامـــوا عَلَيـــهِ لأَنّهـــم لَـــم يَفهَمـــوا

إن أبرمـــوني بـــالملامِ فـــإنَّ لـــي ... صـــبراً ســـيَنْقُضُ كلمـــا قـــد أبرمُـــوا

وفي نسيب مدحته الخامسة يذكر صفات حبيبه ، ومنها ما أكرم الله به حبيبه المصطفى– صلى الله عليه وسلم– من سقيا الأرض القحط[1]، ويكرر تسفيه العذّال في لومه إن لاموه على حبه وهواه، يقول[2]:

غـــرامٌ غـــريم الوصـــل فيـــه مماطـــلُ ... وَصَـــبرٌ لحلـــيِ الجيـــدِ بِالـــدَمعِ عاطِـــلُ

وَأَيّـــامُ هَجـــرٍ مِـــن حَبيـــبٍ مُغاضِـــبٍ ... عَهِـــدناهُ أَيّـــامَ الرِضـــى وَهـــوَ واصِـــلُ

غَنـــيٌّ جَمـــالٍ لا يَلـــينُ لِبـــائِسٍ ... وَلا يَـــرحَمُ المُشـــتاقَ وَالـــدَمعُ ســـائِلُ

كـــأَنَّ الثَـــرى فـــي المَحـــلِ مُستَشـــفعٌ بِـــهِ ... لِيَرويَـــهُ مِـــن سُـــحبِ جفنـــيَّ وابِـــلُ

فَيـــا عـــاذلي إنّـــي قُتِلـــتُ تولّهـــاً ... فـــإن لُمتَنـــي فيـــهِ فَمـــا أَنـــتَ عاقِـــلُ

سَـــقى اللَـــهُ دَهـــراً كـــانَ للشـــملِ جامِعـــاً ... بِـــهِ فَهَـــل الرضـــوانُ لِلجَمـــعِ شـــامِلُ

وَأُقسِـــمُ أَيمانـــاً بِحَـــقِّ مُحَمَّـــدٍ ... لَقَـــد أَوحشـــتني مِنـــهُ تِلـــكَ الشَـــمائِلُ

من ذلك يتضح مدى التواصل المعنوي والوحدة العضوية في قصيدة المدح النبوي فالمقدمة الغزلية لم يكن لغرضه ومعناه، وإنما لإبراز وتأكيد مدى شوقه وحبه للمصطفى–صلى الله عليه وسلم–.

---

(١) وتجد ذلك في السيرة النبوية عندما قالت قريش لأبي طالب : أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق، فخرج ومعه غلام ، كأنه شمس دجن، نجلت عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادي ، وأخضب النادي والبادي ، فقال أبو طالب:

وأبـــيض يستســـقى الغمـــام بوجهـــه ... ثمـــال اليتـــامى عصـــمة للأرامـــل

انظر الرحيق المختوم ص ٤٢.

(٢) الديوان :١١٨.

وكان انتقال ابن حجر من النسيب إلى غرضه الأساسي في مدح الحبيب انتقالاً سلساً فتكاد لا تشعر بالفجاءة في الانتقال.

أقسام قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر:

أخلاق النبي – صلى الله عليه وسلم – وآثاره كان لها الحضور الأبرز في مدحه النبوي، فقد بدأ نظمه بنفي وجود كلام يستطيع أن يحوي أخلاق النبي وصفاته، وأن كل كلام المادحين في فضل النبي– صلى الله عليه وسلم– لا يساوي شيئاً أمام ما شهد به الله عز وجل له في كتابه الكريم، المعجز بلفظه وبقائه، ففي ذلك يقول ابن حجر[١]:

يـــا سَـــيّدَ الرُســـلِ الَّـــذي آياتُـــهُ ... لا تَنقَضـــي أَبَـــداً وَلا تَتَصَـــرَّمُ[٢]

مـــاذا يَقـــولُ المـــادِحونَ وَمَـــدحُكُم ... فَضـــلاً بِـــهِ نطـــقَ الكِتـــابُ المُحكَـــمُ

المُعجِـــزُ البـــاقي وَإِن طـــالَ المَـــدى ... وَلأبلـــغِ البلغـــاءِ فَهـــوَ المُفحِـــمُ

الأَمـــرُ أَعظَـــمُ مِـــن مَقالَـــةِ قائِـــلٍ ... إِن رَقَّـــقَ الفُصَـــحاءُ أَو إِن فَخَّمـــوا

فآثاره بها طب القلوب ، وبهداه دواء لداء الذنوب، فهو الرحمة المهداة، فكان الخوف والجزع بوجوده يتحول، وكان الأمان والطمأنينة بالتمسك بسنته يتمكّن، فمن نصره وآمن به فاز ، ومن كفر به خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، يقول [٣]:

آثـــارُ خَيـــرِ المُرسَـــلينَ بِهـــا شِـــفا ... داء الـــــذُنوبِ لِخـــــائِفٍ يَتَهَـــــوَّمُ

هـــوَ رَحمَـــةٌ لِلنـــاسِ مُهـــداةٌ فَيـــا ... وَيـــلَ المعانِـــدِ إِنَّـــهُ لا يُـــرحَمُ

نـــالَ الأَمـــانَ المؤمِنـــونَ بِـــهِ إِذا ... شُـــبَّت وُقـــوداً بِالطُغـــاةِ جهَـــنَّمُ

---

(١) الديوان: ١٠١,١٠٢.

(٢) لا تتصرم : لا تستأصل ولا تهجر ، لأن الصَّرْمُ: القَطْعُ البائنُ ، (لسان العرب ، مادة صرم) ٣٢٣/٥.

(٣) الديوان: ١٠٠.

فحق لمن كان الله وليه وناصره أن تكون تلك هي آثاره فهو الرسول البشير الذي لا ينطق عن الهوى ، وفي إشارة الى قوله تعالى " ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ "[1] يقول[2]:

اللَّـــهُ أَيَّـــدَهُ فَلَـــيسَ عَـــن الهَـــوى ... فـــــي أَمـــــرِهِ أَو نَهيـــــهِ يَـــــتَكَلَّمُ

ثم ينتقل إلى مدح نسب النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقد ذكر شرف أصل رسول الله، ونسبه، فقد ورد أنه صفيُّ الله اصطفاه الله من بني هاشم فقال : "إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[3]، يقول ابن حجر[4]:

أبـو القاسـم المختـارُ مـن نسـلِ هاشـمٍ ... وأزكـى الـورى نفسـاً وأصـلاً ومحتـدا

نبـــــيٌّ بـــــراه الله أشـــــرف خلقـــــه ... وأسـماه إذ سـمَّاه فـي الـذِّكر أحمـدا

فـــأكْرِم بِـــه عبـــداً صـــفيَّاً ممـــدَّحاً ... وأنعـــم بـــه مـــولًى وفيـــاً محمـــدا

ثم ينتقل للحديث عن مولده – صلى الله عليه وسلم – وما حدث من معجزات وإرهاصات ودلائل بالبعثة "فقد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى؛ وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة (ساوة) بعد أن غاضت"[5] ، ورأت أمه حين ولدته نوراً خرج منها أضاءت له قصور الشام[6]، ففي ذلك قال ابن حجر[1]:

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣,٤.

(٢) الديوان: ١٠٠.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي – بيروت ، حديث رقم ٢٢٧٦، ١٧٨٢/٤.

(٤) الديوان : ١٢٦.

(٥) محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ) : فقه السيرة ، ط١، دار القلم ، دمشق، ١٤٢٧هـ، ص ٦١.

(٦) فعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: " نعم أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام ... " وقال بعضهم: وقع جاثيا على ركبتيه، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها، حتى رئيت أعناق الإبل ببصرى، رافعا رأسه إلى السماء.

إيــوانُ كســرى اِنشــقّ ثُــمَّ تَســاقَطَت شُــرُفاتُهُ بَــل قــادَ رُعبــاً يُهــدَمُ

وَالمــاءُ غــاضَ وَنــارُ فــارِسَ أُخمِــدَت مِــن بَعــدِ مــا كانَــت تُشَــبُّ وَتُضــرَمُ

هَــــذا وآمنــــةٌ رأت نــــاراً لَهــــا بُصــرى أَضــاءَت وَالــدياجي تُظلَــمُ

ويبدأ بعدها بسرد معجزات النبي – صلى الله عليه وسلم – التي لا ينكرها إلا من كان كفيفاً عن رؤية نبراس الهدى، وسبيل الرشاد ، لأنه كمن أنكر ضوء الشمس في رابعة النهار، قال ابن حجر[٢]:

ذي المُعجِــزاتِ فَكُــلّ ذي بصــرٍ غَــدا لِصَــــوابها بِــــالعَينِ ذا تَصــــويبِ

كَالشَــمسِ ضــاءَت للأَنــامِ وَأَشــرَقَت إِلّا عَــــن المَكفــــوفِ وَالمَحجــــوبِ

فمن معجزاته –صلى الله عليه وسلم – معجزة الحصى التي نطقت وسبحت بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم– [٣]، ومعجزة تكليم البهائم، إشارة إلى تكليم شكوى الجمل له من صاحبه[٤]، يقول[٥] :

ذو المعجِــزاتِ البــاهِراتِ فَسَــل بِهــا نُطــقَ الحَصــى وَبِهائِمــاً قَــد كلّمــوا

ومعجزة انشقاق القمر فقد ثبتت في كتاب الله – عز وجل –بقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾[٦]، وكذلك وردت في السنة النبوية، فقد ورد

انظر: ابن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م، ٨٥/٢.

(١) الديوان: ١٠١.

(٢) الديوان:١٠٦.

(٣) "فقد ورد عن أبي ذر الغفاري قال: إني لشاهد عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة وفي يده حصى فسبحن في يده وفينا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فسمع تسبيحهن من في الحلقة ..."
أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥، حديث ١٢٤٤ ، ٥٩/٢.

(٤) فقد روى أن جملاً شكى للنبي صلى الله عليه وسلم سوء معاملة صاحبه
مسند الإمام أحمد بن حنبل : تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد، وآخرون ، ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ م، رقم الحديث ١٧٤٥.

(٥) الديوان: ١٠٠.

(٦) سورة القمر : آية ١,٢.

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – " أن أهل مكة سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر"[١]، فقد طلب مشركو قريش من النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يشق لهم القمر إثباتاً لصدق نبوته ، فطلب النبي من ربه أن يعطيه سؤالهم، وكان ذلك مع موافقتهم على الدخول في الإسلام إن حدث ذلك ، فوقع ما كانوا يطلبون وكان ذلك في ليلة البدر، ولكن كفرهم وعنادهم جعلهم يحيدون عن طريق الهدى ، فاتهموا النبي– صلى الله عليه وسلم – بالسحر[٢]، يقول[٣] :

وَانشَقَّ بَدرُ التَمَّ معجزَةً لَهُ وَبِهِ أَتاهُ النَصرُ قَبلَ مَغيبِ

ومعجزة نبع الماء من بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك يوم الحديبية حين عطش الناس ولم يجدوا ماءً ليشربوا ولا ليتوضؤوا ، فكان بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم– إناء به ماء فوضع يده الشريفة فيه ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون[٤]، فيقول[٥]:

نَطَقَ الجَمادُ بِكَفِّهِ وَبِهِ جَرى ماءٌ كَما يَنصَبُّ مِن أُنبوبِ

---

(١) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي : صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ. رقم الحديث ٣٦٣٧ ، ٢٠٦/٤.

(٢) للمزيد حول معجزة انشقاق القمر انظر: محمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ) : القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، دار الندوة الجديدة ، بيروت. ص ٤١٧.

(٣) الديوان ١٠٦.

(٤) ففي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه، قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لكم؟» قالوا يا رسول الله: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب، إلا ما في ركوتك، قال: «فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون». قال: فشربنا وتوضأنا فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة" (الحديث رقم : ٤١٥٢ ، ١٢٢/٥)

(٥) الديوان: ١٠٦.

ومن معجزاته أنه رد عيناً في تبوك عيناً تجري فيه الماء بعد أن كانت لا تجود بالماء إلا القليل القليل [١]، يقول[٢] :

وَالعَــينُ أَوردَهــا وَجــادَ بِهــا كَمــا قَــد رَدَّهــا كالشَــمسِ بَعــدَ غُــروبِ

ومعجزة رد الشمس بعد مغيبها، فمن معجزات سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – أنه طلب من الله أن يرد الشمس بعد غروبها ؛ لأن سيدنا عليّ – رضي الله عنه – لم يصلِّ العصر لأن النبي وضع رأسه في حجر عليّ ، فلم يحركه حتى غربت الشمس[٣]، يقول[٤]:

وعــين الشــمس رُدَّتْ بعــد حَجــبٍ لــدى الحســنين منــهُ بالــدعاءِ

ومعجزة رد عين الصحابي الجليل قتادة بن النعمان[٥] يوم أحد حيث أصيب في عينه فوقعت على وجنته ، فأصبحت أحسن عينيه[٦]، وفي ذلك يقول[١]:

---

(١) قدم – صلى الله عليه وسلم – تبوك، فوجد عينها كشراك النعل، فغُرِفَ له منها قليلاً قليلاً، حتى اجتمع له شيء قليل، فغسل فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماءٍ مُنهمرٍ، وبقيت العين إلى الآن. (صحيح مسلم : ١٧٨٤/٤)

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

(٢) الديوان ١٠٦.

(٣) فعن أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بالصهباء من أرض خيبر ثم أرسل عليا في حاجة فجاء وقد صلى رسول الله العصر فوضع رأسه في حجر علي ولم يحركه حتى غربت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إن عبدك علياً احتبس نفسه على نبيه فرد عليه شرقها، قالت أسماء: فطلعت الشمس حتى رفعت على الجبال فقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت الشمس. انظر البداية والنهاية ٨٠/٦.

(٤) الديوان: ١٢٣.

(٥) قَتَادَة بن النُّعْمَان ت(٢٣ هـ) : قَتَادَة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري الاوسي: صح أبي بدري، من شجعانهم. كان من الرماة المشهورين. شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم وكانت معه يوم الفتح راية بني ظفر. وتوفي بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة. له سبعة أحاديث. (الاعلام: ١٨٩/٥).

(٦) عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى يوم أحد عن قوسه حتى اندقت سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على

وعـــينُ قُتـــادة ســـالت فَـــرُدَّتْ ومُـــدَّتْ مـــن يديـــه بالضـــياءِ

وعين علي – رضي الله عنه– يوم خيبر التي بفضل الله برئت على يد النبي– صلى الله عليه وسلم – ، عندما أراد أن يعطيه الراية ليكون الفتح على يديه [٢]، يقول[٣]:

بـــالعين قـــد جـــاد أفضـــالاً وأوردهـــا وردَّهـــا بعـــد مـــا أرخـــت لهـــا سُـــجفَا

وفي ذكر ما في حادثة الإسراء والمعراج من معجزات، فقد أشار ابن حجر بعض الأحداث التي وقعت مع النبي– صلى الله عليه وسلم – في ليلة الإسراء والمعراج ، من سفره بجسمه ، وخدمة جبريل – عليه السلام – له ، وإمامته بالأنبياء في المسجد الأقصى ، والمنزلة التي وصل إليها النبي – صلى الله عليه وسلم – عند صعوده إلى الجبار جلَّ جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، وفي ذلك يقول[٤]:

وَبليلَـــةِ الإِســـراءِ ســـارَ بِجِســـمِهِ وَالـــروحُ جِبريـــلُ المطهَّـــرُ يَخـــدِمُ
صَـــلّى بِـــأَملاكِ السَـــما وَالأَنبِيـــا وَلَـــهُ عَلـــيهم رِفعَـــةٌ وَتقـــدُّمُ
وَعَـــلا إِلـــى أَن جـــازَ أَقصـــى غايَـــةٍ لِلغَيـــرِ لا تُرجـــى وَلا تتـــوهَّمُ
وَلِقـــابِ قَوسَـــينِ اِعتَلـــى لَمّـــا دَنـــا أَو كـــانَ أَدنـــى وَالمهَـــيمنُ أَعلَـــمُ

وقد أثبت في غير موضع أن حادثة الإسراء والمعراج قد حدثت بالروح والجسد، يقول[٥]:

أســـرى بِجســـمِكَ لِلسَـــماءِ فَبشَّـــرَت أَملاكهـــا وَحبَتـــكَ بِالتَرحيـــبِ

وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أحسن عينيه وأحدهما " (دلائل النبوة للبيهقي ٣/٢٥١).

(١) الديوان:١٢٤.

(٢) فلما كانت ليلة الدخول قال صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين علي بن أبي طالب، فقالوا : يا رسول الله ، هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرئ ، كأن لم يكن به وجع، ... " (الرحيق المختوم:٢٦١).

(٣) الديوان: ١١٢.

(٤) الديوان: ١٠١.

(٥) الديوان:١٠٧.

فَعَلَــوتَ ثُــمَّ دَنَــوتَ ثُــمَّ بَلَغــتَ مــا لا يَنبَغــي لِســواكَ مِــن تَقريــبِ

ثم ينتقل للحديث عن الجهاد ، فيصف البطولات والمعارك التي خاضها النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيذكر ما اتصف به – صلى الله عليه وسلم – من الشجاعة والجرأة في قتال الكفر وأهله، فكان الليث في المعركة ، صادقاً في جميع أحواله في حربه وسلمه ، فقد كان الليث يعترف بقوة وبأس النبي – صلى الله عليه وسلم– ، كما كان الغيث يغترف من جوده وكرمه، فهو الذي صد يد الكفر عن سطوتها ، وأحدث تغييراً في أحداث الزمن ، فجاء طبيباً للناس بعد أن كانوا يرتعون في سقم الجاهلية ، وقد جمع ابن حجر في مدحه صفتي الكرم والشجاعة كما جاء في السنة النبوية عن أنس، قال: "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أجمل الناس، ومن أجود الناس، ومن أشجع الناس"[١] وفي ذلك يقول[٢]:

اللَيــثُ وَالغَيــثُ فــي يَــومي نَــدىً وَردىً وَالصــادِقُ الفعل فــي يَــومي وَغــى وَوفــا

الواهِــبُ الهــازِمُ الآلافَ مِــن كَــرَمٍ وَسَــطوَةٍ لِلعِــدى وَالصــحبِ قَــد عُرفــا

فالغَيــثُ مِــن جــودِهِ فــي الجَــدبِ مغتَرِفــاً كاللَيــثِ مِــن بأَسِــهِ فــي الحَــربِ معترفــا

مَن قامَ في كَفِّ كَفّ الكُفرِ حينَ سَطَت حَقّاً وَفي صَرفِ صرف الدَهرِ حينَ هَفا

كــانَ الأَنــامُ جَميعــاً قَبــلَ مَبعَثِــهِ عَلــى شَــفا جُــرُفٍ هــارٍ فَعــادَ شِــفا

وفي إشارة إلى التأييد الإلهي له في حروبه فقد أيده ربه بالملائكة جنداً يقاتلون معه أعداء الله[٣]، يقول[٤]:

المُصــطَفى المرتَقــي الأَفــلاكِ معجــزةً وَكــانَ فــي الحَــربِ بــالأملاكِ مرتَــدَفا

ففي غزوة بدر رد الله كيد أعدائه، ونكست رؤوسهم مما حباه الله من نصر لنبيه، وخزي لأعدائه يقول[٥]:

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي : ٣١٣/١.

(٢) الديوان: ١١٠.

(٣) في ذلك إشارة لقول الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأنفال٩

(٤) الديوان: ١١٠.

(٥) الديوان: ١١١.

رُدَّت أَعاديـــهِ فـــي بَـــدرٍ منكّســـةً بخجلَـــةٍ أَورثَتهـــا الـــنقصَ وَالكَلَفـــا[1]

وأما معركة خيبر فقد حصل فيها آيات ومعجزات ، منها أن سيدنا علي – رضي الله عنه– قد حمل باب حصن ناعم حتى دخل المسلمون الحصن وفتحوه ، ولم يقدر على إعادة الباب أربعون رجلاً[2]، يقول [3]:

وَيَـــومَ خَيبـــرَ آيـــاتٌ مُبيَّنَـــةٌ بِالبـابِ مِنـهُ عَلـيٌّ قَـد عَـلا شَـرَفا

أما يوم حنين فقد حدث ما حدث للمسلمين من انكشاف عن النبي – صلى الله عليه وسلم–، ولكن لم يدم طويلاً ، فاجتمع الناس حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقاتلوا أهل الكفر قتالاً شديداً، فتشتت شملهم، وتمزق جمعهم، وكان الفتح والنصر المبين، يقول[4]:

وَفـي حنـينٍ قَمـيصُ الشِـركَ لَـيسَ لَـهُ لَمّـا تَمَـزَّقَ رافٍ مِـن عـداهُ رَفـا[5]

وَكَـم خَـوارِقَ حَتّـى فـي قُلـوبِهِمُ مِـن سـمرِهِ وَسُـيوفٍ برقُهـا خَطَفـا

وإنما وصف الشرك بالقميص لما يوصف به من الضعف والهوان، وسهولة التمزيق.

ويصف أخلاقه في التعامل مع أعداء الله بعدما منَّ الله –عز وجل– عليه بالتمكين، فكان العفو والمسامحة من شيمه – صلى الله عليه وسلم – وصفاته، وأعظم عفوٍ قام به النبي – صلى الله عليه وسلم–، يوم فتح مكة حيث قال : " يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:" { لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ }[6] ،اذهبوا فأنتم الطلقاء"[7]، وقد ذكر أثناء مدح النبي– صلى الله عليه وسلم– بالعفو

---

(١) (الكلف) نمش يَعْلُو الْوَجْه كالسمسم وَحُمرَة كدرة تعلو الْوَجْه والبهق. (المعجم الوسيط ٧٩٥/٢).

(٢) فعن جابر أَنَّ عليًّا «حمل الباب يوم خيبر حتَّى صعد المسلمون ففتَحُوها وإنه جُرِّبَ فلم يحمله إلَّا أربعون رَجُلًا. انظر: أبو بكر بن أبي شيبة (المتوفى: ٢٣٥هـ) : الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ. رقم الحديث ٣٢١٣٩ : ٣٧٤/٦.

(٣) الديوان: ١١١.

(٤) الديوان: ١١١.

(٥) رفَا الثَّوبَ ونحوَه: رفأه، ضمَّ بعضه إلى بعض وأصلح ما به من ثقوب وخروق. (انظر : أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل : معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م. مادة (رفا) : ٩٢٢/٢.

(٦) سورة يوسف : آية ٩٢.

(٧) صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، ٢٠٠٣ ، ٢٨٧.

الأعظم الذي قام به في فتح مكة بعض أعماله، ومنها أن هدم الأصنام التي حول الكعبة[١]، يقول[٢]:

وَبِفَتحِ مَكَّةَ قَد عَفا عمّن هَفا ... فَأتَوهُ بِالتَرغيبِ وَالتَرهيبِ

وَأَزالَ بالتَوحيدِ ما عبدوهُ مِن ... صَنَمٍ بِرأيٍ ثابِتٍ وَصَليبِ

فكان العفو يشمل من كان على كفره ولم يؤذِ النبيّ – صلى الله عليه وسلم – أما المجرمين الذين آذوه وهجوه ، فإن هذا العفو لا يشمل، فقد أهدر النبي دمائهم ، فكان ذلك شفاءً لغيظ المسلمين[٣]، يقول [٤]:

وَسَقى الطُغاةَ كؤوسَ حتفٍ عجّلَت ... لمؤمِنينَ ذهابَ غَيظِ قُلوبِ

لَم يَحتموا مِن ميمِ طَعناتٍ وَلا ... أَلِفاتِ ضرباتٍ بِلامِ حُروبِ[٥]

وفي ذلك يثني على أصحابه الذين نصروه أول دعوته، فهم الجند الذين سيّرهم الله لحماية دينه، فجاهدوا مع نبيه، وبذلوا الغالي والنفيس فداءً له، يقول[٦]:

صَلّى عَلَيكَ وَسَلَّمَ اللَهُ الَّذي ... أَعلاكَ ما لَبّى الحَجيجُ وَأَحرَموا

وَعَلى قَرابَتِكَ المقرّرِ فَضلُهُم ... وَعلى صَحابَتِكَ الَّذينَ هُمُ هُمُ

جادوا علَوا ضاءُوا حَموا زانوا هَدَوا ... فَهُمُ عَلى الستّ الجِهاتِ الأَنجُمُ

نَصَروا الرَسولَ وَجاهَدوا مَعهُ وَفي ... سُبُلِ الهُدى بَذَلوا النفوسَ وأسلَموا

---

(١) فقد روي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول :" جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا "(الإسراء : ٨١) (انظر الرحيق المختوم : ٢٨٦).

(٢) الديوان: ١٠٦.

(٣) فقد أهدر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة تسعة من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة (انظر الرحيق المختوم: ٢٨٧)

(٤) الديوان: ١٠٦.

(٥) المومُ، بالضم: الشَّمَعُ، وأداةٌ للحائِكِ يَضَعُ فيها الغَزْلَ، ويَنْسَجُ به، وأداةٌ للإسْكافِ، والبِرْسامُ، وأشَدُّ الجُدَرِيِّ، مِيمَ، كقيلَ، فهو مَمومٌ. (القاموس المحيط : ١١٦١). واللامُ: الهَوْلُ (القاموس المحيط : ١١٥٩) ،

(٦) الديوان: ١٠٢,١٠٣.

فهم الذين حازوا على الفوز في الدنيا والآخرة؛ لأنهم نالوا الشرف في السبق والتقديم، يقول[1]:

وجـــوهُ أَصـــحابِهِ كَالـــدُّرِّ مُشـــرِقَةٌ إِذا رَأَيـتَ اِمـرأً عَـن هـديهم صَـدَفا

نـــالوا السَـــيادَةَ فـــي دُنيـــا وَآخِـــرَةٍ وَالسَـبقَ وَالفَضـلَ وَالتَقـديمَ وَالشَـرَفا

فهم سادة البشر، وأئمة الورى، البحار إذا جادوا، الأسود الضارية في المعارك إذا جاهدوا، يبيعون أنفسهم رخيصة لرب السماء، وحق لهم بما علمهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يفخروا، يقول[2]:

مِـــن مَعشَـــرٍ كـــانوا الأَئمّـــةَ لِلـــوَرى فـــاقوا البَريَّـــةَ سَـــيِّداً ومســـودا

فَـإِذا سَـخَوا كـانوا البِحـارَ وَإِن سَـطوا كـانوا الأَسـودَ أَو الشُـراة الصـيدا[3]

وخص في مدحه من صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العشرة المبشرين بالجنة[4]، وحذر من وقف في وجه طاعتهم وتأييدهم، يقول[5]:

وَبِالرضـــى خُـــصَّ مِـــنهُم عَشـــرَةٌ زهُـــرٌ يـا وَيـحَ مَـن فـي مـوالاةٍ لَهُـم وَقَفـا

سَـــعدٌ سَـــعيدٌ زبيـــرٌ طَلحَـــةٌ وَأَبـــو عُبَيـدَةٍ وابـنُ عَـوفٍ قَبلَـهُ الخُلَفـا

ومدح أنصار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من بفضلهم اشتد عضد الإسلام، فهم الذين شهد لهم القرآن بأسمى مراتب المحبة[1]، فقد آثروا إخوانهم الذين هجروا من ديارهم على

---

(١) الديوان:١١٢.

(٢) الديوان:١١٧.

(٣) (الشرى) : يُقال هم أَسد الشرى أشداء شجعان. أو قصد (الشاري) المُشْتَرِي وَالْبَائِع وَمن يَبِيع نَفسه فِي طَاعَة الله والجمع شراة (المعجم الوسيط : ٤٨١/١) (الأصيد) المزهو بِنَفسه وكل ذِي حول وَطول من ذَوي السُّلْطَان . ولم يقصد مذمة هنا إنما حق لهم أن يفخروا بأنفسهم لأنهم تربوا على يد النبي صلى الله عليه وسلم . (المعجم الوسيط : ٥٣٠/١).

(٤) عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة" (سنن الترمذي حديث رقم ٣٧٤٧: ١٠١/٦).

(٥) الديوان:١١٢.

أنفسهم، حتى ولو كان بهم من الحاجة ما كان، ووصف ما بهم من شجاعة ورباطة جأش في القتال، يقول[٢]:

وَالسابِقونَ الأُلى قَد هاجَروا مَعَهُ ... وَما بِفَضلٍ لأَنصارِ النَبيِّ خَفا

تَبَوّؤا الدارَ والإيمانَ قَبلُ وَقَد ... آووا وَفَوا نصروا فازوا شَرَفا

المؤثِرونَ وَإِن لاحَت خصاصَتُهُم ... عَلى نُفوسِهِم العافينَ وَالضُعَفا

الضارِبونَ وجوهاً أَقبَلَت غَضَباً ... وَالتارِكونَ ظُهوراً أدبَرَت أَنَفا

وممن نصر دين الله الذين نقلوه إلينا بحفظهم عن الصحابة الكرام من تابعين وتابعيهم، يقول[٣]:

وَالتابِعينَ لَهُمُ بِإحسانٍ فَهُم ... نَقَلوا لما حَفظوه مِنهُم عنهمُ

وَأَتى عَلى آثارِهِم أَتباعهُم ... فَتَفَقَّهوا فيما رَووا وَتَعَلَّموا

فهم الذين قاموا بتدوين الحديث الشريف، وأبدعوا في تقسيم أبوابه، ويقرّ الشاعر أن أصح الكتب بعد كتاب الله كتابي البخاري ومسلم، اللذان أجهدا أنفسهم في تتبع الصحيح من كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، يقول[٤]:

هُم دَوَّنوا السُنَنَ الكِرامَ فَنَوَّعوا ... أَبوابها لِلطالِبينَ وَقَسَّموا

وَأَصَحُّ كُتبهم عَلى المَشهورِ ما ... جَمَعَ البُخاري[٥] قالَ ذاكَ المُعظَمُ

---

(١) قال الله تعالى يمدح صنيع الأنصار مع المهاجرين : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر ٩

(٢) الديوان:١١٢.

(٣) الديوان: ١٠٣.

(٤) الديوان: ١٠٣.

(٥) إمام الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي مولاهم البخاري صاحب الصحيح والتصانيف مولده ١٩٤هـ، وقال ابن خزيمة: " ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري" ، توفي سنة ٢٥٦هـ. (محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تذكرة الحفاظ ، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات ، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م. ١٠٤/٢).

وَتَــلاهُ مُســلِمٌ[1] الَّــذي خَضَــعَت لَــهُ فــي الحِفـظِ أَعنـاقُ الرِجـالِ وَسَـلَّموا[2]

فهمــا أَصَــحُّ الكُتــبِ فيمــا يُجتَلــى إِلّا كِتــابَ اللَــهِ فَهــوَ مُقَــدَّمُ

وقد حذر المخالفين من المعاندة في القدح في كتاب البخاري فهذا الكتاب لا يشك بصحته مسلم على وجه الأرض ، ولا الإمام مسلم أيضاً إن كان قصد ذلك، ونبه إلى قضية عدم التمييز بين الإمامين والتفضيل بينهما ، فكل منهم خدم دين الله في تحقيق كلام نبي الله ، وكل منهما اختص بشيء امتاز به فالبخاري تفوق في نقده وفقهه ، واعتنائه بتبويب كتابه وترجم لكل كتاب بالأبواب ، لما تصدى لاستنباط الأحكام، أما مسلم فامتاز بجمعه وبسرده ، فهو يجمع ما يتعلق بالباب في موضع واحد بأسانيده التي يرتضيها ، لكنه مع ذلك لم يكتب تراجم أبوابه[3]، يقول :

قُــل لِلمُخــالِف لا تُعانِــد إِنَّــهُ مـا شَـكَّ فـي فَضـلِ البُخـاري مُسلِمُ

رســم المصــنفَ بِالصَــحيحِ فَكُــلُّ ذي عَقـلٍ غَـدا طوعـاً لمـا هـوَ يَرسُـمُ

هَــذا يَفــوق بِنَقــدِهِ وَبِفقهِــهِ لا ســيّما التَبويــبُ حــينَ يُتَــرجِمُ

وَأَبــو الحســين بِجَمعِــهِ وبسَــردِهِ فــالجمع بَينَهُمــا الطَريــق الأَقــوَمُ

فَجَزاهُمــا اللَــهُ الكَــريمُ بِفَضــلِهِ أَجــراً بنــاءُ عَــلاهُ لا يَتَهَــدَّمُ

وقد مدح كتاب سنن أبي داود[4] ، وقد ذكره في المرتبة بعد البخاري ومسلم ، لما أورد الأحاديث الصحيحة في الأحكام[1] ، فكان يختار الأقوى والأصح ثم يورده في بابه ، يقول[2]:

---

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري صاحب الصحيح ،أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين ، ولد سنة ٢٠٤هـ ومات في رجب سنة ٢٦١هـ.(ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، ط١، دار صادر ، بيروت، ١٩٩٤ ، ١٩٤/٥)

(٢) اشتهر مسلم بشدة الحفظ ، قال بندار : "الحفاظ أربعة أبو زرعة ومحمد ابن اسماعيل والدارمي ومسلم" ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م، ١١٥/١٠.

(٣) رمضان إسحاق الزيان : دراسات في الحديث الشريف وعلومه ، ط١، دار المنارة ، فلسطين ، غزة ،٢٠١١م ، ص ٢٩.

(٤) أَبُو دَاوُد (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ = ٨١٧ - ٨٨٩ م) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود: إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان. رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة.

مِثـــل البُخـــاري ثُـــمَّ مُســـلِم الَّـــذي ... يَتلـــوهُ فـــي العليـــا أَبـــو داودا

فـــاقَ التَصـــانيفَ الكِبـــارَ بِجَمعِـــهِ ال ... أَحكـــامَ فيهـــا يَبـــذُلُ المَجهـــودا

قَـــد كـــانَ أَقـــوى مـــا رأى فـــي بابِـــهِ ... يـــأتي بِـــهِ وَيحـــرّرُ التَجويـــدا

فَجَـــزاهُ عَنّـــا اللَـــهُ أَفضَـــلَ مـــا جَـــزى ... مَـــن فـــي الديانَـــةِ أَبطَـــلَ التَرديـــدا

وقد مدح من كَتَبَ في سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – ومعجزاته الدالة على صدق نبوته ، ومنهم الإمام البيهقي[٣] في كتابه دلائل النبوة الذي يقول عنه في مقدمته : " أردت، والمشيئة لله تعالى، أن أجمع بعض ما بلغنا من معجزات نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم–، ودلائل نبوته، ليكون عوناً لهم على إثبات رسالته"[٤] ، يقول ابن حجر[٥]:

لَـــهُ معجـــزاتٌ جـــاوز الرمـــلَ عَـــدُّها ... لخـــدمتها زَهـــرُ السَـــماءِ مواثِـــلُ

لَقَـــد جمـــعَ الحفّـــاظُ فيهـــا وَأَطنَبـــوا ... لأنّ مَحَـــلَّ القَـــولِ لِلقَـــولِ قابِـــلُ

له (السنن)، وهو أحد الكتب الستة، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٠٠٠ ، ٥٠٠ حديث.(الأعلام : ١٢٢/٣).

(١) قال الإمام النووي: إن" سنن أبي داود" لم تستوعِب الصحيحَ من أحاديث الأحكام ولا مُعظمها، وكم في "صحيح البخاري" و"مسلم" من حديث حُكميّ ليس في "سنن أبي داود".
على أن الإمامَ أبا داود إذا ما قُورِنَ بأصحاب السنن، كان أكثرَهم إيراداً لها، كما يقولُ الإمام الخطابيُّ: فأما السنن المحضة، فلم يقصد واحد منهم جمعها واستيفاءَها، ولم يقدر على تخليصها واختصارِ مواضعها مِن أثناء تلك الأحاديث الطويلة، ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود. ولذلك حل هذا الكتابُ عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محلَّ العجب، فضُربت فيه أكبادُ الإبل، ودامت إليه الرّحل .
أبو داود السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) : (مقدمة تحقيق كتاب سنن أبي داود ، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط– محَمَّد كامِل قره بللي ، ط١، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م. ص ٤٥.

(٢) الديوان : ١١٨.

(٣) البَيْهَقِي : (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ – ١٠٦٦ م) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور) ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما ، من مصنفاته منها (السنن الكبرى) عشر مجلدات، و (السنن الصغرى) و (المعارف) و (الأسماء والصفات) و (ودلائل النبوة). (خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) :الأعلام ، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م. ١١٥,١١٦/١).

(٤) أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) : دلائل النبوة ، تحقيق : د. عبد المعطي قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ٦٩/١.

(٥) الديوان : ١٢٠

وَلا مِثْـــلَ جمـــع البَيهَقـــيّ فَحُســـنُهُ تَقـــومُ لَـــهُ يَـــومَ الفخـــارِ دَلائِـــلُ

فَيـــا رَبِّ بالإحســـانِ فـــي الخُلـــدِ جـــازِهِ فَإِنَّـــكَ بالإحســـانِ كـــافٍ وَكافِـــلُ

جزاء من يخالف أمره : فليس لمن يخالف أمره إلا أن يقع في ضلال الفتنة في الدنيا، والعذاب يوم القيامة ، مصداقاً لقوله تعالى : " ﴿ . . . فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[١]، وفي ذلك يقول [٢]:

فَلْيَحـــذَرِ المَـــرءُ المُخـــالِفُ أَمـــرَهُ مِـــن فِتنَـــةٍ أَو مِـــن عَـــذابٍ يـــؤلِمُ

وفي خضم مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم يمدح أخلاقه وصفاته، فرب السماء مدح أخلاقه في كتابه قائلاً : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣]، وقد ذكر خلقه الحسن أقرب الناس إليه ، فعن صفية بنت حيي– رضي الله عنها– قالت: "ما رأيت أحداً أحسن خلقاً من رسول الله– صلى الله عليه وسلم–"[٤]. وكان خادمه أنس – رضي الله عنه – يقول: " كان النبي– صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس خلقاً "[٥] ، فهو جامع الصفات الكريمة ، والمحامد الجليلة ، موصوف بكرمه وكثرة احتماله، وشدة حيائه، وعفوه، وجوده، وسخائه، وشجاعته، وتواضعه، وصبره على المكروه، وإغضائه، وإعراضه عما كرهه، ورفقه بأمته، وكظمه الغيظ، وحلمه، وكثرة تبسمه، وسروره، ومزاحه، وبكائه، وحزنه، ومنطقه ، فهو واسع العطاء، الهادي ، شديد البأس على أعداء الله، فقد حاول ابن حجر جمع بعض صفاته مادحاً إياه في بيتٍ قائلاً[٦]:

مبيـرُ العـدا مُـولي النـدى قـامعُ الـردى مبينُ الهدى مُردى العدا واسعُ الجدا[٧]

وأما زهده – صلى الله عليه وسلم – ففي سيرته العطرة ما نستدل على ترفع النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ملذات الدنيا، والصبر على ضنك الحياة، واختياره الدار الآخرة، وما أعد

---

(١) سورة النور : الآية ٦٣.

(٢) الديوان: ١٠٠.

(٣) سورة القلم: ٤.

(٤) المعجم الأوسط حديث رقم ٦٥٨٠ : ٣٤٤/٦.

(٥) صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٣ : ٤٥/٨.

(٦) الديوان:١٢٦.

(٧) مبير بمعنى مهلك ، (أباره) أهلكه (المعجم الوسيط ٧٦/١). (الجدا) الْعَطاء والمطر الْعَام وَفِي الحَدِيث (اللَّهُمَّ اسقنا غيثا غدقا وجدا طبقًا) (المعجم الوسيط ١١٢/١)

الله تعالى له فيها، على الدنيا وبذلك أمره ربه. قال الله – عز وجل –: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]، وقد خُيِّر النبي– صلى الله عليه وسلم – بين أن يكون عبداً نبياً، وبين أن يكون ملكاً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً[2]، ففي زهده يقول ابن حجر[3] :

لَـــم يَقتَطِـــف زَهـــرَةَ الـــدُنيا وَزينَتَهـــا بَـل مـالَ عَنهـا وَلاحَـت رَوضَـةً أُنُفـا[4]

أما جوده وكرمه فلا يكاد يشك في عطائه اثنان، فكان لا يرد سائلاً، ففي ذلك يقول[5]:

هـــوَ الكَـــريمُ الَّـــذي مـــا رَدَّ ســـائِلَهُ مـا شَكَّ شَخصانِ فـي هَذا وَلا اِختَلَفا

ويقول أيضاً واصفاً جوده وكرمه، بأنه لا يخشى الفقر من كثرة العطاء:

وعـــين المـــال جـــاد بهـــا ســـخاءً فلـــيس يخـــاف فقـــراً بالعطـــاءِ

أما حياؤه فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – من أشد الناس حياء، فعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه –، يقول: "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه"[6]، يقول[7]:

كـــريمٌ بالحيـــا مـــن راحتيـــه يجـــودُ وفـــي المُحيَّـــا بالحيـــاءِ

---

(١) سورة طه: ١٣١

(٢) عن ابن عباس يحدث أن الله عز وجل، أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكاً من الملائكة، معه جبريل عليه السلام، فقال الملك لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: " إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً نبياً. فالتفت نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل، عليه السلام، كالمستشير له، فأشار جبريل، عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تواضع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أكون عبدا نبيا.. " (دلائل النبوة للبيهقي : ٣٣٤/١).

(٣) الديوان: ١١١.

(٤) رَوْضَةٌ (أُنُفٌ) بضمتين أي لم يرعها أحد كأنه (اسْتُؤْنِفَ) رعيها.(محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) : مختار الصحاح ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. مادة أ ن ف ، ٢٣/١).

(٥) الديوان:١١٢.

(٦) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٦٢ : ١٩٠/٤.

(٧) الديوان: ١٢٢.

أما سداد الرأي ورجاحة العقل، فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – من رجاحة عقله، وزنة فكره، لا يبدي رأياً إلا في محله، ولا يحاور إلا بالمنطق، وقد أقرّ قومه برجاحة عقله فحكموه في وضع الحجر الأسود، يقول ابن حجر[١]:

وعين الفكر منه أسد رأياً نعم وأشدُّ مرأى في المراء

وينتقل إلى غرضه من قصيدة المدح وهو التقرب من رسول –الله صلى الله عليه– وسلم ليحظى بشفاعته، ولكنه استهل طلبه وغرضه بذكر ما اختص به النبي – صلى الله عليه وسلم– من صفاتٍ بين الأنبياء، حيث قال – صلى الله عليه وسلم – : " أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ قَبلي: نصرتُ بالرُّعبِ مسيرة شهرٍ، وَجُعلت لِي الأَرْضُ مَسجدًا وَطَهُوراً، فأَيُّما رجل من أمَّتي أَدركته الصلاةُ فليصلِّ، وأحلَّت لي المغانم ولم تحلَّ لأَحدٍ قبلي، وأعطيت الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّة وبعثت إلى النَّاس عامة "[٢]، وفي ذلك يقول ابن حجر[٣]:

مِن بَعضِ ما أُوتيتَ خَمسُ خَصائِصٍ لَم يُعطَها الرُسُلُ الَّذينَ تَقَدَّموا
جُعِلَت لَكَ الأَرضُ البَسيطَةُ مَسجِداً طُهراً فَصَلّى الناسُ أَو فَتَيَمَّموا
وَنُصِرتَ بِالرُعبِ المروعِ قَلبَ مَن عاداكَ مِن شَهرٍ فَأَصبَحَ يُهزَمُ
وَأُعيدَتِ الأَنفالُ حِلّاً بَعدَ أَن كانَت مُحَرَّمَةً فَطابَ المَغنَمُ
وَبُعِثتَ لِلثقلينِ تُرشِدُهُم إِلى الدِّ ينِ القَويمِ وَسَيفُ دينِكَ قَيِّمُ
وَخصصتَ فَضلاً بِالشَفاعَةِ في غَدٍ فَالمُسلِمونَ بِفَضلِها قَد عمّموا

ويذكر ما حباه الله من الشفاعة ، فيطلب منه أن يشفع له ، وأن يحميه من أهوال يوم القيامة، فهو الطبيب له من مرض الذنوب، فيقول[٤]:

يَحبوكَ رَبُّكَ مِن مَحامِدِهِ الَّتي تُعطى بِها ما شِئتَ مِن مَطلوبِ
وَيَقولُ قُل تَسمَع وَسَل تُعطَ المُنى واِشفَع تَشَفَّع في رَهينِ ذُنوبِ

---

(١) الديوان:١٢٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩هـ، المجلد الأول ص ٤٣٦، كتاب التيمم .

(٣) الديوان: ١٠٢.

(٤) الديوان: ١٠٧ .

فَاشْـفَع لِمادِحِـكَ الَّـذي بِـكَ يَتَّقـي أَهـوالَ يَـومِ الـدينِ وَالتَعـذيبِ

فلأَحمَـدَ بـنِ عَلـيٍّ الأثـريّ فـي مـأهولِ مَـدحِكَ نَظـمُ كـلّ غَريـبِ

قَـد صَـحَّ أَنَّ ضَـناهُ زادَ وَذنبـهُ أَصـلُ السـقامِ وَأَنـتَ خَيـرُ طَبيـبِ

ومما اختص به سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –، أنه كتب نبياً في ظهر سيدنا آدم – عليه السلام – بينما كان آدم – عليه السلام – بين الروح والجسد[١]، وفي ذلك يقول[٢]:

نبـيٌّ خُـصَّ بالتقـديم قـدماً وآدم بعـدُ فـي طـينٍ ومـاءِ

ومن المقدمات التي قدم بها طلبه الشفاعة تصويره مشهد أهوال يوم القيامة حيث يبغي كل إنسان الخلاص والسلامة لنفسه، إلا النبي – صلى الله عليه وسلم – بما حباه الله من مكانة عظيمة جعلته يتصدر الأنبياء والأمم في طلب الشفاعة وهذا هو المقام المحمود[٣]، ففي هذا المشهد وهذه الأهوال يسعد المسلم الذي نصر نبي الله وآمن به، ولا يكون هذا حال من جحد برسالته، يقول[٤] :

وَمَقامـك المَحمـودُ فـي يَـومِ القضـا حَيـثُ السَـعيدُ رَجـاهُ نَفـسٌ تسـلمُ

يَحبـوكَ رَبُّـكَ مِـن مَحامِـدِهِ الَّتـي تُعطـى بِهـا مـا تَرتَجيـهِ وَتغـنمُ

وَيَقـول قُـل تُسـمَع وَسَـل تعـطَ المُنـى وَاِشـفع تُشَـفَّع فـي العصـاة ليَرحَمـوا

فَهُنـاكَ يغبطـك الـوَرى وَيُسـاءُ مَـن جَحَـدَ النُبـوّة إِذ يُسَـرُّ المُسـلِمُ

ويصف حال الناس يوم القيامة وهم في الحشر حين تدنو الشمس من الرؤوس ، ويتمكن العطش من الناس ، فيكونوا في أشد الحاجة للماء ، فيطمئن المؤمنون بما حازوا عليه من

---

(١) وفي رواية معاذ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم متى كتبت نبياً؟ قال: كُتبت وآدم بين الروحِ والجسد. (دلائل النبوة للبيهقي : ١٢٩/٢)

(٢) الديوان: ١٢٢.

(٣) ويقال أن المقام المحمود الذي ذكره الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل ، فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع ، انظر : (فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٠٠/٨)

(٤) الديوان: ١٠٢.

الأمـان، فيـردون الحـوض الشـريف فيشـربون مـن يـده الشـريفة شـربة مـاء لا يظمـؤون بعـدها[1]، يقول[2]:

نـــال الأمـــان المؤمنـــون بـــه إذا تُشـــبَّت جهـــنمُ بالطغـــاةِ وَقـــودا

يَـردُون إذ ظمئـوا علـى الحـوضِ الـذي يـــروي الغَليـــلَ فيـــا لَـــهُ مَـــوْردا

أما الخاتمة في قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر، فقد ختمها بالصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم–:

ثُـــمَّ الصَـــلاةُ عَلـــى النَبـــيِّ فَإِنَّـــهُ يُبـــدا بِـــهِ الـــذِكرُ الجَميـــلُ وَيخـــتَمُ

يـــا أَيُهـــا الراجـــونَ خَيـــرَ شَـــفاعَةٍ مِـــن أَحمَـــدٍ صَـــلّوا عَلَيـــهِ وَسَـــلِّموا

ومثل ما ورد في مدحته السادسة[3]:

عَلَيـــكَ سَـــلام رَبّ النـــاس يَتلـــو صَـلاة فـي الصَـباح وَفـي المَسـاءِ

وقد يختم مدحته بالإضافة إلى الصلاة على النبي– صلى الله عليه وسلم – الصلاة على الآل والأصحاب كما في مدحته السابعة[4]:

عليـــه صَـــلاة اللَـــه ثُـــمَّ سَـــلامه كَـذا الآل والأَصـحاب مثنـى وَمفـردا

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً.(محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) الجامع الكبير –سنن الترمذي ، تحقيق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨ م. حديث رقم ٢٤٤٣: ٢٠٨/٤)

وفي رواية البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، قال: " إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي " (صحيح البخاري حديث رقم ٧٠٥٠ ، ٤٦/٩)

(٢) الديوان:١١٦.

(٣) الديوان: ١٢٤ .

(٤) الديوان: ١٢٨ .

المراجع

المدح من الفنون القديمة في الأدب العربي وخاصة الشعر، يكون القصد منه إبراز فضائل الممدوح، وإظهار صفاته وشمائله، فيشيد بكرمه وشجاعته وحكمته وزهده وتواضعه، وغيرها من الصفات الحميدة.

وأحسن المديح ما كان في الممدوح ، واختص بالخصال الأربعة وهي : (العقل والشجاعة والعدل والعفة) ، فمن كان مدحه بهذه الخصال كان مصيباً ، فيجوز الإغراق في بعضها أو يقصر مدحه في بعضها ، فالجود مثلاً الذي هو أحد أقسام العدل ، فمن أغرق في التفنن لإظهار معانيه ليس مخطئاً ، لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، وفي ذلك يقول قدامة ابن جعفر : " فنقول: إنه لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً؛ ثم قد يجوز مع ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنساناً بالجود الذي هو أحد أقسام العدل وحده، فيغرق فيه ويفتن في معانيه، أو بالنجدة فقط، فيعمل فيها مثل ذلك أو بهما، ويقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يسمى مخطئاً لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، لكن يسمى مقصراً عن استكمال جميع المدح"[١].

احتل المدح مكانة مرموقة في المجتمع الجاهلي ، وكان غرضه في وقتها لحاجة القبيلة لتخليد مآثرها ، ورفع مكانتها بين القبائل ، وكانوا يمدحون القبائل التي يجدون فيها كرم الجوار مشيدين بعزتها وإبائها وشجاعة أبنائها، ثم انتقل المدح في أواخر العصر الجاهلي وسيلة للكسب، فيمدحون الملوك وينالون الجوائز والعطايا[٢]، أما في العصر الاسلامي فقد ارتبط فقط بمدح النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ثم ازدهر هذا الغرض في العصر الأموي حيث احتل المنزلة الأولى بين أغراض الشعر ، حيث قصد الشعراء خلفاءها بمدائحهم لنيل عطاياهم ، فرفع الشعراء قدر الوضيع ، وجعلوا الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً، مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر، وكذلك كان الحال في العصر العباسي ، إلى أن جاء عصر المماليك، فأصبح المدح

---

(١) قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، الطبعة: الأولى مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، ١٣٠٢ ص ٢٠.

(٢) انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ،القاهرة، د.ت، ص٢١١.

يحمل معاني الصدق في الاشادة بصفات الممدوح ، إن كان حاكماً ، أو أميراً ، أو عالماً، أو قاضياً، يقول الدكتور نبيل أبو علي: " أضحى الشعر في العصر المملوكي تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه"(١).

ومثال هذا التعبير الصادق عن الأحاسيس ما تجده في ديوان ابن حجر العسقلاني فقد مدح كل من استحق المدح لأخلاقه أو لمآثره، أو لما أحدثه من نصرة للدين، فأبان حميد خصالِ ممدوحيه ، وأرَّخ لبعض الحوادث التي وقعت في ذلك العصر.

فقد قسم قصائد مدحه إلى قسمين كل قسم به سبع قصائد: أما القسم الأول فأطلق عليه الملوكيات وخصه لمدح الملوك ، فأفرد أربع قصائد لمدح الملك الأشرف اسماعيل بن العباس صاحب اليمن، وقصيدة خصَّها لمدح ابنه الملك الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل، وقصيدة مدح بها الملك المنصور عبد العزيز صاحب تونس، وقصيدة يمدح بها الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين، أما القسم الثاني فقد خصه لمدح الأمراء والأصحاب، وسماه الأميريات والصاحبيات فمدح الامير جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد الحريري، والأمير يلبغا السالمي، ووزير صاحب اليمن، وسعد الدين بن غراب ناظر الخواص، وبعض رؤسائه، و مجد الدين بن مكانس، والجناب العالي بن الدماميني.

والملاحظ أن لكل فئة من الفئتين اللتين خصهم ابن حجر في شعر المدح صفات مشتركة عامة بين أفراد كل فئة وصفات خاصة يتفرد بها كل واحد من هذه الفئات حسب المكانة الاجتماعية التي احتلها ، وحسب ما صنعه لخدمة الدين والعلم.

فقد سار ابن حجر في بناء قصائد مدحه على ما بناه السابقين، فبدأ بالتغزل بالمحبوب، بكل معانيه، وإن كان يقصد من ذلك في بعض القصائد التقرب إلى الممدوح، ثم الإشادة بأخلاق الممدوح ، ثم الدعاء له.

---

(١) الادب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني : ٦١.

أولاً : المقدمة الغزلية

اشتملت المقدمة الغزلية على كل معاني الشوق والحنين للأحبة والأهل والأقارب الذين حالت بينه وبينهم الغربة والهجرة ، وصار يعاتبهم على جفاهم وبعدهم، ويطلب من أحبابه البعد عن سماع العذال ، كذلك إظهار الحزن الشديد على الفراق، ودلل على هذا الحزن بالسهر والاشتغال بالأشياء التي تخفف عنه ألمه، لكن في بعض مدائحه قد يقصد بتغزله ممدوحه، ولم تخلو مدائحه من الغزل المحسوس العفيف.

فترى الشوق والحنين للقيا الأحبة، وأحبابه الذين يشتاق لهم هم أهله الذين ابتعد عنهم ووطنه الذي تغرب عنه، وقد استخدم المعنى القرآني لرسم حالته النفسية في بعده عن أحبابه وأهله، فالنار اشتعلت في جوانحه من شدة الشوق، والدمع قد حفر أخدوداً في خده من حرارة الشوق، ففي مدحته الأولى للملك الأشرف اسماعيل بن العباس، يقول[١]:

صَبٌّ لِلقياكَ بالأَشواق معمودُ ... فَقيدُ صَبرٍ عَن الأَحباب مَفقودُ

ناءٍ عَن الأَهلِ والأَوطان مُغتَرِبٌ ... وَواجِدٌ ما لَهُ في الصَبر مَوجودُ

مُتَيّمٌ قَد بَكى بَعدَ الدُموع دَماً ... كَأَنَّما هوَ في عينيه مَقصودُ

النارُ ذاتُ وَقودٍ في جَوانِحِهِ ... شَوقاً وَفي خَدِّهِ لِلدمع أخدودُ[٢]

وقد عبَّر عن معاني الشوق لأهله وأبنائه بكل ما يعبر محب لمحبوبه وكأنه يتغزل به، وأن بعده عنه يسبب له الألم والتوجع ، ففي مدح وزير صاحب اليمن يظهر معاني الشوق والحنين لأهله فهو لم ينسَ حبه لهم ، ويبين أثر بعده عنهم، فعيناه فارقت النوم من شوقه لهم، والنجم شاهد على سهره، يقول[٣]:

فَلا وَحياةِ القُربِ لَم أَنسَ عَهدَكُم ... وَلَو أَنَّني في البُعدِ بِالروحِ أَفجَعُ

سَلوا النجمَ يَشهَد أَنَّني بِتُّ ساهِداً ... وَإِلّا الدُجى هَل طابَ لي فيهِ مضجعُ

---

(١) الديوان ١٢٩.

(٢) متأثر بقوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ سورة البروج: آية ٤,٥

(٣) الديوان:١٦٨.

وأوضح أنه يتشوق إلى أهله عندما تمنى أن يلتقي ابنتيه زين خاتون وفرحة، يقول[١]:

تُـرى هَـل أُلاقــي زيــنَ خــاتون بَعـدَما تَنــاءَت بِنــا السُـكنى وَعــادَ المــودِّعُ

وَهَــل أَلتَقــي تِلــكَ الطُفيلَــةَ فَرحَــةً قَريبــاً كَمــا فارَقتُهــا وَهــيَ تَرضَــعُ

حيث فارق ابنته فرحة وهي صغيرة السن، وهي في سِّن الرضاعة[٢]:

صَــغيرَةُ سِــنٍّ نابَهــا أَمــرُ فُرقَتــي فَمِــن أَجلِهــا سِــنُّ النَدامَــةِ يُقــرَعُ

ثم يتعذر إليهم بسبب فراقه لهم، موضِّحاً أن فراقه لهم ليس بسبب مللـه ، فهم بالنسبة إليه كالماء للظمآن ، إنما كان البعد عنهم بسبب ضيق الدنيا وكدر العيش[٣]:

فَواللَــه مــا فــارَقتُهُم عَــن مَلالَــةٍ وَهَـل مَـلَّ ظـامٍ مَـوردِاً فيــهِ يَشــرَعُ

وَلَكِــنَّ ضــيقَ العَــيشِ أَوجَــبَ غُربَتــي وَسَعيي لَهُم في الأَرضِ كي يَتَوسَّعوا

فيطلب من عاذليه أن يرفقوا بقلبه[٤]:

فَيــا عــاذِلي رِفقــاً بِقَلبــي فَإِنَّــهُ عَلى دونِ مَن فارَقتُ يُبكى وَيُجزَعُ

فالهمُّ والمشيب والغربة اجتمعت على الشاعر فأثقلت كاهله، فيقول[٥]:

مشــيبٌ وَهَــمٌّ وَانكســارٌ وَغربــةٌ وَمِــن دونِ ذا صُــمُّ الصَـفا يَتَصَـدَّعُ

أما الغزل على غير حقيقته فقد جعل محبوبه الذي يتغزَّل به هو ممدوحه، ومن المؤكدات على أن ابن حجر قصد الممدوح في غزله ، أنه جعل في مدحته الرابعة بلدة المحبوب ميقات أهل اليمن، وهو منزل الملك الأشرف، فيقول[٦]:

رعــى الله ركبــاً يمَّمُــوا أرضــها التــي أجـادت يـد الغيـثِ الهتـونِ صـقالها

ولمَّــا ألمُّــوا فــي الســرى بــيلَمْلَمٍ لأجســادهم إحرامهــا قــد حــلا[١]

---

(١) الديوان:١٦٩.

(٢) الديوان:١٦٩.

(٣) الديوان:١٦٩.

(٤) الديوان:١٦٩.

(٥) الديوان:١٦٩.

(٦) الديوان :١٤٢.

أما العذَّال فما ذكر غزل إلا وهم حاضروه ، فقد كانوا السبب في إسرار حب الشاعر لمحبوبه، فطلب من محبوبه ألا يظن السكون في الحب كان بسبب خروجه من قلبه ، ففي مقدمة مدحته للملك الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل بن الأفضل بن العباس[٢]، يقول[٣]:

وَلا تَظنّوا سكوني في الغَرام بكم يَقضي بأنّ فُؤادي مِنكمُ خالي

إنّي أُسِرُّ الهَوى من لائمي ليرى أنّي سلَوتُ فَلا يُغرى بتعذالي

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، لتأكيد أن محبوبه خالٍ من العيوب إلا من العذال وهذا ليس ذنبه، فيقول[٤]:

لا عَيب فيهِ غيرَ أَنّ رَقيبه لا يأتَلي في لَومِهِ إن يأتِ لي[٥]

أما الغزل على حقيقته فتراه يذكر الصفات الحسية للمحبوبة ، فقد وردت في مقدمة مدائحه الغزلية ، ولكنه غزل حسي عفيف، فتراه يصف القوام ، والوجنتين، والريق، فجنة المأوى تراها في وجنة المحبوب ، ورشفة من الريق تمثل الشفاء من كل أمراضه، فيقول[٦]:

وَأَهيَفٍ جنّة المأوى بِوَجنتهِ وَشهدةُ الريق فيها برءُ إعلالي

ويقول[٧]:

حَدِّث عَن الجسم وَالقدّ القَويم وَلا تُسنِدهُ إلّا لِصَفوانَ بن عسَّالِ

---

(١) أَلَمْلَمُ: بفتح أوله وثانيه، ويقال: يلملم، والروايتان جيدتان صحيحتان مستعملتان: جبل من جبال تهامة على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن. (معجم البلدان : ٢٤٦/١).

(٢) المَلِك النَّاصِر (٨٢٧ هـ – ١٤٢٤ م) أحمد بن إسماعيل بن العباس الرَّسُولي، الملك الناصر ابن الأشرف ابن الأفضل: من ملوك الدولة الرسولية في اليمن. تولاها بعد وفاة أبيه سنة ٨٠٣هـ ، وتلقب بالملك الظافر، واستمر الناصر إلى أن توفي متأثرا من روعة أصابته بسقوط صاعقة على حصنه خارج مدينة زبيد (انظر ترجمته في شذرات الذهب ٢٥٧/٩ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك ١٠٥/٧،الأعلام ٩٧/١).

(٣) الديوان:١٤٤.

(٤) الديوان : ١٣٥.

(٥) يَأْتَلِ هو من أَلَوْتُ أَي قَصَّرْت. (لسان العرب مادة ألا : ٢٠١/١)، وهنا جناس بين (يأتلي) و(يأت لي).

(٦) الديوان:١٤٥.

(٧) الديوان:١٤٥.

وفي قصيدة مدح الملك المنصور عبد العزيز صاحب توس من بلاد المغرب، فقال يصف قوام المحبوبة[١]:

مُهَفهــفُ قــدٌّ متــرفُ الجســم أغيــدٌ تَكـــاد عقـــود الغانِيـــات تـــؤودهُ

أما ريق محبوبه فيقطر منها الخمر حلاوة وطلاوة ، ولكن لا تكتمل هذه الحلاوة إلا في فمه، ففي مدح الأمير يلبغا السالمي[٢] ، يقول[٣]:

وريقتـــه كـــالخمرِ لكنَّهـــا حَلَـــتْ وحلَّـتْ فكانـت فـي فمِـي أسـوَغَا

وقد يظهر أثر الصدِّ على جسمه ، فيصاب بالسقم والضنك ، فيحذر الشاعر المحبوب أنه سيحاسبه يوم الحشر عمَّا لاقاه من صدِّه ، ففي مدح الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري بن الحريري بن البصري [٤] يقول[٥]:

ثُـــمَّ اِنتَبَهـــتُ وَعـــادَ ثَـــو بُ الصَـــدِّ يَكســـو الجِســـمَ ســـقما

قَـــد خُـــصَّ جِســـمي بِالضَـــنا فَليســـألن فـــي الحَشـــرِ عمّـــا

من الحزن والبكاء تجد عيناه تصبُّ الدم بعد بكائها[٦]:

---

(١) الديوان:١٥٠.

(٢) يَلْبَغا السَّالِمي :(٨١١ هـ = ١٤٠٩ م) يلبغا أبو المعالي السالمي الظاهري الحنفي: من أشهر أمراء الجند في دولة الملك " الظاهر " برقوق، ثم ابنه " الناصر ". كان يذكر أنه سمرقندي سماه أبواه يوسف، وسبي فجلب إلى مصر مع تاجر اسمه " سالم " فنسب إليه، واشتراه برقوق. ولما خلع برقوق (سنة ٧٩١) أخذ يلبغا مدينة صفد باسمه، فعرف له ذلك بعد عودته إلى الملك. ثم كان أحد أوصيائه، فقام بتحليف المماليك لولده الناصر. وسار في " الأستادارية " سيرة عفيفة، مع عسف وشدة، وأبطل مظالم كثيرة. وجمع أموالا لمحاربة تيمورلنك. فاتهم واعتقل (سنة ٨٠٣) ونفي إلى دمياط. كان ملازما للاشتغال بالعلم، وسماع الحديث مع السخاوي وغيره .انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ١٧١/١٣، إنباء الغمر ٤١٧/٢، والضوء اللامع ٢٨٩/١٠).

(٣) الديوان:١٦٦.

(٤) الأمير الوزير المشير ناظر الخواص وكاشف الكشاف جمال الدين يوسف بن أحمد الأستادار البجاسي البيري. قتل في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة بعدما حكم إقليمي مصر والشام ولم يفته من السلطة إلا الاسم (السلوك ٢٢٥,٢٥٢/٦)

(٥) الديوان:١٥٨.

(٦) الديوان:١٨١.

قِف تَلقَ جفني بَعد الدَمعِ صَبَّ دماً ما في وقوفِكَ عِندَ الصَبِّ من باسِ

فالبعد عن المحبوب الذي أسر قلبه وبعد عن بصره يورث في القلب غصة وألماً وهماً ، ومن مظاهر ذلك الحزن الشديد مشهد الدموع في عينيه، فأصبح من حزنه دمعه حراً طلق، وقلبه بأغلال الحب مصفود[١]:

أَسرتَ قَلبي وَقَد حُجِّبتَ عَن بَصري تيهاً فَكانَ لَهُ بِالقُربِ تَبعيدُ

وبِنتَ عنّي فَطَرفي في مجاهدة مَع الدموع وَقَلبي منك مَجهودُ

وَقَد تَطابق حالُ الصبّ مِن حزَنٍ فَدَمعُهُ مُطلَقٌ وَالقَلب مصفودُ

السهر والاشتغال بعد النجوم ، فالطيف وخيال الأحبة إذا أراد زيارته وجد عينيه مسدودة من كثرة السهر ، يقول[٢]:

وَالطَيفُ ما زارَ إِذ بابُ الزِيارة من فرطِ السهاد بِفَتحِ الجفن مَسدودُ

أَبيتُ أَرعى النُجومَ الزُهرَ أحسبه فيها إلى أَن حلا لي فيهِ تَسهيدُ

فبعده عن محبوبه أصابه بالأرق فلم يستطع النوم، يقول[٣]:

اللَهُ في صَبٍّ جَفاهُ مَنامُهُ مِن بَعدِ فَقدِ حَبيبِهِ وَالمنزِلِ

---

(١) الديوان١٣٠.

(٢) الديوان١٣٠.

(٣) الديوان : ١٣٥.

ثانياً: مدح صفات الممدوح وأخلاقه:

فقد أفرد أربع قصائد في مدح الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد صاحب اليمن[١]، يبرز فيها أخلاقه الكريمة ، وإدارته الحكيمة للبلاد فمن سيرته أنه كان موضع مدح لما له من الخصال والمناقب، حيث مدحه الكثير من العلماء والشعراء لصفاته وكرمه وجوده يقول السخاوي :" فسار سيرة محمودة حمده الخاص والعام وكان جواداً لا نظير له في ذلك قريباً مهيباً حليماً صبوراً عطوفاً متحرياً عن سفك الدماء بغير حق شديد البأس حسن السياسة ممدحاً مدحه الأعيان كالفقيه علي بن محمد الناشري والشرف بن المقر[٢].

فيقول في جوده وكرمه وسعة عطائه[٣]:

الأَشْـرَفِ الملـكِ بـنِ الأَفْضَـلِ بِـن عَلـي ... يِ بــنِ المؤيِّــدِ حــامي المُلــكِ داودُ

المــانِحُ الفَضْــلَ صَــفواً فَــيضُ راحتِــهِ ... وَالغَيــثُ إِن جــادَ ثعبــانٌ وَمكــدودُ[٤]

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في تقرير صفة الكرم والجود ، فيقول[٥]:

ولا عيْــبَ فــي إحســانِه غيــر أنَّــه ... يُسلسِــلُ أعنــاق الــوَرى بالقلائــدِ

---

(١) السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. ٢٩٩/٢.

(٢) إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول . ولد في ذي الحجة سنة إحدى وستين وسبعمائة واستقر في المملكة بعد وفاة أبيه وقبل استكماله ثماني عشرة سنة وذلك في شعبان سنة ثمان وسبعين وصنف العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك والعقود واللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية إلى غير ذلك في النحو والفلك وغيرهما وذلك أنه كان يضع وضعا ويحد حدا ثم يأمر من يتمه على ذلك الوضع ويعرض عليه فما ارتضاه أثبته وما شذ عن مقصوده حذفه وما وجده ناقصا أتمه وابتنى بتعز مدرسة في سنة ثمانمائة وله مآثر حميدة. ذكره الموفق الخزرجي مطولا وقال شيخنا في أنبائه أنه أقام في المملكة خمسا وعشرين سنة . مات في ربيع الأول سنة ثلاث بمدينة تعز ودفن بمدرسته التي أنشأها بها ولم يكمل الخمسين، زاد غيره واستقر بعده ابنه أحمد ولقب بالناصر. (انظر ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٢٩٩/٢).

(٣) الديوان: ١٣٠.

(٤) الثَّعب جمع الثعبان وهو مسيل الماء في الوادي (معجم الرائد ٢٥٩)، الكديد البطن الواسع من الأرض كالأودية (معجم الرائد ٦٦٢).

جبران مسعود : معجم الرائد ، الطبعة السابعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢م.

(٥) الديوان: ١٣٩.

فمن كرمه أن الدنيا لو ضاقت على إنسان ، فلم يجد ملكاً يجيره ، فعليه أن يقصد الملك الأشرف ، لأن سحب الجود ظهرت يوم مولده ، فيطلب الشاعر من عزَّ معينه أن يغترف من تلك الكف ، فناديه يطرد الهموم ، لأنه دائماً يلهج بالسعادة ، فيقول[١]:

إن يَجهل القاصِدُ المَعروفَ مِن ملكٍ ... سواه فالعُرفُ مِن نُعماه مَعهودُ

مَخايلُ الجودِ لاحَت يَومَ مولده ... في وَجهه قبل ما تقضى المَواليدُ

اِستَسقِ يمناه يا من قَلَّ ناصرُهُ ... فأَنتَ مِن جود تِلكَ الكَفِّ منجودُ

وَاِطرُد همومك إن يُحلِلكَ ناديَه ... بِالسعد فَالعَكسُ في ناديه مَطرودُ

ووصف أخلاقه في حماية من دخل في حماه ، فيمنع عنه الأذى حيث من وقع في عداه فإن الأرض تتلون باللون الوردي من دمائهم، فيقول[٢]:

وَالمانِعُ السرحَ حيث الأَرضُ من دم من ... عاداهُ في خَدِّها المغبرّ تَوريدُ[٣]

وَالنَقعُ ثار دُخانا وَالظُبا شَرَرٌ ... وَما سوى حطبِ الأَجسام مَوقودُ

ويصف حال أعدائه ، فيقوم الناعي لينادي فيهم بالهلاك والموت لمجرد ملاقاة هذا الملك ، فالرعب انتزع رؤوسهم ، رغم أن سيفه ما زال في غمده ، فيقول[٤]:

وَقَام ناعي العدا في الحال مُبتدِراً ... يَقول في الفقر يا أَعداءَه بيدوا[٥]

سُلَّت رؤوسهم بالرعب مِن أَمَدٍ ... وَطرفُ مُرهَفِهِ في الجفنِ مَعمودُ[١]

---

(١) الديوان ١٣٢.

(٢) الديوان: ١٣١.

(٣) يقال : تورَّد خَدُّ الفتاة: احمرَّ، صار بلون الوَرْد. (معجم اللغة العربية المعاصرة مادة ورد : ٢٤٢٣/٣)
د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
السَّرْحُ: المالُ السائِمُ، وسَوْمُ المال (القاموس المحيط ٢٢٣/١) ، والسائمة كل إبل أو ماشية تُرْسل للرَّعْي ولا تُعْلف. (معجم اللغة العربية المعاصرة مادة سوم : ١١٤٠/٢).

(٤) الديوان: ١٣١.

(٥) القَفْرُ: مفازةٌ لا ماء فيها ولا نبات .(الصحاح مادة قفر : ٧٩٧/٢)
أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

فأخلاقه التقوى والجود والحلم ، والصدق في الوعود ، والفصل في الحكم ، والعدل فيقول[٢]:

عَلى التقى وَالنَدى والحلم مقتصرٌ ... فأعجب لمقصور شيءٍ وَهوَ مَمدودُ

وَفَصلِ حُكمٍ وَصِدقٍ في الوعودِ فَهَل ... عَلِمتم أَنَّ إسمعيل داودُ

بعُظم عزّته الدنيا تَعِزُّ فَيا ... زبيد مِنه هَناكِ العدل وَالجودُا[٣]

وفي مدحته الثانية للملك الأشرف ، مدح نسبه الزكي ، فيقول[٤]:

بندى العلي القدر وَالنسب الزكيِّ ... المعتلِ بن المعتلِ بن المعتلِ

وفي نسبه يقول[٥]:

نَسَبٌ عليه ضياءُ سَعدٍ حاجِبٌ ... عَينَ الحَواسِد بِالسَناء المسبلِ

ويقول أيضاً[٦]:

يا اِبن المُلوكِ السالِفين أُولي النهى ... وَالجود وَالعزمات وَالقَدر العلي

وفي وصف كرمه ، أحاديث العطاء تُروى عنه ، مزيَّنة بجوده وكرمه ، فيقول[٧]:

يَروي أَحاديثَ النوال صَحيحَةً ... بِمدبَّجٍ مِن جودِهِ وَمسلسلِ

يروي عَن العبّاس إِسماعيلُ ما ... يَروي كَما العَبّاس يَروي عَن علي

---

(١) الجَفنُ: غمد السيف (الصحاح مادة جفن : ٢٠٩٢/٥) ، رهف أَرْهَفتُ سيفي، أي رَقَّقْتُهُ، فهو مرهف (الصحاح مادة رهف : ١٣٦٧/٤) ، (سلَّ) الشَّيْء من الشَّيْء سلا انتزعه وَأخرجه بِرِفْق (المعجم الوسيط مادة سل : ٤٤٥/١).

(٢) الديوان: ١٣٢.

(٣) تعز وزبيد مدينتان في اليمن، وإن كان استخدمها بمعنى العزة ، فقد ذكر في سياقها مدينة زبيد ، فكانت تورية.(انظر معجم البلدان : ٣٤/٢ ، ٢١٥/١).

ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ، ١٩٩٥م.

(٤) الديوان: ١٣٥.

(٥) الديوان: ١٣٥.

(٦) الديوان: ١٣٦.

(٧) الديوان: ١٣٥.

جامع الصفات الحسنة من الحماسة والكرم والحِلم ، والشجاعة ، فيقول[١]:

تـــنظِّم إفـــراد المعـــاني صـــفاته وجمْـعُ المعـالي نَظْـمُ تلـك الفرائـدِ

حماســة قــيس فــي ســماحة حــاتم وحِلـم ابـن قـيس فـي شـجاعة خالـدِ

ويجمع الأضداد في وصفه ، فبأسه يلين له الجماد محفوف بحلم تزول منه الجبال الراسيات، فيقول[٢]:

بــأسٌ يَلــين لَــهُ الجَمــادُ يَحُفُّــهُ حِلــمٌ تــزلُّ لَــهُ رَواســي الأَجبــلِ

فهو صاحب الكرامات ، فجوده من كثرته سال ، وأعماله خوارق للعادات ، فهو على كل الأحوال يسمى الولي[٣]:

وَلَــهُ الكَرامــاتُ الشَــهيرة إن تَشــأ مِـن معجـز أَو إن تَشـأ مِـن مفضـلِ

جــودٌ همــى وَخــوارِقٌ لِعَوائِــدٍ عظُمَـت فَفـي الحـالين يَـدعى بـالولي

وقد مدح صفة الكرم بالملك الناصر أحمد بن إسماعيل كما مدحها في أبيه ، ومدح بعده عن كل ما يدنس الشرف، فيقول[٤]:

أَوعـى المُلـوك هدى أَوهـى الملـوك عدىً أَوفـى المُلـوك نَـدىً فـي الحـال بِالحـالِ

مطهَّـر الجيـب مـن عيـب وَمِـن دنـسٍ حاشــى مَعاليــه مِــن إِخــلال إِجــلالِ

وقد مدح نسبه ، وأجداده وشبههم بالكواكب النيرة، والأزهار السبعة، فقد علت منزلتهم ، وجادوا بالأفضال ، وكان طريقهم طريق الهداية والنبراس للناس في حياتهم، فقال[٥]:

فَأَحمَــد ملــكُ إِســماعيلَ عَنــه رَوى عَـن أَفضَـلٍ عَـن عَلـيٍّ خيـرَةِ الآلِ

عَــن المُؤيّــدِ داودَ الهزبــرِ غُــلاً عَـن المظفّـرِ سـلطانِ الـوَرى الخـالي

يَرويــه عَــن عمــرَ المَنصــور مُتَّصِــلاً مـن ذا يُسـاويك فـي إِسـنادك العـالي

---

(١) الديوان:١٣٩.

(٢) الديوان:١٣٥.

(٣) الديوان:١٣٥.

(٤) الديوان:١٤٦.

(٥) الديوان:١٤٨,١٤٧.

مِثــلُ الكَواكِــب أَنــتُم ســبعة زهُــرٌ هَــذا اِتّفــاق لِإجــلال وإجمــالِ

زِنــتُم عَلَــوتم حميــتم جــدتمُ كرمــا أَضــأتمُ وَهــديتم سُــبلَ ضُــلّالِ

وفي مدح صفات الملك عبد العزيز صاحب المغرب، فقد جمع بين المهابة والجود، كالغيث فيه الرعب من صوت رعده، وسنا برقه، وفيه أيضاً الخير الكثير فهو رمز الكرم والجود، فيقول[١]:

أَضــافَ إِلــى البِشــرِ المَهابَــة وَالنَــدى كَغيــث تَــوالى بَرقــه وَرعــودهُ

وقد تفنن في مدح صفة الجود والكرم في الملك عبد العزيز ، فكان يجود على الشاكر والجاحد ، فمن يشكر يزد له من جوده ، ومن يجحد فيغمره بجود حتى يزول جحوده، فيقول[٢]:

وَمــدّ يَــد الجَــدوى لِمُــثنٍ وَجاحــدٍ ســواء لَديــهِ شــاكِرٌ وجحــودهُ

فَأَمّــا الَّــذي يُثنــي فَيَــزدادُ شــكرُهُ وَبالشــكرِ حَقّــاً يَســتَزيدُ مَزيــدُهُ

وَأَمّــا الَّــذي مِــن شــأنه الجحــدُ فَهــوَ لا يَــزال إِلــى أَن يَضــمحلَّ جحــودهُ

فمن لم يكن لديه من الملوك هذا النوع من الجود، فقد حكم على جوده بالفناء، فيقول[٣]:

كَــذا فَلــيَكُن جــودُ الملــوك ومــن يَكُــن لَــهُ غَيــرُ هَــذا مَســكٌ مــات جــودهُ

أما مدحه لكرم الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري، جاء متأثراً بآيات القرآن، فلا أحد يماثله في جوده وعطائه، فهو كالبحر الواسع العطاء، وفي مجال مقارنة جوده بجود غيره جعل جوده بالماء العذب، أما جود غيره بالماء الأجاج[٤]، فيقول[٥]:

مَــــن ذا يُســــاوي جــــودَهُ بِــــالبَحرِ إِن أَمســــى خِضَــــمَّا

لا يَســــــتَوي البَحــــــران ذا عَــــذبٌ وَذاكَ المِلــــحُ طَعْمَــــا

---

(١) الديوان:١٥٢.

(٢) الديوان:١٥٢.

(٣) الديوان:١٥٢.

(٤) إشارةٌ لقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فاطر ١٢

(٥) الديوان:١٦٢.

وفي مجال المقارنة أيضاً فقد فاق حاتم الطائي المشهور بجوده وكرمه، فيقول[١]:

يـــا سَـــيِّداً قَـــد فـــاق حـــا تِـــمَ فـــي فُنـــون الجـــود حتمـــا

وفي مدح صفة الفصاحة والذكاء قال مادحاً الأمير يلبغا السالمي[٢]:

وَلَـم أَرَ يَومـاً فـي الفَصـاحَةِ وَالـذَكا نَعَـم وَإِلـى طُـرقِ العُـلا مِنـهُ أَبلَغـا

وقال في مدح وزير صاحب اليمن يصف تواضعه، فعندما ينشده مدائحه ينثني وبدا البشر على وجهه[٣]:

رَئـيسٌ إِذا أَنشـدتَهُ مَـدحَكَ اِنثَنـى وَفـي وَجهِـهِ نـورٌ مِـن البِشـرِ يَلمَـعُ

تَواضَـعَ لَمّـا لاحَ يَمشـي عَلـى الثَـرى وَفَـوقَ الثُرَيّـا كَـم لَـهُ ثَـمَّ مطلـعُ

وله قلم متنوع الاستخدامات، فيه يعظم الأحبة ويرفعهم ، وفيه يقمع الأعداء[٤]:

لَـهُ قَلَـمٌ فـي مَـدَّةٍ مـن مِـدادِهِ يعظِّـم أَحيانـاً وَللضِّـدِّ يَقمَـعُ

يَفوحُ وَيُجنـى يُطرِبُ الصحبَ يَطعَنُ الـ عِـدى فَهـوَ عـودٌ فَضـلُهُ مُتنـوّعُ

ويمدح قلم مجد الدين ابن الوزير ابن مكانس ، فهذا القلم متعدد الاستخدام ، فيه طعن للأعداء ، وفيه طربٌ للأحباب[٥]:

إِن مـاسَ فـي أَرضِ قرطـاسٍ لَـهُ قَلَـمٌ أَزرى بِغُصـنٍ مـن الرَوضـاتِ ميّـاسِ

يراعـة تطعَـنُ الأَعـدا وتطربُنـا وَتُجتَنـى فَهـيَ عـودٌ ذاتُ أَجنـاسِ

---

(١) الديوان:١٦٣.

(٢) الديوان:١٦٧.

(٣) الديوان:١٧٠.

(٤) الديوان:١٧٠.

(٥) الديوان:١٨٢.

المظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر ابن حجر من قصائد مدحه:

فالبلاد بحكامها تنعم بالأمن والاستقرار، وهذا حال البلاد العربية في العصر المملوكي فوصف الأمان واستقرار الحال الذي كانت تعيشه رعية الملك الأشرف إسماعيل بن العباس في بلاد اليمن ، فالبرق على ما فيه من قوة وشدة إلا أنه يرتعب من الملك الأشرف ، والنجم أرَّقه الخوف، فلم يأته النوم ، لكن الرعية في الأمان منعمة ، تنام مرتاحة النفس ، مطمئنة البال، فيقول(١):

نام الرَعايا وَقَلبُ البَرق يَخفق من ... رعب بِه وبطرف النجم تسهيدُ

وأمّنَتهم مِنَ الآفات طلعة من ... أَضحى وطالعه بِالنصر مسعودُ

فقد تنعم الكون بالأمان وذهاب الخوف بفضله وفضلِ أبنائه ، ومن قبلُ آبائه(٢):

قَد أمّن الكون مِن خَوف ونوّره ... أَبناؤهُ الغرّ أَو آباؤُهُ الصِّيدُ

فهو قد فاق كل الملوك في المنزلة ، فلا يقابله الملك الأمجد بهرام ، ولا كسرى وإفريد ، فيقول(٣):

وَقَد تعلّى عَلى بهرامَ(٤) منزلة ... وَفاقَ ملكاً فَما كسرى(٥) وإفريدُ

وبين استقرار البلاد في حكم ابنه الناصر أحمد بن اسماعيل وتنعمها بالأمن والسلام ، فأمور البلاد قد صلحت ، والوالي يسهر على خدمة الناس، فيقول(١):

---

(١) الديوان: ١٣١.

(٢) الديوان:١٣٢.

(٣) الديوان:١٣٢.

(٤) المَلِك الأَمْجَد (٦٢٨ هـ = ١٢٣١ م) بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب: شاعر. من ملوك الدولة الأيوبية. كان صاحب بعلبكّ، تملكها بعد والده تسعا وأربعين سنة وأخرجه منها الملك الأشرف (سنة ٦٢٧) فسكن دمشق وقتله مملوك له. (الأعلام : ٧٦/٢).

(٥) كسرى يزدجرد بن شهريار بن برويز آخر الأكاسرة مطلقا. واسمه: يزدجرد بن شهريار بن برويز المجوسي، الفارسي. انهزم من جيش عمر، فاستولوا على العراق، وانهزم هو إلى مرو، وولت أيامه، ثم ثار عليه أمراء دولته، وقتلوه سنة ثلاثين. (سير أعلام النبلاء : ١٠٩/٢)

الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء ، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

أَضـــحَت بعزّتـــهِ الـــدُنيا تعـــزُّ ومـــا زبيـــدُ إلّا بِهـــا غايـــات آمـــالي

أُمورهـــا بِصـــلاح الـــدين قَـــد صَـــلحَت نـــامَ الرَعايـــا مَتـــى مـــا اِستَيقظ الـــوالي

أما في قصيدته السابعة في مدح أمير المؤمنين المستعين العباس بن محمد العباسي ، لما وليَ السلطنة في سنة خمس وعشرة وثمانمائة، بعد الملك الناصر فرج بن برقوق، حيث لقب بالملك العادل[٢]، فلم يبدأها بمقدمة غزلية ، بل بدأها بمدح الملك معبراً عن سعادته بانتصار المستعين على المماليك واسترداده لسلطانه قبل أن يطاح به من جديد ، فقد أرَّخ لعودة الملك لآل عم المصطفى محمد –صلى الله عليه وسلم– ، فيقول[٣]:

المُلـــكُ أصـــبح ثابـــتَ الآســـاسِ بالمُســـتعِينِ العـــادلِ العبَّـــاسِ

رجعـــت مكانـــة آلِ عـــمِّ المُصـــطفى لِمَحَلِّهـــا مـــن بعـــدِ طـــولِ تناســـي

ثـــاني ربيـــعِ الآخـــرِ الميمـــونِ فـــي يـــوم الثلاثـــاء حُـــفَّ بـــالأعراسِ

بقـــدوم مهـــديِّ الأنـــام أميـــنِهم مـــأمونِ عيـــبٍ طـــاهرِ الأنفـــاسِ

وقد مدح أصله ومنبته الحسن الطاهر ، فهو من أصل سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– ، فيقول[٤]:

فـــرعٌ نمـــا مِـــنْ هاشـــمٍ فـــي روضـــةٍ زاكِـــي المنابـــتِ طيِّـــب الأغـــراسِ

مـــن أســـرة أســـروا الخطـــوبَ وطُهِّـــرُوا ممـــا بِغيـــرهمُ مـــن الأدنـــاسِ

---

(١) الديوان:١٤٧.

(٢) المُسْتَعِين باللَّه (٨٣٣ هـ =١٤٣٠ م) العباس بن محمد بن أبي بكر بن سليمان، أبو الفضل، المستعين باللَّه: من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر. وهو ابن المتوكل على الله بن المعتضد. بويع بالخلافة في القاهرة، بعد وفاة أبيه سنة ٨٠٨ هـ بعهد منه. وتوجه مع السلطان الناصر (فرج بن برقوق) سنة ٨١٤ هـ، إلى البلاد الشامية لإخضاع الأتابكي (شيخ) المحمودي، فقتل الناصر، وتولى المستعين السلطنة بعد أن اتفق مع أمراء الجراكسة على أن يكون شيخ (أتابكا للعساكر بمصر ومدبرا للمملكة) وعاد المستعين مع شيخ إلى مصر، فلم يلبث شيخ أن خلعه من السلطنة، (الضوء اللامع ١٩/٤).

(٣) الديوان: ١٥٣,١٥٤.

(٤) الديوان: ١٥٤.

وقد لقب بالملك العادل ، ففي حكمه زال الظلم وعمَّ العدل ، فيقول[١]:

وأزال ظُلمـــاً عـــمَّ كـــلَّ مُعمَّـــمٍ مـــن ســـائر الأنـــواع والأجنـــاسِ

ومن مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية التي مدحها الشاعر هي ظاهرة الاهتمام بالعلم والتعليم ، وبناء الأمراء المدارس التي تحوى الجواهر والدرر بين ثنايا مكتباتها وجنبات علمائها ، فيمدح الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري ، ويذكر مدرسته التي أنشأها برحبة العيد[٢]:

أَنـــتَ الَّـــذي لَـــولاهُ مـــا مُلِئَـــت بُيـــوتُ اللَـــهِ عِلمـــا

لِلَّـــهِ مَدرَسَـــةٌ سَـــمَت وَرقَمـــتَ فيهـــا الحُســـنَ رَقمـــا

تَســـتَوقِفُ الأَبصـــارَ روْ يتُهـــا فَتَشـــكُرُ مِنـــكَ عَزمـــا

عَـــزمَ اِمـــرئٍ مـــا عَـــدَّ فِـــع لَ الأَجـــرِ وَالخَيـــراتِ غُرمـــا

فقد شهد العالم أنه لا يساويها علماً ومنفعةً في بلاد العرب والعجم، فيقول[٣]:

شَـــهِدَ الأَنـــامُ بِأَنَّـــهُ مـــا مِثلُهـــا عُربـــاً وَعُجمـــا

لأنها حسب وصفه فريدة بما تحويه من كنوز المعرفة، فقد جمعت في خزائنها فنون العلم ، والتحقيق والتدقيق[٤]:

فَهـــيَ الفَريـــدَةُ فـــي الجَـــوا هِـــرِ لا تـــذوقُ الـــدَهرَ يُتمـــا

جَمعـــتَ فنـــون العِلـــمِ وَالتـــ تحقيـــق وَالتَـــدقيق فَهمـــا

---

(١) الديوان: ١٥٤.

(٢) الديوان: ١٦٠

(٣) الديوان:١٦٠.

(٤) الديوان:١٦١.

ثالثاً / الغرض من المدح :

فقد تنوعت أغراض الشاعر من مدائحه الملوك والأمراء، فترى الطمع فيما عند الممدوح ظاهراً بارزاً، ولكن يتبين لك غير الذي تلفظ به، وأحياناً تجد ألفاظه ومعانيه لا تحمل إلا معنى واحد وهو التكسب، وأحياناً تستثيره أخلاق ممدوحه فيجد نفسه مقصراً إذا لم يثنِ على صفاته، وأحياناً تجد غرضه عتاب ممدوحه من البعد عنه وتجاهله.

أما المدح الذي ظاهره التكسب ، والطمع في جود وفي كرم الممدوح ، ففي مدح الملك الأشرف، يقول[١]:

يـا مـن تطـوَّل جـوداً هـا بَضـائِعُنا ... عـرضَ المـدائح وَالتَقصـير مَوجـودُ

إلـى عـلاك قطعـتُ البحـر فـي سـفرٍ ... يُواصِـل القَلـب دأبـاً فيـهِ تَنكيـدُ

وختم قصيدته طامعاً في جوده وإحسانه [٢]:

ولطـفُ خيـرك لِلعـافي الغَريـب لَـهُ ... فـي الأَرضِ سَيرٌ وَفـي الآفـاق تَخليـدُ

طَوِّق بِحلـي النَـدى عُنقـي يَكُن لَـكَ مِن ... نظمـي وَسَـجعي عَلـى الأَوراقِ تَغريـدُ

وَدُم مَليكـاً عَلـى الجـدّ ترتـع فـي ... رَبيـع عـدلك شـاةُ القَـوم وَالسّـيدُ

ولكن في مدحته الأولى يبين أن مدحه للملك الأشرف مدحاً صادقاً[٣]:

نظـرتَ نَحـوي بعـين العطـف مـن كـرمٍ ... فَاسمع مَديحاً لَـهُ فـي الصدق تَوكيدُ

وفي مدحته الثانية يبين أن الغرض من مدحه للملك الأشرف؛ إنما ليكون بفضل مدحه وذكره ذا أهمية، فمن أراد أن يكون له شأن في الدنيا فعليه بمدح الملك الأشرف، وكذلك أن تكون مدائحه للملك الأشرف موقف يغيظ الاعداء ، فيقول[٤]:

وَنظمـتُ فـي مَـدحي لملكـك معجمـاً ... لأكـونَ فـي دُنيـاي لسـت بِمُهمـلِ

---

(١) الديوان: ١٣٣.

(٢) الديوان: ١٣٤.

(٣) الديوان: ١٣٣.

(٤) الديوان: ١٣٣.

وَرَجـــايَ تَشـــريفي بِمَرســـوم بِـــهِ غَضَـبُ العَدوّ إِذا بَدا ورضـى الـوَلي

وفي مدحته الثالثة للملك الأشرف فإن أرسل مدحه للملك يشكره فيها على جميله، وطيب أخلاقه[١]:

إِلَيـــكَ أَميـــرَ المُســـلمين بعثتهـــا تَضَـمَّنُ شُـكري مِـن طَريـفٍ وَتالـدِ

فَكَـم مِـن أَيـاد مِنـكَ هُـنَّ مَرافِقـي عَلى الدهر إِن يَسطو وَهنّ سَواعِدي

أما المدح الذي غرضه الطمع والتكسب فيظهر من مدحه للناصر أحمد بن اسماعيل، معللاً بأن الدهر قد جار عليه، وأمواله قد نهبت في حروب التتار، فيقول[٢]:

مَـولاي هَـل أَشـتَكي مـا قَـد سَـمِعتَ بِـهِ أَم أَكتَفـي بِالَّـذي قَـد لاحَ مِـن حـالي

قَـد ضَعضَـعَ الـدهر حـالي عِنـدَما نُهِبَـت بِالشـامِ أَيّـامَ تَيمُـور لَنـكَ أَمـوالي

وَبَعـدَها بلغَـت مِنّـي الحَـوادِث مِـن يَـد اِبـن عَجـلانَ مـا لاقـاهُ أَمثـالي

ويقول[٣]:

وَقَـد قصـدت بِـأَن أَحيـا بظلّكـمُ فَكـانَ مـا كـانَ مِـن خَـوفٍ وَأَهـوالِ

ويقول أن أمواله قد فقدت بسبب النهب والغرق ، فيتطلع إلى الممدوح وكله أمل بجوده وكرمه وسخائه، فيقول[٤]:

مـالٌ تمـزّقَ فـي نهـبٍ وَفـي غـرقٍ إن فـات مـالي سـألقى منـك آمـالي

وفي مدحه الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري الحريري ، كان غرضه منها الطمع فيما عند الأمير من الجوائز، فيقول[٥]:

يـــا أَيّهـــا المـــولى العَزيـــز بِضـــاعَتي المزجـــاةُ قســـما

أرسُـــم بـــأن يـــوفى لَهـــا كَيـــلُ الجَـــوائِز منـــك رســـما

---

(١) الديوان: ١٤٠.

(٢) الديوان:١٤٩.

(٣) الديوان:١٤٩.

(٤) الديوان:١٤٩.

(٥) الديوان:١٦٤.

فيطلب منه ألا يتجاهل مدحته ظناً بعيبها ، فإن المهدي كان يجيز مروان[١] عن كل بيت بألف، ويغريه بأنه أعلى منه منزلة، ومادحه أحلى من مروان نظماً، فيقول[٢]:

لا تَرمِهـــــــــا متعرِضّـــــــــاً ... لعيوبهـــــا بـــــالظنِّ رَجمـــــا

مَـــــروانُ كـــــانَ يجيـــــزُهُ الـــــ ... مهـــــديُّ فـــــي بَغـــــدادَ قِـــــدما

عَـــــن كـــــلّ بَيـــــت جَيّـــــدٍ ... أَلفـــــاً فيصـــــرف عَنـــــه همّـــــا

ولأنـــــت أَعلـــــى مِنـــــه وَالـــــ ... مملـــــوك أَحلـــــى مِنـــــه نظمـــــا

أما غرضه من مدح الملك عبد العزيز، فكان مدحه له لِمَا تغنت به الدنيا من سجاياه، ولما جمع من الصفات والفضائل الكريمة، فهو أراد أن يرسل من يبلغ تحياته للملك نيابة عنه، وقد أكد فيها أنه صادق في مدحه، وقد أرسلها إليه من مصر، فيقول[٣]:

إِلَيـــكَ أَميـــرَ المُســـلمين بعثـــت مـــا ... يَنـــوب مَنـــابي فـــي التَحايـــا ورودهُ

قَصيداً يَروق السمع إن يصغِ مُنصِتٌ ... لَيهـا يقُـل قَـد قـال صِـدقاً قَصـيدُهُ

وَأَرسَلتُها مِن مصر من بعد أَن سَعَت ... وَطافَـت بِبَيـتٍ قَـد تَعـاظَم عيـدهُ

وفي قصيدة مدحه للأمير يلبغا السالمي فيشكره على الهدية التي أهداها له، فهو يشعر أنه شخص قلَّ أمثاله لأنه فاق الناس في العشق وكذلك نبغ شعره، وحاز على هدية من الامير يلبغا، فيقول[٤]:

وَمِثلـــي قَليـــلٌ فـــي الأَنـــامِ لأَنَّنـــي ... فَتـىً فقتُ فـي عِشـقي وَشِـعريَ نُبغـا

ظَفَـــرتُ بِأَكيـــاسٍ فمـــن بَـــينِ فتيـــةٍ ... صـــحبتُ وَمِـــن مـــالٍ حبانيـــهِ يَلبُغـــا

فيرسل إليه قصيدته يبغي بها القبول، فيقول[١]:

---

(١) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، أبو الهيذام. وقيل: أبو السمط ، كان مروان بن سليمان شاعرا مجيدا، ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة. وللمزيد عن قصته مع المهدي في إكرامه بكل بيت ألفاً انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م ، ٩/٦٩,٧٠.

(٢) الديوان:١٦٤.

(٣) الديوان:١٥٣.

(٤) الديوان:١٦٦.

أَمــولايَ ســيفَ الــدينِ هــاكَ قَصــيدَةً لَهـا مِـن قبـولِ العُـذرِ أَشـرفُ مُبتَغـى

خَريـــدَةُ خِـــدرٍ بِالمَعـــاني تَزَيَّنَـــت فَريـــدَةُ فِكـــرٍ لا تُحِـــبُّ تَملُّغـــا

وفي مدحته لوزير صاحب اليمن ، أشهر له العتاب على تجاهله له واهتمامه بغيره[٢]:

وَفَضــلُ فــلانِ الــدينِ عَــمَّ وَوَجهُــهُ لِغَيــري يُبــدي الإبتســامَ وَيســطَعُ

أحاشــيهِ أَن يَرضــى بِشَــكوايَ عامِــداً وَإِنّــي بِمــا قَــد دَلَّ أَو قَــلَّ أَقنَــعُ

إِلــى ابــنِ عَلــيٍّ قَــد رفعــتُ قَضــيَّتي وَأَرجــو بِهَــذا أَنَّ قَــدري يُرفَــعُ

فقد تمثَّلت شكواه في ضيق الدنيا عليه مع سعتها[٣]:

أَيــا اِبــنَ الكِــرامِ اِســمَع شــكايةَ مفــردٍ غَريــبٍ لَــهُ فــي بَحــرِ جــودِكَ مَشــرَعُ

لَقَــد ضــاقَتِ الــدنيا عَلــيّ برحبهــا وَإِن ضــاقَتِ الــدُنيا فَعَفــوكَ أَوسَــعُ

فيطلب منه الود[٤]:

وَلــي فيــكَ وُدٌّ مــا يُزَعزِعُــهُ الجَفــا وَهَــل زَعزَعَــت صُــمَّ الرَواســي زَعــزَعُ

ويطلب عنه عدم السماع لقول الوشاة الذين يفسدون العلاقات بينهم[٥]:

لَــئِن كُنــتَ قَــد بُلِّغــتَ عَنّــي مَقالَــةً لَمُبلِغُــكَ الواشــي أَغَــشُّ وَأَخــدَعُ

وما شجعهم على إفساد العلاقات ما رأوه يسرع إلى كل ما يسيء لابن حجر فيقول[٦]:

رأوك إِلــى مــا ســاءَني مُتســرِعاً فَقــالوا وَزادوا مــا أَرادوا وَأَســرَعوا

فيعاتبه على إهمال الود والمحبة، فو أراد الود ما سمع لمقالتهم[٧]:

وَلَــو كُنــتَ تَرعــى الــوُدَّ مــا مِلــتَ نَحــوهُم بِسَــمعٍ رَعــاكَ اللَــهُ دَهــراً وَلا رُعــوا

---

(١) الديوان:١٦٧.

(٢) الديوان:١٦٩.

(٣) الديوان:١٧١.

(٤) الديوان:١٧١.

(٥) الديوان:١٧١.

(٦) الديوان:١٧١.

(٧) الديوان:١٧١.

ثم يبين له ما كان يكنُّه من الحب ، فالعاقل لا يعاديه[١]:

وَكَيـــفَ يُعـــادي آلَ بَيتِـــكَ عاقِـــلٌ وَآلُ عَلـــــيٍّ لِلمُـــــوالاةِ مَوضِـــــعُ

وفي نهاية مدحته يوضح ابن حجر أن مدحه له جاء بسبب صفاته التي شجعته على ذلك[٢]:

وَمـا كُـلُّ مَـن قـالَ القَـريضَ أَجـادَ فـي الـ مقـــالِ وَلا كُـــلُّ المجيـــدينَ مُبـــدِعُ

فَهـــاكَ قَصـــيداً شَـــجَّعَتني صِـــفاتُكُم عَلَيهـا فَفاقَـت كُـلَّ مـا قـالَ أَشـجَعُ

أما غرضه في إظهار حبه لممدوحه ، فتجده في مدح سعد الدين بن غراب ناظر الخواص الشريفة[٣]:

وَإِذا أَحبَّـــكَ مَـــن يَـــراكَ تَســـودُهُ كـــانَ الـــدُعا وَالمَـــدحُ غايَـــةَ جهـــدِهِ

ويكون غرضه من مدحه هو تهنئة الناس بزوال الجور والظلم ، عندما تولى ممدوحه – جلال الدين الشافعي – القضاء[٤]:

هنـــاءٌ فعقـــلُ الحكـــم زال خبالُـــه ونعِّـــم مـــن بعـــدِ الشَّـــقاوة بالُـــه

وولـــى زمـــان الجَـــورِ لا عـــاد وانقضَـــى وقـــد أخمـــدت نيرانُـــه واشـــتعالُه

وإنَّ الإمـــام الشـــافعيَّ جـــاءَ مالكـــاً لمنصـــبه العـــالي فـــتمَّ جمالـــه

أما غرضه من مدح مجد الدين ابن الوزير ابن مكانس فهو اظهار فضل مصنفاته ، فقد طالعها ابن حجر وبان له فيها المحاسن ، فعبق المسك يفوح من طيات كتبه ، ويدعو له بأن يكون رأساً للأدباء[٥]:

طالَعـــتُ مجموعَـــكَ المبـــدي فَضـــائلَه كَأَنَّـــهُ فـــي المَعـــالي ضـــوءُ مقبـــا

فـــي طَيِّـــهِ نشـــرُ طيـــبٍ لَـــم يَـــزَل عبقـــاً مِن مِسكِ نقسٍ ومن كافورِ أَطراسِ

---

(١) الديوان:١٧١.

(٢) الديوان:١٧١.

(٣) الديوان:١٧٦.

(٤) الديوان:١٧٦.

(٥) الديوان:١٨٣,١٨٤.

لا زِلــتَ للأُدَبــا رأســاً وأصــلُك قَــد رَسـا فَـأكرِم عَلـى الحـالَينِ بـالراسِ

أما غرضه من مدح ابن الدماميني[١] فهو تقريظ علوم الممدوح، فهو الذي ملأ الدنيا بعلمه، يقول[٢]:

وَعلومُــــــهُ كالشــــــمسِ لــــــ كــــن قَــــد تنــــزَّهَ عَــــن زَوالِ

وَكَلامُــــــهُ حِلــــــوٌ فَيــــــا لِلَّــــهِ مِــــن ســــحرٍ حَــــلالِ

وَكِتابــــــــــةٌ وَبراعَــــــــــةٌ تَســــمو وَتَعلــــو عَــــن مِثــــالِ

مــــــلأَ المَســــــامعَ وَالمجــــــا مِــعَ فــي جــدى أَو فــي جِــدالِ

رابعاً / خاتمة قصيدة المدح:

غلب على ابن حجر في ختم قصائد مدح بالدعاء للممدوح بعلو شأنه ، وسمو قدره ، وتمكين ملكه ، وفي بعض الاحيان كان يختمها بعد دعائه لممدوحه بالصلاة على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم –.

فخاتمة قصائد مدحه في الملك الأشرف اسماعيل بن عباس، استخدم أسلوب الدعاء له في تكمين ملكه، ففي مدحته الاولى يقول[٣]:

وَدم مَليكــاً عَلــى الجــدّ ترتــع فــي رَبيــع عــدلك شــاةُ القَــوم وَالسّــيدُ

وفي مدحته الثانية يدعو للملك الأشرف أن يسمو في أخلاقه وصفاته بأعلى المراتب، فيقول[٤]:

وَتــــرقَّ أَعظَــــم غايَــــة لا تَنتَهــــي وَتنــاول الزُهــرَ العليّــة مــن علــي

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر بن يحيى بن حسين بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الشهاب بن البدر المخزومي السكندري المالكي ويعرف بابن الدماميني. ولد في سنة تسعين وسبعمائة بالاسكندرية ونشأ بها.(الضوء اللامع ،١٠٥/٢).

(٢) الديوان:١٨٦.

(٣) الديوان:١٣٤.

(٤) الديوان:١٣٧.

ويقول في مدحته الثالثة[١]:

فَـــدم مَلِكـــاً للـــدّين خيـــر ممهَّـــدٍ بِحلـــم لِمـــولى أَو سُـــطاً لمعانـــدِ

وفي مدحته الرابعة يدعو له بأن يجعل الله أيامه طيبة وجميلة؛ لأن البسمة والفرح سمة لهذه الأيام ، ويختمها بالصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – ويقول[٢]:

سَـقى اللَـه أيّـام اِبـن عَبّـاس إنَّهـا بَواسِـمُ بِـالأَفراح يـأوي الغنـى لهـا

وَيـــا ربّ جَـــدِّد جَـــدَّها وســـعودها وَصِـل مَـع أَسـباب المَعـالي حبالهـا

وَصـــلّ عَلـــى خَيـــر الأَنـــام محمّـــد صَـلاة مَـدى الـدُنيا تـديم اِتِّصـالَها

وخاتمة مدحته للملك الناصر الدعاء له بدوام العز والتقدم والسعادة ، بعد أن طلب منه أن ينصره بجاهه على الأعداء بالأقوال والأفعال، يقول[٣]:

فَعـــد بجاهـــك تَحمينـــي وَتَنَصـــرني عَلـــى عِـــدايَ بِـــأَقوالٍ وَأَفعـــالِ

وَدُم كَمـــا شِـــئت فيمـــا شـــئتَ مُقتَـــبِلاً فـــي عـــزّة وَســـعاداتٍ وَإِقبـــالِ

أما خاتمة مدحته في الملك عبد العزيز ، فقد ختمها بالدعاء للملك بالنصر في كل واقعة، ودعا له بدوام ملكه وعزه، يقول[٤]:

دَعَـوتُ لَكُـم بِالنَصـر فـي كُـلِّ مَشـهَدٍ كَـم مشـعَرٍ قَـد طـاب فـيكم شـهودهُ

فعـــــزّك لا ذلٌّ يُلاقيـــــهِ دائِمـــــاً وَملكـك فـي الـدُنيا يَـدوم خلـودهُ

وقد تكون خاتمة قصيدته دعاء للممدوح بأن يبقى على عطائه ، أن يبقى سيفه سوطاً مسلطاً على رقاب أعدائه ، وفي المقابل يبقى للأحبة معطاءً كريماً، فيقول في مدح الأمير يلبغا السالمي[٥]:

وَدُم هاديـــاً إمّـــا لِصَـــحبِكَ أَنعُمـــاً وَإِمَّـــا إِلـــى مَعنـــى النَـــوالِ مُبَلّغـــا

---

(١) الديوان:١٣٧.

(٢) الديوان:١٤٤.

(٣) الديوان:١٥٠.

(٤) الديوان:١٥٣.

(٥) الديوان:١٦٧.

وَلازلــتَ فــي الأَعــداءِ سَــيفاً مُجــرّداً وَلازِلــتَ ظِــلّاً للأَحِبَّــةِ مســبغا

وخاتمة مدحته لسعد الدين ناظر الخواص الشريفة ، فيها رجاء من الله أن يبقيه سالماً ، ويدعو على من يكرهه بأن يبقى في تعاسته ، أما من يحبه فيعيش في السعادة والهناء[١]:

فــانِعَم ودُم واِغَــنَم وَعِــش فــي راحَــةٍ وَدَعِ الحَســودَ لِهَمِّــهِ ولكــدِّهِ

فَرَجــاي أَن يُبقيــكَ رَبُّــك ســالِماً وَاللَــهُ أَقــرَبُ مُرتَجــى مِــن عَبــدِهِ

فَلِمَــن غَــدا يَشــناكَ غايَــةَ تَعسِــهِ وَلِمَــن غَــدا يَهــواكَ غايَــةَ سَــعدِهِ

أما خاتمته في مدح القاضي جلال الدين الشافعي بعد دعائه له ، فكانت بالصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم– ، فيقول[٢]:

وأســألك اللهــمَّ خلِّــدْ بقــاءَهُ لتُــرغم أعــداهُ ويــنعمَ بالُــه

وعمِّــر ســراج الــدين بــالنُّورِ والهــدى إمــامَ الأنــامِ الفــردَ ترسُــو جبالُــه

وصــلِّ علــى الهــادي وآلٍ وصــحبِهِ فأصــحابُه خيــرُ الصــحاب وآلُــه

---

(١) الديوان:١٧٦.

(٢) الديوان:١٧٨.

الغزل

كان الغزل في العصر الجاهلي موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة، فيبكون الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الاولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ويقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، فيصفون خدها وجبينها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها و حيائها وعفتها[1].

كما أن الغزل في العصر الجاهلي كان يأتي في مقدمة القصائد، وقلَّما أفرد الجاهليون الغزل بقصائد مستقلة.

أما في العصر الأموي فقد تهيَّأت أسباب كثيرة ليستقل الغزل بقصائد خاصة ليكون فناً قائماً بنفسه، فكان في هذا العصر نوعان من الغزل : الأول التقليدي وهو الذي تبدأ به قصائد المدح والهجاء ، ونوع مستقل.

أما في العصر العباسي اهتم الشعراء بهذا الغرض اهتماماً كثيراً ، فقد تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة ، وأمدوه بأخيلة جديدة .

ومما يدلل على أن تطور الحياة والأفكار أدى إلى الغلو في الغزل في العصر العباسي ؛ أن الغزل الصريح كان أكثر حدة ؛ بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات ، وغير خراسانيات ورروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ، ويُشعن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقي ، فعامل الترف وعوامل أخرى مثل الزندقة والشعوبية ، أدى إلى فساد الأخلاق.

ومن صور الغلو في الفساد استحدث الكثير من الشعراء ضرباً جديداً من الغزل الصريح ، وهو غزل الغلمان ، واستمر الغزل العفيف بجانب الغزل الصريح ولكن بصورة أقل مقارنة بنقيضه[2].

---

(١) انظر: شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ٢١٢

(٢) انظر: شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، الطبعة السادسة عشر، دار المعارف، ٣٧٠,٣٧١.

أما الغزل في العصر المملوكي _ وهو عصر الشاعر _ فلم يختلف عن غيره من فنون الشعر، ولم تختلف طرائق شعراء العصر المملوكي عن سابقيهم، فمنهم من زيَّن به صدر قصيدته، ومنهم من أفرد له القصائد الطوال.

وقد جمع ابن حجر العسقلاني بين طرائق الغزل ، فتراه في صدر قصائد المدح تارة ، وتارة تراه قصائد مفردة .

وتمحور الغزل عند ابن حجر العسقلاني على الشوق والحنين ولوعة الفراق؛ وذلك لكثرة ترحاله وبعده عن أوطانه ، وغربته عن أحبابه ، فقال قصيدة يتشوق فيها لأهله مقدمتها[١]:

سَـــلامٌ عَلـــى مـــن لا يـــردُّ جَـــوابي سَـــلامَ مشـــوق بِـــالفُراق مصـــابِ
ســـــلام كَأَنفـــاس النَسـيم بسُـــحرة سَـرَت فـي رِيـاض مـنهم وَرحـابِ
سَـــلامٌ مُقـــيمٌ مِـــن مُعنّـــىً مســـافر تبـــدَّلَ مـــن غزلانـــه بِـــذئابِ
سَـــلام عَلـــى أَهلـــي وَداري وَجيرَتـــي وَأُنســـي وَقَلبـــي وَالكَـــرى وَشَـــبابي
وَمنـــزِلِ أَحبـــابي وَظِـــلِّ صـــحابَتي ومنـــزِهِ أَترابـــي وَجُـــلِّ طلابـــي

وضمنها شوقه لماء النيل الحلو البارد ، واعتبر كل ماء بعده سراب ، يقول[٢]:

تركـــت شَـــراب النيـــل حُلـــواً وَبـــارِداً فَكَـــم خُدعَـــةٍ لـــي بَعـــدَه بِسَـــرابِ

وهذا الفراق لا يطيق الشاعر احتماله ، فالسلوان لم يطيب خاطره ، يقول[٣]:

وَفارقـــت مـــا لا طاقَـــةً بفراقـــه مـــا طـــرَقَ السُـــلوانُ ســـاحَةَ بـــابي

وحاول أصدقائه تقديم النصيحة في تخفيف نار البعد بالبكاء ، فدعا على نفسه بفقد عينه إن لم تكن كريمة كالبئر الصغيرة في ذرف الدموع[٤]:

وَقـــال خَليلـــي إنّ فـــي الـــدمع راحَـــة وَكـــفّ دمـــوع العـــين غيـــرُ صَـــوابِ

---

(١) الديوان: ١٩٢.
(٢) الديوان: ١٩٢.
(٣) الديوان: ١٩٢.
(٤) الديوان: ١٩٢.

فقلـت فقـدتُ العَـينَ إن لَـم أَجـد بِهـا جفـانَ جُفـون للـدموع جَـوابي

وقد جمع الشاعر بين الأرق والبكاء وعينه ، واعتبر ذلك نذير بالخراب ، حيث أصابه هذا البعد ببعض التغيرات فالشيب قد عشش في مفرق رأسه[١]:

وَصـالحتُ بَـين السـهد والطـرف وَالبكـا وَذاكَ بِنـاءٌ مـؤذِنٌ بِخَـرابِ

وَعشَّـشَ نسـرٌ للمشـيب بِمفرقـي وَطـار ببَينـي والشـباب غرابـي

أما تذكار الأحبة يجعل العين تسيل من الدمع مثل السحاب[٢]:

وأَشـهد بِالتـذكارِ رَوضـة أَرضـهم فتهمـي عَلَيهـا مُقلَتـي كَسَـحابِ

أما الليل فيمثل بالنسبة له الأمل، فيبيت يحادث ويسامر الأنجم لعلها تنوب مكانه في السلام لأحبيته[٣]:

أَبيـتُ سَـميرَ الأَنجـم الزهـر عَلَّهـا تَنـوب علـيكم فـي السَـلام مَنـابي

ويتظاهر لأعدائه الصبر والتجلد، ويبطن في داخله المرض والسقام[٤]:

وَأُظهِـرُ للأَعـداء فَـرطَ تَجَلُّـدٍ وَأُبطِـنُ أَنّـي بِالسـقام لمـا بـي

ومن قصائد أشواقه فقد قال قصيدة مطولة يتشوق فيها إلى بلده مصر، قالها وهو يتوجه إلى الحجاز عبر البحر، أولها[٥]:

مَتـى يتجلّـى أفـق مصـرَ بأَقمـاري وَأَروي عَـن اللقيـا أَحاديـثَ بَشّـارِ

وَأَقـرأ آيَ الوصـل مـن صُـحفِ أَوجـهٍ مواضـعُ خـتمِ اللـثمِ فيهـا كأعشـارِ

وأظهر شوقه لمصر[٦]:

إِلـى مِصـرَ واشـوقاً لمصـرَ وَأهلهـا تشـوُّقَ صـبٍّ لِلنـوى غيـرِ مختـارِ

---

(١) الديوان : ١٩٢، ١٩٣.

(٢) الديوان : ١٩٣.

(٣) الديوان : ١٩٣.

(٤) الديوان : ١٩٣.

(٥) الديوان : ١٩٧.

(٦) الديوان : ١٩٨.

وقد مدح مصر بما مدحها الله عز وجل فهي بلد الأمان لداخلها لقوله تعالى :{... وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ}[1] ، يقول[2]:

وَيــا وَحشَــتي يــا مصــرُ منــك لبلــدة لــداخلها بــالأمن بشــرى مــن البــاري

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في إبراز أخلاق أهلها، ففيها كل شيء يدعو إلى الحسد ، وليس فيها عيب تعاب به ، إلا أن الفضل من أهل مصر ظاهر[3]:

محسَّـــدَةٌ لا قَـــدح فيهـــا لعائـــب عَلـى أَن زنـدَ الفضـل مِـن أَهلِهـا واري

وبين مكانة نهر النيل الذي هو مفخرةٌ لمصر الذي يكسر هيبة كل مفاخر ، يقول[4]:

إذا فاخروهـــا قـــام صـــارِمُ نيلهـــا بِمقيـاسِ صِـدقٍ كاسِـراً كـلّ فخّـارِ

وبين ما تمثل له مصر فهي حياة شبابه ، وأول أوطانه ومنزل الأحبة، يقول[5]:

مَراتِـــعُ لَـــذّاتي وَملهـــى شَـــبيبَتي وَمَبـــدأُ أَوطـــاني وَغايَـــةُ أَوطـــاري

وَمَنـــزِلُ أَحبـــابي وَمنـــزِه مقلتـــي ومطلـــعُ أَقمـــاري ومغـــرب أَفكـــاري

فقد اكتوى بنار البعد ، ورماه النوى حتى ركب أحاديثها مطيّةً ، وبعدها يصف السفينة التي تنقله من مصر للحجاز ، فهي إن أتت السهل أبطأت ، وفي الأمواج تكون سريعة ، وهي جارية أي سائرة ولكنها تستعبد كل من في بطنها من عبيد وأحرار، يقول[6]:

أَأَحبابَنـــا أُصـــليتُ فـــي البحـــر بَعـــدَكُم بِنـــاري وَأَنـــتُم فـــي ريـــاض وَأَنهـــارِ

رمتنـــي النَـــوى حَتّـــى ركبـــتُ مطيّـــةً أَحاديثُهـــا فيهـــا غَرائِـــبُ أَســـمارِ

إِذا السَـهلُ أَوفـى أَبطـأت فـي مسـيرِها وتسـرعُ فـي الأَمـواج سـيراً بأَوعـارِ

وجاريَـــةٌ لكنّهـــا تســـترقُّ مـــن تَـبَطَّنَ فيهـا مـن عَبيـدٍ وَأَحـرارِ

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٩.

(٢) الديوان : ١٩٨.

(٣) الديوان : ١٩٨.

(٤) الديوان : ١٩٨.

(٥) الديوان : ١٩٨.

(٦) الديوان : ١٩٩.

فهي لا خير فيها إلا أن نزيلها رفيق للقرآن، دائم الأذكار، يقول[١]:

ولا خَيــــرَ فيهـــا غيـــرَ أَنّ نزيلَهـــا نَـــديمٌ لقـــرآن مـــديم لأذكـــارِ

ففي سفره لم يجد من يؤانسه إلا الكتب ، فهي جلاء الهموم في سفره، يقول[٢]:

وَفـي سـفري لَـم أَلـقَ لـي مِـن مـؤانِسٍ سِوى الكُتبِ أَجلو الهَمَّ مِنها بأَسفارِ

وتتضمن كل قصائد الحنينية – الغزليات – على معاني العذاب لصدود المحبوب ، وظهور الألم النفسي والجسدي على الشاعر لبعده عن أحبابه ، فتارة تراه سقيماً وتارة تراه نحيلاً وغيرها.

فتراه يؤكد أنه ينكر على نفسه قول القصائد ولا يشتكي من الصد والهجران، يقول[٣]:

عَفـا اللَـهُ عَنّـي هَـل أَقـول قصـيدة وَلا أَشتَكي فيهـا مـن الصـدّ والهجـرِ

فقد بدأ قصيدة أظهر فيها العذاب لصد المحبوب، يقول[٤]:

إِنَّ الَّـــذي بِجَحـــيم الصـــدّ عـــذّبني مـذ بـان عنّـي لَـم أظهـر ولـم أبِـنِ

أَســـتودعُ اللَـــه بَـــدراً حـــينَ ودّعنـــي وَســـار للســـقم وَالتَبـــريحِ أَودعنـــي

وفي مقدمة لقصيدة أخرى ، اتهم فراق الأحبة بإصابة قلبه بالسقم ، والأوجاع ، وزاد ألمه وسقمه العذول ، يقول[٥]:

فـــراقٌ رمـــى قَلبـــي بِسُـــقم وأوصـــابِ وَيـا لَيتَـهُ للقرب مـن بعد أَوصـى بـي

سَـقِمتُ وَزادَت صـبوَتي ثـمّ مـا اِشـتَفى سـقامي بِشَـهدٍ مـن عـذول وَلا صـابِ

وفي مقدمة أخرى فإنه يتلطف مع محبوبه ، ويطلب له العفو من الله لما أصابه من بعدهم وفراقهم، ويلوم أحبابه أنهم تخلقوا بأخلاق أهل الكسر للقلب ، ويهنئهم على قتل المودة بينهم فهم على كل الأحوال أحبابه ، يقول[٦]:

---

(١) الديوان : ١٩٩.

(٢) الديوان : ١٩٩.

(٣) الديوان : ١٩٧.

(٤) الديوان :١٨٧.

(٥) الديوان :١٩٠.

(٦) الديوان :١٩٦.

عَفــا اللّــهُ عَــن أَحبــاب قَلبــي فَــإِنَّني لبعدهُم قَد عفت ما ذقت مِن صبرِ

أَنــا المفــردُ المَهجــور لمــا تَخلَّقــوا خَلائِقَ أَهلِ الكسر للقلب لا الجبرِ

هَنيئــاً لَهُــم قَتلــي وصــفوُ مــودّتي فَــإِنَّهم الأَحبــابُ فــي العسر واليسرِ

وتراه أفرد مفهوماً خاصاً للغربة، فالغريب عند الشاعر هو الذي يبتعد الاحباب عن عينيه ، لا الذين يبتعد عن سكنه، لذلك لا أحد يعاتب الشاعر في كرهه لوطنه ، يقول[١]:

مــن ســرّهُ وَطَــنٌ يَومــاً أَقــام بِــهِ فَــإِنَّني ســاءَني مِــن بَعــدِهِ وَطَنــي

إِنَّ الغَريــب الَّــذي تنــأى أَحِبَّتُــهُ عَن طَرفِهِ لا الَّذي ينأى عَن السَكَنِ

فهو باقٍ على عهده في حبه على رغم اللوم والعتاب والعذل ، مع أن الشاعر يعتقد أن من يلومه يحسده على حبه ، يقول[٢]:

حَبيــبُ قَلبــي عَلــى رغــم العــذول وَلا أَشُــكُّ أَنّ عــذولي فيــهِ يَحسُــدني

وفي بيان حالة الحزن والعشق، فإن البكاء أفضل وسيلة لذلك، يقول[٣]:

وَارِوِ المسلسَــل مــن دَمعــي وَعارِضِــهِ بالأوّليّــة عَــن عشــقي وَعَــن حَزَنــي

فالدموع مكمن أسرار العذاب والاشتياق لدى الشاعر؛ لكن الدموع دائماً تكشف هذا السر، يقول[٤]:

وَمــدمعاً كلّمــا اِســتكتَمتُهُ خبــري لَم يَكتم السرّ من عشقي وَلَم يصُنِ

ويلوم أحبابه بإحلالهم الأسى ، وتحريمهم على عيونه النوم، يقول[٥]:

أَأَحبــاب قَلبــي كَيــفَ حلّلــتم الأَســى وَأحــرمتمُ نَــومي يلِــمُّ بأَهــدابي

---

(١) الديوان :١٨٧.

(٢) الديوان :١٨٧.

(٣) الديوان :١٨٧.

(٤) الديوان :١٨٨.

(٥) الديوان :١٩١.

وأما في ذكر صفات المحبوب، فهو البدر، في الحسن والإشراق والإبداع، فتراه يستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، يقول[١]:

كالبَــدرِ لكــن بِــلا نقــص وَلا كَلَــفٍ فـي الحسنِ والسنّ والإشراقِ وَالسننِ

فهي كالعود اللين الذي يهتز، ونظراتها في حدتها مثل سيف بن ذي يزن – ملك حمير – ، يقول[٢]:

تَهتَــزُّ كــاليَزَنيّ اللَــدنِ قامتُــه تَهتَــزُّ كــاليَزَنيّ اللَــدنِ قامتُــه

وفي إبراز حسن محبوبه و إظهار حزنه وفقدان صبره، استخدم طريقة طريفة حيث استعمل أسماء بحور الشعر ومصطلحات العروض، يقول[٣]:

يــا كامِــلَ الحُســنِ حزنــي وافِــرٌ وأَرى وجدي مَديداً وَصَبري عنك مقتَضَبا

ولم يخلو غزله من المحسوس العفيف ، فهو قليل لكن لا بد من إظهاره ، فيصف رشاقة محبوبه ، وإشراقه خديه ، وما تغني إطلالة وجهه عن الرياض والألوان ، فخديه كالتفاحة، والعينان من حسنهما شبههما بالنبتة جميلة المنظر والرائحة، وريقة كالخمر، يقول[٤]:

وَأَغيــد مــن إشــراق خدّيــه قَــد بَــدا دَليلٌ بـأنّ الخـدّ يَـروي عَـن الزهـري

وَمــذ لاح فــي الخــدّ اِخَضــرارُ عــذاره تـواتر عِنـدي مـا رَواه عَـن الخضـرِ

وَيـا طـال مـا أَغنـى محيّـاهُ عَـن شَـذا ريــاض وَأَلــوان مــن الــراح والزهــرِ

فخــدّاه تفــاحي وَعَينــاه نرجســي وعارضُــه مســكي وريقتُــه خمــري

أما في إظهار الخوف والغيرة على المحبوب من الناس ونظراتهم، وذلك عند ظهوره والشمس معاً في وقت واحد، يقول[٥]:

أَخشــى عَلَيــهِ عيــون النــاس تنهبــه إذا بَـدا طالِعـاً وَالشـمس فـي قـرَنِ

---

(١) الديوان :١٨٧.

(٢) الديوان :١٨٧.

(٣) الديوان :١٩٤.

(٤) الديوان :١٩٦ ، ١٩٧.

(٥) الديوان :١٨٧.

أما فيما تركه الصدود من آثار عليه، فمن كثرة التفكير في المحبوب اشتد عليه المرض، فأصبح فقط يعرف بمرضه، مما أفقده طيب النوم وراحته، يقول[١]:

لَقَـد ضـننتُ بِـهِ حَتّـى ضـنيت فـإن ساءلت مُكتفيـاً عَنّـي يقـال ضـني

فَقَـدتُ طيـبَ الكـرى مِنـه ومـن عجـبٍ فَقدي بنيّر وَجـهٍ فـي الـدُجى وسـني

فجسمه أصبح خفيفاً كالريح العليلة، مع أن جسمه ثقيل بالأمراض، يقول[٢]:

جِسـمي أَخَـفُّ مِـن الـريح العَليلـة مَـع أَنّـي ثقُلـتُ بضـعف كـاد يَقتلنـي

وَأَصـلُ سـقمي مـن لاحٍ يَـرى غلطـاً أَنّـي أَرى حسـناً مـا لَـيسَ بالحسـنِ

ويقول عن فقدان النوم بسبب الهجران، فالمحبوب لم يراعه في سهره؛ لكن طيفه لازمه، يقول[٣]:

سـلبتَ نَـومي فَـإن لَـم تَـرعَ لـي سـهري فَـراعِ طيـفَ خَيـال منـك يطرُقنـي

ورتب الأحوال التي تصيب الإنسان من أثر الحب والهجران، والفراق، فتبدأ بالحزن، فالهمّ، فالدموع، فالعين المسهَّدة، فتعب الجسم كاملاً، يقول[٤]:

الحـزنَ فـالهمّ فالـدمعَ المـوَرَّدَ فـالط طَـرفَ المسَـهَّد فالأوصـاب فالتَعبـا

وَابـيضَّ طرفـي واِحمَـرَّت مَدامِعُـهُ وَاِسـودَّ طـرفُ اِصـطِباري بعـدكم وَكبـا

أما في شتم العذول الذي بسببه كان الصدود والبعد ، فكان ما به من الصبر والانتظار بسببه ، يقول[٥]:

ومـن عـذول دنـيء لا خَـلاق لَـهُ أَدنـى إِلـى اللـوم مـن طرفٍ إِلـى وَسـنِ

أَضـحى يشـرّدني عمّـن كلِفـتُ بِـهِ ظُلمـاً فَكـانَ عَلـى الحـالين شـرّدني

كَـلَّ اِصـطباري لمـا كُلِّفـتُ منـه وَقَـد عـدِمتُ صـبري وَعَزمـي حـين كلّفنـي

---

(١) الديوان :١٨٨.

(٢) الديوان :١٨٩.

(٣) الديوان :١٨٨.

(٤) الديوان :١٩٤ ، ١٩٥.

(٥) الديوان :١٨٩.

ويقول في قصيدة أخرى موبخاً العذول ، واتهامهم بالجهل[١]:

ســـقِمتُ لقـــرب العـــاذلين وَجهلهـــم فَـــلا طـــرفُ إِبـــلال وَلا قلـــبُ إِلبـــابِ

فقرب الأعداء – وهم العذّال – وبعد أحبابه يزيد ويعمق عليه الحزن والمعاناة ، يقول[٢]:

تَطـــابق عِنـــدي الحـــزنُ لمّـــا هجـــرتمُ بقـــرب لأعـــداء وَبعـــد لأحبـــابِ

وقد قال قصيدة كاملة في العذال ، بدأها[٣]:

إِذا صَحَّ لـي منـك الرضـى ضـعُفَ العذلُ وَمـا مَـرَّ مِـن قَـول العَـواذِل لا يَحلـو

ويبن في تلك القصيدة أصعب ما يقوله أولئك العذال ، وهو تخويف المحبوب من الهوي والحب وقولهم: أن الهوي ليس سهل، يقول[٤]:

وَأَصـــعبُ مِـــن لـــوم العَـــواذِلِ قـــولهم هوَ الحُبُّ فاِسلم بِالحَشا ما الهَوى سهلُ

وفي نهاية قصيدته يدعو لأحبابه بالقرب ، وطيب الأخلاق[٥]:

لا أَبعـــد اللّـــه أَحبـــابي الَّـــذين شـــرَوا رقّ المحـبّ بمـا اِختـاروا مِـن الـثَمنِ
وَلا عـــدمت لَيـــالي وصـــلهم فَبِهـــا مرحتُ وَهيَ شَبيهُ الروض كالغصُنِ
طابَـت خَلائقُهـم مـن صَـفوها فَغَـدت تُعزى إِلـى عدنَ دَع تُعزى إِلـى عدَنِ

وفي الخاتمة يظهر ما يمده ظل المحبوب من القوة والقدرة على المرض ، والعيش بأمان ، يقول[٦]:

كَـم قَـد تغطّيـت مـن دَهـري بظلّهـمِ فعدت لَـو رام منّـي السوء لَـم يرنـي
وعـدت لا أَختشـي فـي الـدهر مـن سـقمٍ إِذ لَـيسَ يـدرك جسـمي نـاظر الـزمنِ
سَـكَنتُ لَيـلَ أَمـانٍ فـي ظـلال رضـىً فَلَـم تَـذُق كـأسُ طَرفـي خمـرةَ الوسـنِ

---

(١) الديوان :١٩١.
(٢) الديوان :١٩١.
(٣) الديوان :١٩٥.
(٤) الديوان :١٩٥.
(٥) الديوان :١٨٩.
(٦) الديوان :١٨٩.

وفي قصيدة أخرى يدعو على من يتمنى ويهوى فراق أحبيته بأن يكون فداء للذي يحب اجتماعه بأحبابه ، يقول[1]:

فَليــت الَّــذي يَهــوى فــراق أَحبّتــي فدىً لِلَّذي يَهوى اِجتِماعي بأَحبابي

وفي قصيدة أخرى يبين أن حبه وغزله هو عذري ، فليس للمحبوب عذر في جفاء المتيم، ويتمنى لقاء الحبيب ساعة، أو بعض ساعة، يقول[2]:

فَمــا لَــكَ عــذرٌ فــي جَفــاء متــيّمٍ أَقامَ عَلى ما سنّ شرع الهَوى العذري

فَســاعَةُ وَصــلٍ منــك بَــل بَعــضُ ســاعةً أَودُّ شِــراها لَــو تيسّــر بــالعمرِ

أما الموشحات فكان غرضها غالباً الغزل ، فقد نظم ابن حجر سبع موشحات، يصف فيها حاله بسبب صدود المحبوب ، ويظهر ما يصنع به الهوي، فيقول[3]:

سَــقِمتُ مِــن بُعــدِكُم فَعــودوا مــا عَلــى مُحســنٍ جُنــاح

عَشِــقتُ بَــدراً بِــلا سِــرار أَفلَحــتُ فــي حُبّــهِ فــلاح

بَـدرٌ أَنـا فـي الهَـوى شَـهيدُه * مّـا بسـيف الجُفـون صـال

فَطَرفُــهُ وَالجَفــا وَجيــدُه * مــاضٍ وَمســتقبلٌ وَحــال

لَــو صــدقَت باللقــا وَعــودُه * مــا علّــلَ القَلــبَ بِالمُحــال

ويقول في موشحته الثانية[4]:

فالوصــف لــن يمثلــك لكــلِّ صــبٍّ يشــعرْ

بــالطيف قــد وعــدتني * كيــف وطرفــي مــا هجــعْ

---

(١) الديوان :١٩١.

(٢) الديوان :١٩٧.

(٣) الديوان :٢٢٧.

(٤) الديوان :٢٢٩,٢٣٠.

وســـــار مـــــذٌ فـــــارقتي * وراك قلبـــــي فـــــانقطعْ

فارحمـــه فهـــو قـــد فنـــي * وانظـــر لـــه فيمـــا صـــنعْ

فإنـــــــه فيـــــــك هلـــــــك ومسَّـــــــه منـــــــك الضـــــــرّ

جننـــت مـــن يـــوم النـــوى * فـــارحمْ ســـلمت مصـــرعي

وبـــــان مكتـــــوم الهـــــوى * مـــذُ بـــلَّ جفنـــي مـــدمعي

ولـــيس لـــي عـــيشٌ ســـوى * إن مـــرَّ محبـــوبي معـــي

وقد يختم موشحته ملغزاً اسم محبوبته، فيقول[1]:

مـــن لـــي بســـمرا كبـــدرِ التمـــام * فـــي الابتســـام

صـفتْ فـألغزت اسـمها فـي ختـام * هـذا النظـام

وقلـــت يـــا قلبـــي يـــا مســـتهام * مـــن الغـــرام

بادر إلى اللذات في ذا الأوان فالوصـــــل دان قد صفا الوقت وراق الزمان

وقد نظم موشحته السادسة متشوقاً لأهله وبلده مصر، ويبين حاله في العيد إذ مرَّ عليه حزيناً كئيباً بسبب بعده عن الأحباب، وفيها يفتخر ببلده مصر، ويرد النقص الموجه إليها بدنو المكانة فهي الأدنى إلى قلبه، متمثلاً في هذا المضمون معاني القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ . . . قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ . . . ﴾[2]، فيقول[3]:

أَعِـــــن مؤمِنـــــاً صَـــــبّا عَســـــى تنفـــــع الـــــذكرى

فَقيـــدُ الصـــبر مَفقـــودُ * مـــن الأَهلـــينَ وَالأَصـــحاب

سَـــقيمٌ عـــادَه عيـــدُ * أَســـىً مـــذ فـــارَقَ الأَحبـــاب

لَـــهُ فـــي القـــرب تَبعيـــدُ * فَمـــا الظَـــنُّ بِـــهِ إِذ غـــاب

---

(١) الديوان :٢٣٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

(٣) الديوان :٢٣٥.

جَفَـــــــــت وُدّه القُربـــــــــى وَلَـــــم يَســـــأل الأَجـــــرا

دِمَشـــقُ الغـــادَةُ الحَســـنا * لوصـــف النهـــر بِالصَـــبِّ

عَلـــى مِصـــرَ زَهَـــت حُســـنا * وَلكـــن مَـــوطني حســـبي

وَقـــالوا إِنَّهـــا أَدنـــى * نعـــم أَدنـــى إِلـــى قَلبـــي

وَقَـــــد ســـــأَلوا الرّبّـــــا فَقَـــــال اِهبطـــــوا مصـــــرا

وفيها مدح شيخه وقاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدمي[1]، فذكر مناقبه وأشاد بها ومدح علو مكانه ، وسموِّ منزلته، يقول[2]:

علـــي القـــدر والمعنـــى * فكـــم عـــن نـــازلٍ أغضـــى

ســـما فضـــلاً همـــى مزنـــا * ولمـــا أن ســـما أرضـــا

فيـــا نعمـــاه مـــا أهنـــا * وسـيف العـزم مـا أمضـى

هـــــدى وحبـــــا صـــــحبا فكـــــم مـــــن طالـــــبٍ يقـــــرا

وقد بدأ موشحته السابعة بمقدمة غزلية وانتقل بعدها إلى مدح فضل الله ابن مكانس، فتراه يقول[3]:

قلبـــي لـــلّاح مـــا ارعـــوى * ولا أطـــــاع النـــــاهي

ولا معينـــي فـــي الهـــوى * إلا الخليـــــع اللاهـــــي

ولا يســـــليني ســـــوى * مـــــديح فضـــــل اللهِ

معتـــق رقـــي مـــن جـــوى * فيـــه الحـــديث واهـــي

لـــولا الـــولا حـــين أعتـــق والمـــدح فيـــه شـــعاري

---

(١) ابن الأَدَمي (٧٦٨ – ٨١٦ هـ = ١٣٦٦ – ١٤١٣ م) علي بن محمد بن محمد، أبو الحسن، صدر الدين ابن الأدمي: قاض، من الشعراء الكتاب المترسلين. مولده ووفاته في دمشق. باشر كتابة السر في دمشق ثم قضاءها. وجُمع له في دولة المؤيد بين القضاء والحسبة.(الأعلام : ٧/٥)

(٢) الديوان :٢٣٦.

(٣) الديوان :٢٣٧، ٢٣٨.

الأغراض الأخرى

أولاً / الرثاء:

يعد فقد الأحبة من الأمور التي تعمل على تدفق الاحساس الفطري الصادق ، فالإحساس بالحزن والأسى والتفجع لما ألمَّ بالإنسان من مصيبة فقدان الأحبة على قلبه ، هو أصدق إحساس.

فقد رثى أخته ست الركب، وأظهر فيها الألم والتوجع، فيطلب من رفاقه أن يتأملوا حاله الذي عجز عن الوصف، ويطلب منهم أن يشاركوه البكاء، مع علمه بأنها لا تشفي بل تزيد من الأحزان، ويظهر التسليم بقضاء الله وقدره متمثلاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[1]، يقول في مطلعها[2]:

قِفا تريا حالاً تجلّ عَن الوصف ... وَقوما اِنظرا شمسَ الضُحى وَهيَ في
وَجودا مَعي فَضلاً بفيض مَدامِعٍ ... وَإِن كانَ دَمعُ العين يُشجي وَلا يشفي
وَلا تَعجَبا أَنّي أَموتُ تلهّفاً ... بَلى إِن أَعِش من غير لَهفٍ فَيا لَهفي
إِلى اللَهِ إِنّا راجِعونَ وحسبنا ... وَنِعمَ الوَكيلُ اللَهُ ذو المنّ وَاللُطفِ

ويبين علام يتفجع ويبكي ، ويذكر صفات شقيقته[3]:

بَكيتُ عَلى تلك الشَمائل غالَها ... كَثيفُ الثرى بَعدَ التَنعّمِ وَاللُطفِ
بَكَيتُ على حلم وعلم وَعِفّةٍ ... تقارنُ مع عِزّ الهُدى هزّةَ الطرفِ
بَكيت عَلى الغصن الَّذي اِجتُثَّ أَصلُهُ ... وَلَم أَجنِ من أَزهارِهِ ثمرَ القَطفِ
بَكيت عَلى دينار وَجهٍ مَلَكتُهُ ... فَعاجَلَني فيهِ التفرّقُ بِالصَرفِ

فما يبكيه هو شمائل ومناقب أخته التي اتصفت بها من حلم وعلم وعفة.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٥٦.
(٢) الديوان : ٢٢٣.
(٣) الديوان : ٢٢٤.

ويؤكد على إيمانه بقضاء الله ، واستسلامه له متمثلاً معاني القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] يقول[2]:

أَتَـــى أمـــرُ رَبّـــي مَرحَبـــاً بِقَضـــائِهِ فَسُبحان مؤويها من الخلد في كهفِ

ويدعو لها بالرحمة وعفو من الله – عز وجل–[3]:

سَـــــلام وَرضـــــوان وروح وَرَحمَـــــةٌ عَلَيكَ مِنَ الرَحمَن ذي الجود وَالعَطفِ

وقال قصيدة مطولة يرثي فيها شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني[4]، قال في أولها[5]:

يـا عَـينُ جـودي لِفَقـد البحـر بـالمطرِ أَذري الـــدُموع وَلا تُبقـــي وَلا تَـــذَري

لَـــو رَدَّ تَرديـــدُ دَمـــعٍ ذاهِبـــاً سَـــبَقَت شـــهبٌ وَجَمـــرٌ بِعَينـــي جريـــةَ النَهـــرِ

تســقي الثــرى فَمَتــى لامَ العــذولُ أَقُــل دَعهـــا ســـمائيّةً تَجـــري عَلـــى قـــدرِ

فهو يطلب من عيناه أن تذرفا وتجودا بالمطر ليبين أثر المصاب الجلل في فقدان شيخ الإسلام البلقيني.

ويدعو له بالرحمة، ويذكر فضائله ومناقبه فهو بحر العلوم الذي لا تكدر صفوه المسائل، وهو الحبر –العالم– الذي كتب بيراعته الكثير من الكتب، يقول[6]:

فَرَحمَـــةُ اللَـــه وَالرضـــوانُ يَشـــملهُ سـلامه مـا بَكـى بـاكٍ عَلـى عمـرِ

بحـــر العُلـــوم الَّـــذي مـــا كَدَّرَتـــه دِلاً مِـــنَ المَســـائِل إِن تُشـــكِل وَإِن تـــدُرِ

---

(١) سورة النحل: آية ١.

(٢) الديوان : ٢٢٤.

(٣) الديوان : ٢٢٥.

(٤) البُلْقِيني (٧٢٤–٨٠٥هـ=١٣٢٤–١٤٠٣م) عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعيّ، أبو حفص، سراج الدين: مجتهد حافظ للحديث، من العلماء بالدين. ولد في بلقِينة (من غربية مصر) وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة ٧٦٩ هـ وتوفي بالقاهرة. (انظر ترجمته في جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): طبقات الحفاظ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٣ ص٥٤٢، الأعلام ٤٦/٥)

(٥) الديوان: ٢١٤,٢١٥.

(٦) الديوان: ٢١٥.

وَالحبــر كــم حبّــرَت طِرســاً يَراعتُــهُ حَتّــى يُجــانسَ بــين الحِبــر وَالحِبَــرِ[1]

ويقارن بينه وبين عمر بن الخطاب، فكلاهما كان سببٌ في إحياء الدين، وقد اجتمعا في الاسم والعلم والتقوى، ولكن افترقا في العصر والعمر[2]:

فــي القــرن الأَول والقــرنِ الأَخيــرِ لَقَــد أَحيــا لَنــا العمــران الــدينَ عــن قــدرِ

فــي الإِســم والعلــم وَالتَقــوى قَــد اِجتَمعــا وَإِنّمــا اِفترَقــا فــي العصــر والعمــرِ

وقد ضمَّن قصيدته رثاء شيخه زين الدين العراقي[3]، يقول[4]:

نَعَم وَيــا طــولَ حُزنــي مــا حَييــت عَلــى عبــدالرَحيم فحزنــي غيــر مقتصَــرِ

لَهفي عَلى حافِظ العصر الَّذي اِشتهرت أَعلامُــه كاِشــتِهار الشمس فــي الظهُرِ

علمُ الحَديث اِنقَضى لمّا قَضى وَمَضى وَالــدهر يَفجَــعُ بعــد العــين بــالأثرِ

ويبين مكانة شيوخه في نفسه، فهم أعز لديه من سمعه وبصره[5]:

لَهفــي عَلــى فَقَــد شــيخيَّ اللَّــذَينِ همــا أَعَــزُّ عنــديَ مِــن سَمعي ومــن بصــري

ومن أغراضه إجابته عن لغز (السيف) الذي أرسله إياه مجد الدين بن مكانس، يقول فيها[6]:

أَمــولايَ مَجــدَ الــدين وَالبــارعَ الَّــذي لَــهُ الفَضــلُ إِن صــاغ القَــريضَ قَــرينُ

فُتِنــتُ بِلُغــزٍ منــك تَصــحيفُ عكسِــهِ فَتــىً بَــثَّ شَــكوى وَالحَــديثُ شُــجونُ

وَشــنَّفَ سَــمعي حــينَ أَعجمــتُ أَوّلاً لَــــهُ ولأن العــــينَ عِنــــدي نــــونُ

---

(١) بين (الحِبر) و(الحِبَر) جناس، الأولى بمعنى المداد، والثانية بمعنى الجمال وحسن الهيئة.

(٢) الديوان :٢١٥.

(٣) الحافِظِ العِراقي (٧٢٥ – ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ – ١٤٠٤ م) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي، من كبار حفاظ الحديث.(انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ٣٤٤).

(٤) الديوان :٢٢٠.

(٥) الديوان :٢٢٠.

(٦) الديوان :٢٠٥.

ويبين في إجابته أوصاف السيف[1]:

إذا قَلَّبـــوه لِلشِّـــرى قِـــيسَ طولُـــهُ ... لَدى العَرض في الأَسواق وَهوَ ثَمينُ

يَمــانٍ وَفــي قَــيسٍ لَــهُ مَــدخَلٌ وَكَــم ... ظهــور لـــه فـــي قَومِـــهِ وَبطـــونُ

وَسَـــوف تَـــراه بَعـــد تغييـــر قلبـــهِ ... وَإِن عُـــدتَ لِلتَغييـــر كَيـــفَ يَكـــونُ

وَأَحرفُـــه أَضـــحَت تُعَـــدُّ ثَلاثَـــةً ... وَمــن قــال بَــل حــرفين لَــيسَ يَمــينُ

وَفــي عَكــس ثلثيــهِ دَليــلٌ عَلــى الَّــذي ... أَشَـــرتُ إِلَيـــهِ وَالبَيـــانُ يُبـــينُ

ومن شعره أيضاً كتب يقرع خائناً ائتمنه ، فخانه أشد خيانة ، ثم عاد ليطلب ودّه ويستسمحه، يقول[2]:

أَســـتَغفِرِ اللَـــه لا ديـــنٌ وَلا حســـب ... لِخـــائِنٍ غـــدرَه الإِخـــوانُ مـــا حَسِـــبوا

خـــانَ الأَمانَـــةَ وِاســـتَنَّ الخِيانـــة وِاس ... تَثنـــى الدِيانـــة جـــانٍ ثمـــرهُ العطـــبُ

أصـــيب فـــي عَقلِـــهِ بـــالعَين إِذ لمعَـــت ... فَقَـــال قَـــد ذهـــب المَحصـــول وَالـــذَهبُ

وَعـــاجَ يَطلُـــبُ عَـــودَ الـــودِّ مُعتَـــذِراً ... بِزَعمِـــهِ فـــي بُيـــوت ركنُهـــا خـــربُ

ويقول غير مرحباً بعودته وطلب وده، لأنه خدع إنساناً قلبه سليم ، فهو لم يربح إلا الخزي ، وينكر عليه مدى إصراره في ارتكاب ذنبه القبيح، يقول[3]:

لا مَرحَبـــاً بِـــكِ يـــا غَـــرارَةً خَـــدعَت ... بِالنُســـك قَلبـــاً سَـــليماً غَـــرَّهُ الأَدبِ

وَباعَـــتِ الـــدين بِالـــدُنيا فَمـــا اِكتَســـبَت ... رِبحاً سِوى الخزيِ بئسَ الربحُ يكتسبُ

وَمـــا اِكتفـــت بِقَبـــيح الـــذنب تصـــنعُهُ ... حَتّـــى أَصـــرَّت عَلَيـــه حـــينَ تَرتَكِـــبُ

وفي إجلاله لأخلاق الترك فقد أقصى ذلك الخائن منهم، يقول[4]:

وَصـــرتُ فـــي دَيلَـــمٍ ملقـــىً لأجـــل فَتـــى ... مـــا كـــانَ لِلتُـــركِ يَومـــاً قَـــطُّ يَنتَسِـــبُ

---

(١) الديوان :٢٠٦.

(٢) الديوان :٢٠٧.

(٣) الديوان :٢٠٧.

(٤) الديوان :٢٠٨.

وينكر أن تكون الخيانة من أخلاق الأتراك[١]:

أَلَيسَ يَكفيكَ مِنّي التَركُ قل لي هَل هَذا صَنيعُ اِمرِئٍ لِلتُّركِ يَنتسبُ

ويتساءل ما هو العذر لمن يجحد النعمة ويخون صاحبها ، فإن قال بأن قدر الله ، فأيضاً الضرب والسجن عليه مكتوب، ولكن الأطماع هي سبب غدره، يقول[٢]:

يا ليت شعريَ ما عُذرُ اِمرِئٍ جحَدَ النـ نُعمى وَقابلَها مِن ضدِّ ما يَجبُ

أَيَزعم القدر المَكتوب أَوقعه فالضَرب وَالحبس أَيضاً فيهِ مُكتَتَبُ

وَاللَه لا عُذرَ إِلّا الغَدرُ صَحَّفَهُ قَلبٌ عَن الحقّ للأَطماع مُنقَلِبُ

ومن قصائده ما شكا بها من بعض أصدقائه، قال قصيدة مطلعها[٣]:

إِلى اللَه أَشكو ما لَقيتُ مِنَ الدُجى وَمن سوءِ حَظّي في الظَلام إِذا سَجا

يَمُدُّ رواقاً وَالنُجوم كَأَنَّها مَساميرُ في سقفٍ له قَد تَبَهرجا

ويبين سبب شكواه وهو خلف وعدهم[٤]:

وَأَضرمَ ناراً في الحَشا خُلفُ وَعدِهم فَمِن ذي وَذا لَم أَلقَ أَوهى وَأَوهَجا

ويقول في هجائه [٥]:

وَيا صاحبي لَم أَلقَ إِلّا بَهائِماً فَلا تلحَني إِن رحتُ أَنحرُهُم هِجا

وَلا تنهَ نظمي في اِنتهاجِ هِجائهم فَما زالَ قَولُ الحقّ أَنهى وَأَنهَجا

وَأَلجِم لِساناً قَد سَرى مدحه لَهم وَإِن كانَ ذاكَ المَدحُ أَسرى وَأَسرَجا

ويقول مؤكداً ذمهم بما يشبه المدح[٦]:

وَلا عيب فيهم غيرَ إِفراط شحّهم فَلَيسوا يُهنّون المَكارِمَ مِحوجا

---

(١) الديوان :٢٠٨.

(٢) الديوان :٢٠٨.

(٣) الديوان :٢١١.

(٤) الديوان :٢١١.

(٥) الديوان :٢١٢.

(٦) الديوان :٢١٢.

ويقول متوعداً اياهم[١]:

سـأَجمَع فـي ذمّ الزَمـان وَذمّهـم كَجمـع أَبـي جـادِ الحـروفَ مـن الهجـا

وَحقّـيَ لَـو أَنّ الزَمـان مُسـاعِدٌ بِـأَتّي عـنهم أَلتَقـي سـبلَ النَجـا

ومن قصائده ما سأل به قاضي القضاة جلال الدين أن يساعده في تحصيل الإجازة له بالفتوى والتدريس من شيخ الاسلام، فيقول في أولها[٢]:

مَعـالٍ جـازَت الجَـوزا جَـوازا وحسـنٌ قَـد حَـوى الحسـنى وَجـازا

وَكَعبَـةُ مَكرُمـاتٍ قَـد تَجَلّـت فَلَـم يَـرَ دونهـا الراجـي حِجـازا

وَمـا قاضـي القَضـاة سِـوى فَتـىً لا تَـرى عنـد الفخـار بِـهِ اِعتيـازا

جَـلالُ الـدين وَالـدنيا الَّـذي قَـد سَـما الأَقـرانَ عِلمـاً وِاعتِـزازا

وبعد مدحه يطلب منه الاجازة بقوله[٣]:

وَجـائزتي الإِجـازَة مِـن إِمـام سـما للأفـق فَضـلاً وَامتِيـازا

وَقَـد فـاقَ الـوَرى بـالحقّ فَضـلاً وَمِـن سـتين عامـاً لا يـوازى

فَقَـد أَسـلَفتُ شُـكري وِامتِـداحي وَحَقّـي أَن أُثـاب وأن أُجـازا

---

(١) الديوان :٢١٢.

(٢) الديوان :٢١٣.

(٣) الديوان :٢١٤.

القطع الشعرية:

أما القطع الشعرية فقد تنوعت أغراضها بتنوع المواقف التي استدعتها ، وتنوع خواطر الشاعر، وتنوع الحالة النفسية التي مرَّ بها.

- فكان من أغراضه في القطع: الغزل فقد كانت كثير من قطعه في الغزل ، فمثلاً يقول يصف حاله في وصال الاحبة وكذلك حال الحسود الذي تفتت قلبه عند وفائها[١]:

محبـــــــــوبتي واصـــــــــلتني فـــــالهمُّ عنِّـــــي تشـــــتَّتْ

وذاب قلـــــــــب حســـــــــودي لمـــــــا وفـــــت وتفتـــــــتْ

ويذكر قناعته من الأحبة باليسير فيقول[٢]:

وقـــالوا قـــد هجـــرتم بـــدور تـــمٍّ لأهيـــف لـــيس بـــالقمر المنيـــرِ

فقلـــــت قناعـــــةً منـــــي لأنـــــي رضـــيت مـــن الأحبـــة باليســـيرِ

- وفي شكوى من صاحب خداع، أخطأ في تقدير حبه له، فقد كان يعدّه سيفاً على الزمان، فحدث ما كان لكن عليه، فيقول[٣]:

لـــي صـــاحب أخطـــأت فـــي ودِّه ولـــيس يخلـــو بشـــر مـــن غلـــطْ

أعـــددت منـــه فـــي العـــدا صـــارما فكـــان لكـــن لـــودادي فقـــط

- ويقول واصفاً ما أصابه من سقم هدّ ضلوعه وأركانه، فيقول[٤]:

أشـــكو إلـــى الله مـــا بـــي ومـــا حوتـــه ضـــلوعي

قـــد طـــابق الســـقم جســـمي بنزلـــــــــةٍ وطلـــــــــوعِ

ويقول أيضاً[٥]:

---

(١) الديوان :٢٣٩.

(٢) الديوان :٢٤٣.

(٣) الديوان :٢٤٠.

(٤) الديوان :٢٤١.

(٥) الديوان :٢٦٠.

أشكو إلى الله من هذا الزمان ومن هذا السقام الذي حلَّ في بدني

مما أقاسيه رقَّ الكون لي ورثى وما رثى لي سقامي بل ولا زمني

- أما في الألغاز ، فتراه ينظم مقطوعة ملغزاً فيها (اسماعيل)[١]:

لي عام ساء قلبي فيه بعدي عن حبيبي

أضمر القلب اسمه عن كل لاح ورقيب

وقال ملغزاً في(قاسم) [٢]:

سلب العقل بدرُ تمَّ جميل ما ألاقي من جوره ليس يخفى

قلبه نعته إذا رخَّموه وهو اسمٌ إن أسقطوا من حرفا

- وفي حسن التعليل[٣] ، يقول[٤]:

قامة ذا الشيخ ما حناها إلا لمعنًى به تحقق

كأنه فكر المُعنَّى في سوء أفعاله فأطرق

فيرى أن سبب انحناء ظهر الشيخ الكبير هو أن تعب وهمٌّ كبير ألمَّ به ، فكأن هذا التعب الشديد قد أغضبه سوء أفعال هذا الشيخ ، فأطرق ظهره فانحنى.

وتجد في الزهد قوله[٥]:

خليليَّ ولَّى العمرُ ولم نتبْ وننوي فعل الصالحات ولكنَّا

فحتَّى متى نبني بيوتاً مشيدةً وأعمارنا منا تُهدُّ وما تبنا

---

(١) الديوان :٢٤٢.

(٢) الديوان :٢٦٢.

(٣) وهو أن يدعي المتكلم علة للشيء غير علته الحقيقية على جهة الاستطراف لتحقيقه وتقريره، وذلك لأن الشيء إذا كان معللاً كان آكد في النفس وأرسخ من إثباته عن التعليل. (من بلاغة القرآن، محمد علوان، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م ، ص ٢٧٥).

(٤) الديوان :٢٤٢.

(٥) الديوان :٢٥٦.

ففي هذه المقطوعة يوجه نصيحة بأن العمر ماضٍ وفانٍ ، ويخاطب نفسه بأن الأيام تمرُّ ولم نلحق بركب التائبين، ويستغرب حال الإنسان في اهتمامه في بناء البيوت القصور في الدنيا ولكن عمره في نقصان ولم يتب.

وفي الحث على الإسراع في التوبة يقول[1]:

أخي لا تسوف في المتاب فقد أتى نذيرٌ لا يفارقه الهمُّ

وإن فتى من عمره أربعون قد مضت مع ثلاثة عدُّها عمر جمُّ

وفي هذه إشارة إلى أنه قد أمضى من عمره ثلاث وأربعون عاماً.

ويقول أيضاً[2]:

لقد آن أن نتقي خالقاً إليه المآب ومنه النشورُ

فنحن يصرف الرَّدى مالنا جميعاً من الموت واقٍ نصيرُ

ومواضيع مقطوعاته كثيرة بعدد قطعه حيث بلغ عددها مائة وستون مقطوعة.

---

(١) الديوان :٢٥٧.

(٢) الديوان :٢٥٧.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

- بناء القصيدة.
- الأسلوب واللغة.
- الصورة الشعرية .
- الموسيقى الشعرية

بناء القصيدة

البناء هو هيكل القصيدة الذي يعد الأسلوب الذي يختاره الشاعر لعرض الموضوع، وهو أهم عناصر القصيدة، إذ هو العمود الذي ترتكز إليه العناصر الأخرى[١].

ويرى بعض النقاد أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى صورته الجاهلية غامضة ، كما يرى الدكتور شوقي ضيف : " فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارًا صفيقًا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى؛ فلا نكاد نعرف من ذلك شيئًا"[٢].

ويرى بعض النقاد أن أول ما كان عليه الشعر العربي كان مقطوعات وأبيات يقولها الشاعر في مناسبة أو حاجة له ، ومن هؤلاء ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء : " وَلم يكن لأوائل العرب من الشّعر إِلَّا الأبيات يقولهَا الرجل في حاجته وَإِنَّمَا قصدت القصائد وَطول الشّعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد منَاف"[٣].

ومن ذلك قول ابن قتيبة : " لم يكن لأوائل الشعراء إلّا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة"[٤].

ثم أصبح للشعر الجاهلي نظاماً وبناءً يسير عليه الشعراء، ولعل أول من فتح الباب في هذا المجال من النقاد هو ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء الذي حدد بناء القصيدة العربية ، فهي تبدأ بمقدمة طللية، يذكر فيها الديار والدمن والآثار ، ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو من شدة

---

(١) انظر : نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر ، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) شوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف، د.ت ، ص١٨٣.

(٣) محمد بن سلّام الجمحي (المتوفى: ٢٣٢هـ): طبقات فحول الشعراء ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، طبعة دار المدني، جدة، د.ت ، ٢٦/١.
وفي ترجمة ابن قتيبة لمهلهل بن ربيعَة هُوَ عدي بن ربيعَة. وَسمي مهلهلاً لِأَنَّهُ هلهل الشّعْر أَي: أرقه وَيُقَال: إِنَّه أول من قصد القصائد (الشعر والشعراء : ٢٩٧/١)

(٤) ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، ١٠٤/١.

الوجد وألم الفراق ، والشوق ، والغرض من ذلك ليميل نحوه القلوب ، ثم إذا استوثق من الإصغاء إليه ، ثم ينتقل إلى الشكوى من النصب والسهر ، والسفر في الليل وحر الهجير ، ثم ينتقل إلى الغرض الرئيس وهو المديح ، فنورد ما قاله ابن قتيبة:" سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصّد القصيد إنما ابتدأ فيه بذكر الديار والدِّمن والآثار؛ فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن، على خلاف ما عليه نازلة المدر؛ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم واصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق؛ ليُميل نحوه القلوب، ويَصْرِفَ إليه الوجوه، وليَسْتَدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التّشبيبَ قريبٌ من النُّفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء؛ فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق؛ فرحل إلى شعره وشكا النصب والسهر، وسهر الليل، وحر الهجير وإمضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، ودمامة التأمين، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزه إلى السماح وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل"[1].

ثم أوجب ابن قتيبة على الشعراء أن يلتزموا هذا النظام ، كما حرم على المتأخرين التحلل منه ، فيقول : " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدَل بين هذه الأقسام؛ فلم يجعل واحدًا مِنها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيمل السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظمآء إلى المزيد. وليس لمتأخِّرِ الشعراء أن يخرُج على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقفَ على منزل عامر، أو يبكي على مشيد البنيان؛ لأنّ المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأنّ المُتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري؛ لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي أو يقطع إلى الممدوح منابت من النرجس والآس والورد؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة"[2].

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٧٤,٧٥/١.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٧٥/١-٧٧.

وبناء على ذلك كانت القصيدة العربية تتضمن في جنباتها أغراض وموضوعات عدة، ما جعلها متهمة بخلوها من الوحدة الموضوعية، ولكن هذا الاتهام سفهه وحطَّ من شأنه بعض النقاد مستندين إلى النظام الذي وضعه ابن قتيبة في بناء القصيدة العربية، حيث أن الشاعر كان يتصور عمله وحدة متصلة الأجزاء ، يسلم الواحد منها إلى صاحبه ، ويتقدم بعضه بعضاً ؛ لأن ذلك هو الترتيب الطبيعي ، فلم يكن يعتقد أن قصيدته أخلاطاً متفرقة لا توافق بينها ولا انسجام.

وقد بين طه حسين أن إنكار الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة منشؤها الافتتان بالأدب الأوروبي الحديث، والقصور عن تذوق الأدب العربي القديم ، وعدم دراسته كما ينبغي وتصديق كل ما يقال لهم من الكلام من غير تحقيق ولا استقصاء ، كذلك قبولهم ما يقوله الرواة في غير تحفظ.

وخلاصة ما وصل إليه طه حسين: أن القصيدة العربية القديمة جاءت ملتئمة الأجزاء قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله، لا يأتيه الاضطراب والاختلاف[١].

وقد انتشر النقاش حول وحدة البيت ، فلم تعرف وحدة القصيدة إلا في الندرة ، وقد عدُّوا اتصال بيت بما قبله أو بما بعده ، عيباً يزرى بالشعر وصاحبه ، وسمَّوه التضمين، وربما الشيء الوحيد الذي عنوا به حسن التخلص من موضوع إلى موضوع [٢].

(١) أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر للطباعة، ١٩٩٦، ص ٣١٩- ٣٢٢.

(٢) شوقي ضيف : في النقد الادبي ، دار المعارف، الطبعة التاسعة، القاهرة ، د.ت ، ص١٥٥.

بناء القصيدة عند ابن حجر

في قصائد المدح النبوي فترى في مدائحه السبعة للمصطفى – صلى الله عليه وسلم – أنه سار على نهج المادحين القدماء ، من أمثال كعب بن زهير في بردته ، والبوصيري ، فبدأ بالتغزل ، ولوم العواذل، وشدة الشوق ، ولوعة الوجد ، لكن المقدمة الغزلية لم يكن لغرضه ومعناه، وإنما لإبراز وتأكيد مدى شوقه وحبه للمصطفى–صلى الله عليه وسلم– كما بينته في موضعه.

وكان انتقال ابن حجر من النسيب إلى غرضه الأساسي في مدح الحبيب انتقالاً سلساً فتكاد لا تشعر بالفجاءة في الانتقال.

أما أساس القصيدة في المدح النبوي ، فكما بينت في موضع سابق الموضوعات التي طرقها ابن حجر من ذكر ارهاصات مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ، ومآثره ، ونسبه ، والثناء على من نصره من أصحابه ، وغيرها.

أما غرضه من مدح النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما رجاءً فيما خصَّ الله نبيه من الشفاعة ، فتراه يتوسل لطلب شفاعته يوم القيامة .

وأغلب ما تختم به قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر الصلاة على الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم– ، من أمثال ذلك ما ورد في مدحته الأولى[1]:

ثُـــمَّ الصَـــلاةُ عَلـــى النَبـــيِّ فَإِنَّـــهُ يُبـــدا بِـــهِ الـــذِكرُ الجَميـــلُ وَيخـــتَمُ

يـــا أَيُهـــا الراجـــونَ خَيـــرَ شَـــفاعَةٍ مِـــن أَحمَـــدٍ صَـــلّوا عَلَيـــهِ وَسَـــلِّموا

(١) الديوان: ١٠٤ .

أما في المدائح **(الملوكيات والأميريات)** سار ابن حجر على طريقته في المدائح النبوية في المقدمات الغزلية التي تتدفق عذوبة، وسهولة، فيذكر ألم الفراق، وذكر الطيف، ورعيه النجوم، ويذكر سهاده، وأرقه، والدعوة بالسقيا على عادة القدماء، مثل قوله[١]:

ســـقياً لِعَهـــدِكَ مِـــن دمـــوع شُـــبِّهَت لـــــولا ملوحتُهـــا بِغَيـــث منـــزَّلِ

وقوله[٢]:

سَـقى اللّـه أيّـام اِبـن عَبّـاس إنَّهـا بَواسِـمُ بِـالأَفراح يـأوي الغنـى لهـا

وقد يكون هذا الغزل حسي لكنه عفيف كما في القصيدة الخامسة والسادسة في الملوكيات، وقد يبدأ قصيدته بالمدح مباشرة دون مقدمة غزلية كما في قصيدته السابعة في الملوكيات

ثم ينتقل بكل سلاسة لمدح صفات وأخلاق ممدوحه ويظهر ذلك بحسن التخلص الذي لا يظهر لنا في الانتقال الفجائي ومن أمثال ذلك ذكر بلدة المحبوب أرض الميقات بالنسبة لأهل اليمن[٣]:

ولمّـــا أَلَمّـــوا فـــي السُـــرى بـــيلملمٍ لأجســادهم إحرامُهـا قَـد حَـلا لَهـا

ومن حسن التخلص جعل الإشادة بصفات ممدوحه تبدل ملوحة دموعه، وتجد ذلك في قول ابن حجر[٤]:

ســـقياً لِعَهـــدِكَ مِـــن دمـــوع شُـــبِّهَت لـــــولا ملوحتُهـــا بِغَيـــث منـــزلِ

صِـــلني تُبَـــدَّل مِـــن أجـــاجِ مَـــدامعي بِنـدى المَليـك الأَشـرفِ بـن الأَفضَـلِ

ومن حسن التخلص استخدام أسلوب القصر في تخصيص صفة الكرم ومساعدة الناس والتفضل عليهم ومن ذلك قوله[٥]:

مُجاهِـــدُ نَفســـي لا أَرى متفضّـــلاً سوى الأَشرف بن الأَفضل بن المجاهِدِ

---

(١) الديوان:١٣٥ .
(٢) الديوان:١٤٤.
(٣) الديوان:١٤٢.
(٤) الديوان:١٣٥.
(٥) الديوان:١٣٩.

وتراه يستخدم أسلوب القسم والقصر لتأكيد مراده في أنه لم يشغل فكره عن ذكر محبوبه إلا بذكر صفات ممدوحه، فيقول[1]:

وَاللَـه مـا اِشـتغلَت عَـن ذكـركم فِكـري إلّا بِمَـدح المَقـام الناصـر العـالي

ومن حسن التخلص الدعاء للممدوح فتراه يقول[2]:

إلهـيَ مِثـل الشـمس لاحَـت ذنوبنـا فيسّـر عَلَينـا بالمتـاب زَوالهـا

أَحلنـا عَلـى العَفـوِ العَمـيم فَإِنَّنـا سَـئِمنا عَلـى التَسـويف دَهـراً مَحالهـا

وخلّـد بَقـاء الأَشـرف الملـك الَّـذي بِدولتـه الـدُنيا تـديم اِحتِيالهـا

ومن حسن التخلص أيضاً استخدام أسلوب الشرط، في تقديم النصيحة لمن أحسَّ بالذل أن يلجأ إلى عزيز مصر، فقد استخدم الطباق ليدلل حاجة الإنسان له، والإشادة بكرم وأخلاق ممدوحه، فيقول[3]:

وَصـبرتَ عَمَّـن لا يُطـا وعِ مـا تَشـاءُ نُهـىً وَحلمـا

إن كُنـتَ فـي ذُلٍّ فَلُـذ بِعَزيـزِ مَصـر تَعِـزُّ حَتمـا

مَلـكٌ لَـهُ شَـرَفٌ عَلـى ال عليـا فَحَـدِّث عَنـهُ قِـدما

ثم ينتقل إلى تعديد مناقب ممدوحه والإشادة بها كالجود والذكاء، والشجاعة، والعدل، والتواضع، ورفعة العلم في عهده، وغيرها.

أما غرضه فقد تنوع في مدائحه فمن أغراضه، هو إبراز الحالة السياسية، وكذلك إظهار صدقه في المدح، وأخيراً التكسب، أما خاتمة قصائد مدحه فقد غلب عليها الدعاء لممدوحه.

أما قصائد الغزل فقد ضمن فيها معاني الحزن والوجد بسبب الصدِّ والهجران، وما أصابه من السقم والمرض والهزال بسبب فراقهم، وكذلك كرر الحديث عن العذَّال الذين يفسدون ودَّ التواصل بمحبوبه، بل من الغريب حبه للوم ، لأنه دليل على صدق حبه ، ولأن فيه ذكر الأحبة ، ومن ضمن غزلياته تحدث عن أشواقه لمصر وأهلها ، وإلى أهل بيته.

---

(١) الديوان:١٤٦.

(٢) الديوان:١٤٣.

(٣) الديوان:١٥٩.

بناء الموشحات

الموشحات غالباً ما تتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات[١].

أما بناء موشحات ابن حجر فكلها على التام الذي يبدأ بالقفل في أول الموشحة ، فقد جاءت ست قصائد من ستة أقفال وخمسة أبيات ، إلا موشحة واحدة تألفت من خمسة أقفال وأربعة أبيات.

أما **الأقفال** فمنها ما يكون مركب من جزأين ، أو ثلاثة أجزاء، أو أربعة فأما ما هو على جزأين، كقوله[٢]:

صِـــــل قاصِـــــداً قَـــــد أَمَّلَـــــكْ إذ لَـــــم تَجِـــــد فَتـــــى حُـــــر

وكذلك قوله[٣]:

رَعـــــاكَ اللَـــــه يـــــا بَـــــدري وَإن بالغـــــت فـــــي هَجـــــري

وكذلك قوله[٤]:

لا تَســـــــــمَعي قَـــــــــول واش قَـــــد جـــــاءَ شَـــــيئاً فَريّـــــا

وكذلك قوله[٥]:

أَعِـــــن مؤمِنـــــاً صَـــــبّا عَســـــى تنفـــــع الـــــذكرى

أما ما كان على ثلاثة أجزاء، مثل قوله[٦]:

---

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، طبعة دمشق، ١٩٤٩، ص٢٥.
(٢) الديوان : ٢٢٩.
(٣) الديوان : ٢٣٢.
(٤) الديوان : ٢٣٣.
(٥) الديوان : ٢٣٥.
(٦) الديوان :٢٣١.

إن لاحَ مَن فارَقَ طَرفي وَبان نلـــتُ الأمـــان وَقُلتُ يا بُشرايَ بِالوَصلِ دان

أما ما كان مركب من أربعة أجزاء، قوله[١]:

سَـــقِمتُ مِـــن بُعـــدِكُم فَعـــودوا فَمـــا عَلـــى مُحســـنٍ جُنـــاح

عَشِـــقتُ بَـــدراً بِـــلا سِـــرار أَفلَحـــتُ فـــي حُبّـــهِ فـــلاح

أما **الأبيات** فمنها المفرد والمركب، فأما ما جاء أجزاؤه مفردة على ثلاث أجزاء، مثل[٢]:

تَمـــادى منـــك هُجرانـــي * وَما السلوانُ مِن شاني * وَأَنســـــانيَ إِنســـــاني

وما كان مفرداً وتركب من ستة أجزاء، مثل قوله[٣]:

فَأَنـــتَ عِقـــدٌ مُـــثمَنُ * لَـــم تَفتَقِـــر لواســـطة

وَأَنـــتَ شـــكل حســـنُ * وَالجـــودُ فيـــك ضـــابطة

فَـــلا تَقُـــل يـــا مُحسِـــنُ * هَـــذا الثنـــا مغالطـــة

أما ما كان مركباً من الأبيات من فقرتين وثلاثة اجزاء، مثل قوله[٤]:

مـا ضـرَّ مـن أشـغل فكـري وسـار * لـو كـان زار

أضـرم فـي الأحشـاء منـي شـرار * مـذ كـان جـار

لبسـت فيـه بعـد خلـعِ العـذار * ثـوب اشـتهار

---

(١) الديوان : ٢٢٧.

(٢) الديوان : ٢٣٢.

(٣) الديوان :٢٢٩.

(٤) الديوان :٢٣٠.

القطع الشعرية

من خصائص القطع الشعرية أن يعبر الشاعر بما يخطر بباله في موقف استوقفه، أو منظر شدّه، أو صورة أراد رسمها وتجسيدها، وهذا ما تشهده لدى ابن حجر.

نظم ابن حجر مقاطعه على بيتين غير أن نزراً قليلاً من مقاطعه تجاوز البيتين، وتمتاز مقاطعه بخلوها من الألفاظ الصعبة ، وسهولة معانيها ، وتمتاز أيضاً بالإيجاز والتكثيف، وكمال المعنى، فتجد بيتين يصوران حالة الشاعر بشكل كامل.

وقد نظم ابن حجر على الدوبيت الذي هو قالب رباعي يتكون من بيتين ، فكلمة الدوبيت كلمة فارسية معناها البيتان من الشعر ، و الدوبيت عند العرب معناه الرباعي لأنه مؤلف من أربعة مصاريع الواحدة منها رباعية ويكون المصراع الأول والثاني والرابع بقافية واحدة، ووزن الدوبيت .

فعلن متفاعلن فعولن فعلن فعلن متفاعلن فعولن فعلن

والدوبيت ثلاثة أنواع: ١ – كل الأشطر تتفق في القافية، ٢ – ثلاثة أشطر تتفق في القافية الأول والثاني والرابع ولذلك يسمى أعْرج.

٣ – كل الأشطر تتفق في القافية غير أن القافية يجب أن تكون مردوفة، أي أن ألفاً أو واواً أو ياءً يجب أن تسبق الحرف الأخير من القافية.

والدوبيت المستزاد يتألف من ثمانية أشطر يتفق الشطر الأول والثالث والسابع بقافية كما يتفق الثاني والرابع والسادس والثامن بقافية[١]

(١) انظر تعريف الدوبيت في(تكملة المعاجم العربية ، رينهارت بيتر آن دُوزِي (المتوفى: ١٣٠٠هـ) نقله إلى العربية وعلق عليه: (جـ ١ – ٨: محمد سليم النعيمي) (جـ ٩، ١٠: جمال الخياط) الطبعة: الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، من ١٩٧٩ – ٢٠٠٠م. ٤٢٨/٤.

وقد نظم ابن حجر مقطوعتين من الدوبيت على الدوبيت الأعرج حيث تتفق مصاريع الأول والثاني والرابع في القافية ، فيقول[١]:

يـــا عـــينُ عنَـــا مـــنْ لام يـــا بلـــوائِي ألغزْتُـــك فـــي الحـــروف والأســـماءِ

مـن حاجبـك النُّـون ومـن صُـدغِكَ لـي واوٌ ســلبَت بالحســن عقــل الرّائــي

ففي هذا الدوبيت يظهر براعته في النظم ، وتمكنه من أفنان الكلام ، فتراه يضمن كلامه لغزاً خوفاً من العذال وهو في البيت الثاني يفرق حروف (النون، والواو ، والراء) ، وكأنه قصد اسم محبوبه نور، أم يظهر الجمال والحسن الذي يعنيه اسم نور.

وكذلك قوله[٢]:

يـا مـنْ عـذَل المحـبَّ فـي عشـقِ قمَـر ظُلمـاً ونَهَـى عـن التلاقـي وأمـر

اللَّيلـــةُ فـــي الصُّـــدودِ لا أحملُهـــا والسَّـاعةُ فـي البعـادِ أدهـى وأمـرّ

وكذلك قوله[٣]:

رفقـــاً بفتـــى فُتَّـــتْ حشـــاه فتَّـــا يـا عـاذل فـالله عنـه أيضـاً أنتـا

قـد صـيَّف فـي مسـاءة إذ رحلـوا سـنة وهـم فـي همـوم شـتى

أما المواليا فهي ترتبط في الأصل بما يسمى بالموال حتى تطور حتى صار على الصورة التي عليها الآن ، فقد كان وزن المواليا البحر البسيط ، والموال حديثاً عرف على هذا الوزن ، لكن الصفة التي تميز المواليا من غيرها ترجع إلى التحلل من إعراب بعض الألفاظ ، وذلك بإسكان أواخرها كما هو الحال في اللغة العامية، ثم التنويع في القافية ورويها، ويعد هذا تطور في القافية وتنويعها من ناحية ، وقواعد الإعراب من ناحية أخرى[٤].

---

(١) الديوان :٢٧١.

(٢) الديوان :٢٧١.

(٣) الديوان :٢٦٠.

(٤) انظر : موسيقى الشعر ص ٢٠٩.

وتجد المواليا لدى ابن حجر في قوله[1]:

يوسـف ملـك وقمـيص الحُـس ملبوسـو

لمَّـــا عشـــقتو علـــيَّ أنعـــم بتكبيســـو

قـــام العـــذول بتفنيـــدو وتعبيســـو

واحســـرتو حـــين أزور الحِـــبّ وابوســـو

(١) الديوان :٢٧٢.

اللغة والأسلوب

الأسلوب لغة كما ورد في لسان العرب يحمل معانٍ عدة: يُقَالُ للسَّطْر مِنَ النَّخِيلِ: أُسْلوبٌ. وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فهو أُسلوبٌ. قَالَ: والأُسلوبُ الطَّريقُ، والوجهُ، والمذهبُ؛ يُقال: أنتم في أسلوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ أَساليبَ. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأخذ فيه. والأسلوب، بالضم: الفَنُّ؛ يُقَالُ: أَخذ فلانٌ فِي أَساليبَ من القول أَي أَفانِينَ منه(١).

فالجامع في المعاني السابقة هي أن الأسلوب تعني الطريقة والفن.

أما الأسلوب في الاصطلاح: فقد عرفه ابن خلدون عند أهل صناعة الشعر أنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه(٢).

أما العناصر الأساسية للأسلوب هي أولاً الكلمة فهي المادة الخامة للتعبير، فالأديب والناظم يتحرى في اختيار كلماته بعناية فائقة؛ فهي رأس ماله، ثم انسجام العبارات، وترتيب الجمل، وما لها من موسيقى خاصة (٣).

وبناء على ذلك فلكل إنسان أسلوبه، يمتاز به عن غيره، فالأسلوب في أوسع معانيه صفة من صفات الشخصية(٤).

وهناك قواعد للعناصر التي يجب توافرها لتكوين أسلوب جيد منها العناصر الفكرية وهي الصحة الناتجة عن الاستعمال الصحيح للكلمات ، وهناك العناصر العاطفية وهي القوة والجدة والإيحاء، مثيراً في نفس قارئه عواطف وانفعالات مماثلة لعواطفه وانفعالاته ، وهناك العناصر الجمالية من موسيقى وروعة وسحر تجعل الأسلوب لذيذاً في حدِّ ذاته بصرف النظر عن الفكرة(٥).

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، مادة سلب ١/ ٤٧٣.

(٢) ابن خلدون (المتوفى: ٨٠٨هـ) : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٧٨٦.

(٣) انظر: أحمد أمين، في النقد الأدبي، ص ١٣٠.

(٤) السابق: ص ١٣٠.

(٥) السابق: ص١٣١.

ويعد الأسلوب أحد العناصر الأربعة للأدب كما وضعها علماء الغرب ، وطبقها على العرب أحمد أمين، فقال: "هذه هي العناصر الأربعة للأدب : العاطفة والمعاني والخيال والأسلوب، كما عبَّر عنها الإفرنج ، وأظن أنها تنطبق على كل أدب سواء في ذلك العربي أو الغربي"[١].

أما **اللغة** فهي وسيلة التعبير عن الأفكار والمعاني لا العواطف كما يبين أحمد أمين بقوله: "أما العواطف فليست اللغة قادرة على نقلها نقلاً تاماً صحيحاً كما هو الشأن في المعاني "[٢].

فاللغة في الشعر لها شخصية كاملة تتأثر وتؤثر ، وهي تنقل الأثر من المبدع إلى المتلقي نقلاً أميناً ، لذلك كانت لغة الشعر ممتلئة بالمحتوى الذي تنقله نقلاً أميناً ، وهذه اللغة لغة فردية وهذه الفردية هي السبب في أن ألفاظ الشعر أكثر حيوية من التحديدات التي يضمها المعجم.

والكلمة الشعرية يجب أن تكون أحسن كلمة تتوافر فيها عناصر ثلاثة: المحتوى العقلي، والايحاء عن طريق الأخيلة ، والصوت الخالص ، ويجب أن يكون اتصالها بالكلمات الأخرى اتصالاً إيقاعياً بحيث يؤدي هذا التلوين الإيقاعي إلى الغاية المطلوبة[٣].

وللغة الشعرية خصائص تميزها عن لغة النثر، يقول الشنطي: "اللغة الشعرية ذات خصائص متميزة، فهي تقوم على مبدأ المغايرة للنمط المعتاد في الكتابة النثرية، وكلما استطاع الشاعر الخروج على المألوف والمعتاد واستثمار خصائص اللغة بوصفها مادة التشكيل حقق التأثير المطلوب، فالجانب اللفظي هو لب العملية الإبداعية في الشعر"[٤].

فقد تنبه إلى قضية اللغة في الشعر النقاد القدماء، فجعل ابن طباطبا التوسع في اللغة من أولى أدوات الشعر[٥]، واشترط في الكلمة الشعرية: "وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن

---

(١) أحمد أمين: في النقد الأدبي ، الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت–لبنان ، ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م ص٧٦,٧٧.

(٢) السابق ص ٧٤.

(٣) انظر: عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة ، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤، ٣٥٠ .

(٤) محمد صالح الشنطي : فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه ، الطبعة الخامسة، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، حائل، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م، ص ٢٤٠.

(٥) ابن طباطبا، (المتوفى: ٣٢٢هـ) : عيار الشعر ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة ، د.ت، ص ٦.

مباديها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة، واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقاً إليها ولا تكون مسبوقة إليه فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة ولا متعبة، مختصرة الطرق، لطيفة الموالج، سهلة المخارج "[1].

وسبيل ذلك أن لكل غرض من أغراض الشعر لغته الخاصة يحشد فيها الشاعر الألفاظ التي تناسب ذلك الغرض فمثلاً في المدح ما يقوله ابن رشيق: " وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل؛ فإن للملك سآمة وضجراً، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب، وحرم من لا يريد حرمانه"[2].

وأقدم من تنبه لتناسب الألفاظ مع الغرض التي قيلت فيه القاضي الجرجاني حين قال:" نعم، ولا آمرُك بإجراء أنواع الشعر كلّه مُجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهبَ بعضِه؛ بل أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتَب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحُك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك؛ ولا هزْلك بمنزلة جِدِّك، ولا تعريضُك مثل تصريحك؛ بل ترتّب كلاً مرتبتَه وتوفّيه حقّه، فتلطِّف إذا تغزّلت، وتُفخِّم إذا افتخرت، وتتصرّف للمديح تصرُّف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظّرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدام؛ فلكل واحد من الأمرين نهْج هو أمْلك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه[3].

---

(١) عيار الشعر: ص ٧.

(٢) ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، ١٢٨/٢.

(٣) علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، طبعة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت، ص ٢٤.

أما **لغة الشاعر** في قصائده تراها لغة سهلة بسيطة قريبة للذهن ، بعيدة عن التعقيد والإيغال، والألفاظ الصعبة ، فتراه يعلن ذلك صراحة بقوله[١]:

أَتجَنَّـــــــبُ التَعقيـــــــدَ والـــــــــ إيغـــــــال وَاللّفـــــــظ المعمّـــــــى

فَيَقـــــول مـــــن أَصـــــغى لَـــــه صـــــدَقَ المُحـــــدِّثُ واِســـــتتمّا

وقد تنوعت لغة ابن حجر حسب غرض القصيدة فمثلاً تجد الجزالة والقوة في قصائد المدح ، يحشد فيها الألفاظ الدالة على الصفات والاخلاق الكريمة من قوة وشجاعة واستتباب الأمن في زمنه والكرم والجود ، فمثلاً في وصف الكرم[٢]:

ملـــك الملـــوك حَقيقـــة قَـــد كمّلـــت أَوصـــافه وَســـواهُ لَـــيسَ بأكمَـــلِ

يَـــروي أَحاديـــثَ النـــوال صَـــحيحَةً بِمـــدبَّجٍ مِـــن جـــودِهِ وَمسلســـلِ

وفي البأس والقوة والمنعة[٣]:

بـــأسٌ يَلـــين لَـــهُ الجَمـــادُ يَحُفُّـــهُ حلـــم تـــزلّ لَـــهُ رَواســـي الأَجبـــلِ

وفي استتباب الأمن في زمن حكمه يقول[٤]:

وَالنـــاسُ أَجمـــع مـــن رَعايـــاك اِرتـــووا مِـــن فَـــيض فضـــلك بِالغمـــام المســـبلِ

أما في قصائد الغزل فتجد الألفاظ التي تدلُّ على الرقة والسهولة واللطافة ، وذلك ما يناسب هذا الغرض، فتشيع ألفاظ الهوى والمتيم ، والشوق ، والعذول ، والصبر ، مثل[٥]:

عـــادَ المتـــيّمَ شَـــوقٌ كـــانَ قَـــد ذَهبـــا وَزادَ فـــي قَلبِـــهِ طـــولُ النَـــوى لهبـــا

وترى ألفاظ الحبيب ، والوصل ، والحياة ، والغرام في قوله[٦]:

حبيبـــــي لا تحتفـــــل بالعـــــذول وصِـــلْ مغرمـــاً بالفنـــا قـــد وصـــلْ

---

(١) الديوان :١٦٤.
(٢) الديوان :١٣٥.
(٣) الديوان :١٣٥.
(٤) الديوان :١٣٦.
(٥) الديوان :١٩٣.
(٦) الديوان :٢٥٤.

وحقِّـــــك إن العـــــذول الأقـــــلّ وأنـــتَ الحيـــاة وأنـــت الأمـــلْ

وترى ألفاظ الحزن والألم والبكاء والدموع ، في قصائد الرثاء، مثل قوله[١]:

يـا عَـينُ جـودي لِفَقـد البحـر بـالمطرِ أَذري الـــدُموع وَلا تُبقـــي وَلا تَـــذَري

أما معجمه اللغوي فقد كان لشخصيته الدينية باعتباره فقيهاً محدِّثاً قاضياً، جامعاً لعلوم النحو والادب أثرٌ واضحٌ في تنوع معجم ألفاظه.

فقد استعمل ألفاظ من موضوعات علم الصرف، فتجده يقول[٢]:

عَلـــى التقـــى وَالنَـــدى والحلـــم مقتصـــرٌ فأعجب لمقصور شـيءٍ وَهوَ مَمـدودُ

فذكر موضوعات الاسم المقصور والاسم الممدود.

واستعمل ألفاظاً من موضوعات علم العروض، فيقول[٣]:

يـــا كامِـــلَ الحُســـنِ حزنـــي وافِـــرٌ وأَرى وجـدي مَديـداً وَصَـبري عنـك مقتَضَـبا

فقد ذكر بحور الشعر الكامل والوافر والمديد والمقتضب.

وقد استعمل ألفاظاً من مصطلحات علم الحديث في قوله[٤]:

تَسلســـلت الروايـــة عَـــن جُفـــوني عَلـى ضـعف بِهـا مـن فـرط دائـي

فقد استخدم مصطلح المسلسل[٥] في علم الحديث، ليرسم صورة سيلان الدموع من العين.

وقوله[٦]:

---

(١) الديوان :٢١٤.

(٢) الديوان :١٣٢.

(٣) الديوان :١٩٤.

(٤) الديوان :١٢١.

(٥) والمسلسل من الأحاديث ما تتابع فيه الرواة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على حال واحدة، أو ما تتابع رجال إسناده عند روايته على صفة أو حالة إما في الراوي أو في الرواية.(انظر المعجم الوسيط ٤٤٣/١).

(٦) الديوان :٩٨.

وَحَـديثُ وَجـديَ فـي هَـواكَ مُسَلسَـلٌ بِالأَوّليَّـةِ مِـن دُمـوعٍ تسـجمُ

وقد استعمل ألفاظاً من مصطلحات فقهية في قوله[1]:

قَضـيت هَـوى بهجـرك يـا حَبيبـي وعاملـت المَحَبَّـة بـالأَداءِ

فالقضاء والأداء من المصطلحات الفقهية.

واستخدم ألفاظاً من علم الجغرافيا ، فتراه يقول[2]:

وَخَطَّـت مِـن مَناسـمها سُـطوراً وسـاروا فَهـي خـطّ الإسـتواءِ

فخط الاستواء من مصطلحات علم الجغرافيا.

---

(١) الديوان :١٢١.

(٢) الديوان :١٢٢.

أما أسلوب ابن حجر في قصائده فتجد التنوع والجمال والقوة في إيصال المعاني والأفكار، ففي قصائده ترى التنوع بين الأساليب الخبرية والإنشائية، فتراه يكثر من الأساليب الإنشائية مثل الاستفهام الذي تنوع غرضه منها النفي في مثل قوله[١]:

كَيــفَ السَــبيلُ لِكَــتمِ أَســرارِ الهَــوى وَلِســانُ دَمعــي بِــالغَرامِ يُتَــرجمُ

كأنه يقول لا توجد طريقة يخفي الواحد ما يسرُّه من الحب والهوى.

وفي الاستفهام الذي غرضه التعجب، تراه يقول[٢]:

مــاذا يَقــولُ المــادِحونَ وَمَــدحُكُم فَضــلاً بِــهِ نطــقَ الكِتــابُ المُحكَــمُ

وفي ذلك يتعجب من الكلام الذي يقال في مدح المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وقد مدحه رب العزة في كتابه.

ويقول أيضاً[٣]:

مــاذا عَســاهُم أَن يَقولــوا بَعــدَما قَــد أَبصَــروا شَــجني وَفــرطَ نَحيبــي

وفي الاستفهام الذي غرضه الانكار[٤]:

وَكَيــفَ سَــلاها القَلــبُ وَهــوَ محلّهــا سَــلا هَــل ســلا إِجمالهــا أَو جَمالهــا

ويستخدم أسلوب الاستفهام ليدلل ما على مدى شوقه لابنتيه فرحة وزين خاتون[٥]:

تُــرى هَــل أُلاقــي زيــنَ خــاتون بَعــدَما تَنــاءَت بِنــا السُــكنى وَعــادَ المــودِّعُ

وَهَــل أَلتَقــي تِلــكَ الطُفيلَــة فَرحَــةً قَريبــاً كَمــا فارَقتُهــا وَهــيَ تَرضَــعُ

أما أسلوب النداء فقد أكثر منه ابن حجر في المدائح النبوية لأغراض أهمها التوبيخ ، فتراه يوبخ العذال في لومه لهواه ، فيقول[١]:

---

(١) الديوان : ٩٧.
(٢) الديوان :١٠١.
(٣) الديوان :١٠٥.
(٤) الديوان :١٤١.
(٥) الديوان :١٦٩.

يـــا عـــاذِلي إنّـــي جُننـــتُ بحـــبّهم وَإلـــى ســـوى أَوطـــانِهِم لا أَعـــزِمُ

ولغرض التقرب للمحبوب يحذف أداة النداء ويلهج بنداء أحبابه[٢]:

أَحبابَنـــا كَـــم لـــي عَلَـــيكُم وَقفَـــةً وَعَلـــيَّ وَصـــلُكُم الحَـــلالُ مُحَـــرَّمُ

ولغرض التعظيم، تراه يقول :

يـــا سَـــيّدَ الرُســـلِ الَّـــذي آياتُـــهُ لا تَنقَضـــي أَبَـــداً وَلا تَتَصَـــرَّمُ

ومنه أيضاً قوله[٣]:

يـــا سَـــيِّدَ الرُســـلِ الَّـــذي فـــاقَ الـــوَرى بأســـاً سَـــما كُـــلَّ الوجـــودِ وجـــودا

ومنه أيضاً[٤]:

أَيـــا خَيـــرَ خَلـــقِ اللَـــه دَعـــوَةُ مُـــذنب تَخـــوّف مِـــن نـــار الجَحـــيم توقّـــدا

ومنه أيضاً[٥]:

يـــا مالِكـــاً مُلكُـــهُ العـــالي بِســـؤدده موطـــأٌ وَلَـــهُ بِالعَـــدل تَمهيـــدُ

يـــا مـــن تطـــوَّل جـــوداً هـــا بَضـــائِعُنا عـــرضَ المـــدائح وَالتَقصـــير مَوجـــودُ

أما النداء الذي غرضه التشويق، فتراه يقول[٦]:

يـــا أَيُهـــا الراجـــونَ خَيـــرَ شَـــفاعَةٍ مِـــن أَحمَـــدٍ صَـــلّوا عَلَيـــهِ وَسَـــلِّموا

أما النداء الذي غرضه الإغراء، فتراه يقول[٧]:

بِبـــابِ جـــودِكَ عَبـــدٌ مُـــذنِبٌ كَلِـــفٌ يـا أَحسَنَ النـاسِ وَجهـاً مُشرِقاً وَقَفـا

ويقول أيضاً[١]:

---

(١) الديوان :٩٨.
(٢) الديوان :٩٩.
(٣) الديوان :١١٧.
(٤) الديوان :١٢٧.
(٥) الديوان :١٢٧.
(٦) الديوان :١٠٤.
(٧) الديوان :١١٣.

يـــا أَيُّهـــا المـــولى الَّـــذي فـــاقَ المُلـــوكَ نَـــدىً وَحِلمـــا

ويقول[٢]:

يـــا سَـــيِّداً قَـــد فـــاق حـــا تِـــمَ فـــي فُنـــون الجـــود حتمـــا

أما النداء للتعجب فتراه يقول[٣]:

فَقـــدتكُمُ وَالوَجـــدُ أَصـــبح لازمـــي فَيـا عجبـاً مِـن واجـد غَيـر واجِـدِ

أما النداء الذي غرضه الاستعطاف ، فتراه يستعطف عذّاله، ليعاملوه برأفة[٤]:

أَعـــاذِلتي هَـــل تَقبلـــين بِرأفـــة معـــاذِرَ صـــبّ فـــي زَمـــان معانـــدِ

ويقول[٥]:

فَيـــا عـــاذِلي رِفقـــاً بِقَلبـــي فَإِنَّـــهُ عَلـى دونِ مَـن فارَقـتُ يُبكـى وَيُجـزَعُ

وقال مخاطباً محبوبه[٦]:

فَيـا ناهِبـاً مِـن مُقلَتـي سِـنَةَ الكـرى فِـدىً لـك مَنهـوبُ الرقـاد شـريدهُ

وَيـا وَعـدَ مـن أَهـواه مـا لَـكَ مُخلفـاً وَأَنـتَ منـى قَلـب المَشـوقِ وَعيـدهُ

وقد استخدم النداء في التوجع والألم فقد قال في مقدمة قصيدة مطولة في رثاء شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني[٧]:

يـا عَـينُ جـودي لِفَقـد البحـر بـالمطرِ أَذري الـدُموع وَلا تُبقـي وَلا تَـذَري

ويقول[٨]:

---

(١) الديوان :١٥٩.
(٢) الديوان :١٦٢.
(٣) الديوان :١٣٨.
(٤) الديوان :١٣٨.
(٥) الديوان :١٦٩.
(٦) الديوان :١٥١.
(٧) الديوان :٢١٤.
(٨) الديوان٢١٥.

يـــا ســـائِلي جهـــرةً عمّـــا أُكابـــده عَـدَتكَ حـالي فَمـا سـرّي بمسـتِترِ

وكثر استخدامه لأسلوب الأمر الذي يحمل في طياته الإلزام والاستعلاء، ولكن تجد الشاعر قد استخدمه لأغراض أهمها التحذير، يقول[١]:

فَليَحـــذَرِ المَـــرءُ المُخـــالِفُ أَمـــرَهُ مِـــن فِتنَـــةٍ أَو مِـــن عَـــذابٍ يـــؤلِمُ

والأمر الذي غرضه الاستعطاف[٢]:

فَاِشـــفَع لِمادِحِـــكَ الَّـــذي بِـــكَ يَتَّقـــي أَهـــوالَ يَـــومِ الـــدينِ وَالتَعـــذيبِ

أما الأمر الذي غرضه الدعاء، قوله[٣]:

فَيـــا رَبّ عاملنـــا بِلطفـــكَ إِنَّنـــا نَـرى بِجَميـل الظَـنّ مـا أَنـتَ فاعِـلُ
أَعـــذنا مِـــنَ الأَهـــواء وَالفِـــتَن الَّتـــي أَواخرهـــا تـــوهي القـــوى وَالأَوائِـــلُ

وقوله[٤]:

إِلهـــيَ مِثـــل الشـــمس لاحَـــت ذنوبنـــا فيسّـــر عَلَينـــا بالمتـــاب زَوالهـــا
أَحلنـــا عَلـــى العَفـــوِ العَمـــيم فَإِنَّنـــا سَـئِمنا عَلـى التَسـويف دَهـراً مَحالهـا

أسلوب النهي، الذي غرضه التحذير[٥]:

قُـــل لِلمُخـــالِف لا تُعانِـــد إِنَّـــهُ مـا شَـكَّ فـي فَضـلِ البُخـاري مُسـلِمُ

وفي ذلك تحذير لعدم التفريق والتمييز في فضل البخاري ومسلم.

وفي غرض التعظيم، يقول[٦]:

لا تَســـأَلَنَّ القَـــوافي عَـــن مـــآثِرِهِم إِن شِـئتَ فاِسـتَنطِقِ القُـرآنَ وَالصـحفا

ويقول ناهياً أحبابه عن الصدود والهجران، وأخذ الظن بالإحسان[١]:

---

(١) الديوان :١٠٠.
(٢) الديوان :١٠٧.
(٣) الديوان :١٢٠.
(٤) الديوان :١٤٣.
(٥) الديوان :١٠٣.
(٦) الديوان :١١٣.

لا تَقطعــوا بِاتصــالِ الهَجــرِ أَوصــالي وَوافقــوني فَقَــد خالَفــتُ عــذّالي

وَلا تَظنّــوا ســكوني فــي الغَــرام بكــم يَقضــي بــأنّ فُــؤادي مِــنكمُ خــالي

ويقول طالباً من الأمير ألا يرمِ بضاعته متحججاً بعيبها[٢]:

لا ترمهـــــــــا متعرِّضـــــــــاً لعيوبهـــــا بـــــالظنِّ رَجمـــــا

أما التمني فقد ورد بصيغة (ألا ليت شعري) فتراه يقول[٣]:

أَلا لَيــتَ شــعري هَــل أَبيــتنَّ ليلــة بِمَكَّــةَ أَشــفي ذا الفــؤاد المفنّــدا

واستخدم التمني لإبراز الحالة النفسية في رجاء لقيا الأحبة، يقول[٤]:

إِن لَـم يجـد رَوضُ ذاكَ الوَجـه لـي بِجَنـىً فَلَيــتَ لــي أَنَّ مــاء الثغــر مــورودُ

أَو كــانَ صَــبري عَــن قَلبــي لِبُعــدكُمُ مخرَّجــاً ليــت أَنَّ النــوم مَــردودُ

ويقول أيضا[٥]:

ومــا بَقــي لَــم تَصــلني مِنــه واصِــلَةٌ فَلَيتَــه كــانَ وَصّــى لــي بِوَصّــالِ

واستخدم التمني في بيان معاني الألم والتوجع لفقد العلماء فقد قال في رثاء شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني[٦]:

ليــتَ اللَيــالي أَبقَــت واحِــداً جُمعــت فيــهِ هِدايَــةُ أَهــل النفــع وَالضــررِ

وَلَيتهــا إِذ فَــدَت عَمــراً فَــدَت عُمَــرا بطالبيــــه وَأَولاهــــم بــــذا عمــــري

---

(١) الديوان :١٤٤.

(٢) الديوان :١٤٤.

(٣) الديوان :١٢٧.

(٤) الديوان :١٣٠.

(٥) الديوان :١٤٩.

(٦) الديوان :٢١٩.

ومن أكثر الأساليب انتشاراً في قصائد ابن حجر أساليب الشرط الجازم وغير الجازم، وأكثر ما ورد في قصائد المدح والمدح النبوي، والمقدمات الغزلية، وذلك لغرض توضيح الصورة، وإبراز مكارم الممدوح، فمن أمثال أساليب الشرط الجازم، قوله[١]:

فَـإذا سَـخَوا كـانوا البِحـارَ وَإن سَـطوا كـانوا الأسـودَ أَو السُـراة الصـيدا

وقوله[٢]:

وَإذ نَفَـروا فـازوا فَهُـم نَفَـرُ التّقـى سَـقَتهُم سـحاب العَفـو صَـفواً زلالهـا

قوله[٣]:

وَحـينَ تَجلّـى وجههـا خَضَـعوا لـهُ فَلِلّـهِ رَبّـي مـا أَعـزّ جَلالهـا

وقوله[٤]:

إن أَبرَمـوني بِـالمَلامِ فَـإنَّ لـي صَـبراً سَـيَنقُضُ كُـلَّ مـا قَـد أَبرَمـوا

وقوله[٥]:

وَلَـئِن دَروا أَنّـي عَشِـقتُ فَإنَّـهُ لهَـوى القُلـوبِ سَـريرَةٌ لا تُعلَـمُ

وفي أساليب الشرط غير الجازمة (لو – لولا ، لما) ، فتراه يبدأ قصيدته الاولى في المدح النبوي بقوله[٦]:

لَـو أَنَّ عُـذّالي لِوَجهِـكَ أَسـلَموا لَرَجَـوتُ أَنّـي فـي المَحَبَّـةِ أَسـلَمُ

وقوله[٧]:

وَلَـو كُنـتَ تَرعـى الـوُدَّ مـا مِلـتَ نَحـوهُم بِسَـمعٍ رَعـاكَ اللَـهُ دَهـراً وَلا رُعـوا

---

(١) الديوان :١١٧.
(٢) الديوان :١٤٢.
(٣) الديوان :١٤٢.
(٤) الديوان :٩٧.
(٥) الديوان :٩٧.
(٦) الديوان :٩٧.
(٧) الديوان : ١٧١.

وقوله[١]:

وَلَــولا اِشــتِغالي فــي مَــدائِحِ أَحمَــدٍ وَآثــارِهِ مــا كــانَ لــي عَنــهُ شــاغِلُ

يقول[٢]:

ولمّــا أَلَمّــوا فــي السُــرى بــيلملمٍ لأجســادهم إحرامُهــا قَــد حَــلا لَهــا

وقوله[٣]:

لَمّــا رأى الأَلحــاظَ تَرشُــقُ خَــدَّهُ جــاءَ العــذار مقــدّراً فــي سَــردِهِ

أما الأسلوب الخبري الطلبي الذي يؤكد بمؤكد واحد فتراه يؤكد حاجته لشفاعة النبي –صلى الله عليه وسلم – بتأكيد مرضه بداء الذنوب ، فيقول[٤]:

قَــد صَــحَّ أَنَّ ضَــناهُ زادَ وَذنبــهُ أَصــلُ الســقامِ وَأَنــتَ خَيــرُ طَبيــبِ

ومنه أيضاً تأكيد المنزلة التي حباها الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، في حادثة الإسراء والمعراج[٥]:

قَــد خُــصَّ بِالتَقريــبِ بالإســراءِ إذ عــادَ الَّــذي عــادى الحَبيــبَ بَعيــدا

ولتأكيد منزلة ممدوحه تراه يقارنه بالملوك ، فتراه يقول[٦]:

وَقَــد تعلّــى عَلــى بهــرامَ منزلــة وَفــاقَ ملكــاً فَمــا كســرى وإفريــدُ

ويبين ما حلَّ به بعد حروب التتار من الفاقة مستخدماً أداة التوكيد (قد) [٧]:

قَد ضَعضَعَ الدهر حالي عِندَما نُهِبَت بِالشــامِ أَيّــامَ تَيمُرلَنــكَ أَمــوالي

---

(١) الديوان :١١٩.
(٢) الديوان :١٤٢.
(٣) الديوان :١٧٣.
(٤) الديوان :١٠٧.
(٥) الديوان :١١٥.
(٦) الديوان : ١٤٩.
(٧) الديوان :١٣٢.

الخبري الإنكاري ، الذي يحتوي على مؤكد ، فقد ورد في قصائد مدحه للنبي –صلى الله عليه وسلم– ، فتراه يستخدم التوكيد باللام وقد ، في قوله[١]:

وَلَقَــد كَتَمــتُ هَــواكَ لَكِــن مُقلَتــي شَــوقاً إِلــى مَغنــاكَ لَيسَــت تكــتمُ

وقوله[٢]:

فَلَقَــد قصــرت عَلــى عــلاك مَــدائحي لمّــا تلقَّتنــي بِبــاعٍ أَطــولِ

ويبين ما أصاب جسده من الضعف بالتوكيد باللام وقد، فتراه يقول[٣]:

لَقَــد ضــعُفَت بــالبين حــالي فَمــا لَكُــم قَطَعــتُم صِــلاتي مــنكم وَعوائِــدي

ويقول أيضاً[٤]:

لَقَــد ضَــلَّ عَقلــي فــي هَــواكَ وَلَــم يفِــد وَحقّــك مــن هَــذا النَسـيبِ نَشـيدُهُ

واستخدم أداة التوكيد إنَّ المكسورة الهمزة في إبراز كرم ممدوحه، فيقول[٥]:

إِنّــي قصــدت حمــاك أَوّل مَــرَّةٍ فَلَقيــت عــزّاً زالَ مَعــهُ تَــذَلُّلي

ويستخدم لفظة (كلّ) لتأكيد وقوعه في الخطأ كمالاً إن لم يسأل كرم ممدوحه، فيقول[٦]:

لا لَــومَ إِن أَســأل نَــداك عَلــيّ بَــل كــلّ المــلامِ علــيّ إِن لَــم أَســأَلِ

وكذلك قوله[٧]:

كــلّ المُلــوك مُلــوك الأَرض دونكــم فــي الجــود وَالنَسَــب العــالي الزَكــي

وقوله:

---

(١) الديوان :٩٨.
(٢) الديوان : ١٣٦.
(٣) الديوان :١٣٨.
(٤) الديوان :١٥١.
(٥) الديوان : ١٣٦.
(٦) الديوان :
(٧) الديوان : ١٤٨.

وَما كُلُّ مَن قالَ القَريضَ أَجادَ في الـ مقالِ وَلا كُلُّ المجيدينَ مُبدِعُ

أما التوكيد بأسلوب القصر فقد شاع في قصائده بقوله[١]:

لَم يُنسِ أَفكاري قَديمَ عُهودِكُم إِلّا حَديثُ المُصطَفى المستَغنَمُ

وبذلك تأكيد على أن الانشغال بالحديث عن المصطفى –صلى الله عليه وسلم– يغني عن أي ذكر لمحبوب.

ومنه أيضاً[٢]:

وَلَم يَرَ ربّه جَهراً سواه لسرّ فيه جَلَّ عَن اِمتِراءِ

وقد استخدم القصر لتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وذلك في قوله[٣]"

لا عَيب فيهِ غيرَ أَنّ رَقيبه لا يأتَلي في لَومِهِ إِن يأتِ لي

ومنه أيضاً[٤]:

وَلا عَيب في إِحسانه غير أَنَّه يسلسل أَعناق الوَرى بِالقَلائِدِ

ويقول عن مصر[٥]:

ولا خَيرَ فيها غيرَ أَنّ نزيلَها نَديمٌ لقرآن مديم لأذكارِ

ويستخدم القصر ليبرز فضل ممدوحه، فتراه يقول[٦]:

مُجاهِدُ نَفسي لا أَرى متفضّلاً سوى الأَشرف بن الأَفضل بن المجاهِدِ

ويوظف أسلوب القصر لإبراز حالته النفسية في زيارة خيال وطيف المحبوبة ، فمثل زيارة خيالها بلمحة البصر ، فيقول[١]:

---

(١) الديوان :٩٩.
(٢) الديوان :١٢٣.
(٣) الديوان :١٣٤
(٤) الديوان : ١٣٩.
(٥) الديوان :١٩٩.
(٦) الديوان : ١٣٩.

وَمـــا زارَنـــي إلّا كلمحـــة بـــارِقٍ وَعُـدتُ إلـى سـهدي وَعـاد صـدودُهُ

وقوله[٢]:

وَمـــا الشِـــعرُ إلّا دونَ قَـــدرِكَ قَـــدرُهُ وَمـا يَسـتَوي فـي القـدرِ بـاعٌ وَإصـبَعُ

أما التوكيد باستخدام القسم، والقصر بالنفي والاستثناء، من أمثال ما يقوله[٣]:

وَاللَـــهِ مـــا لـــي مِـــن هَـــواكَ تَخَلُّـــصٌ إلّا بِمَـــدحِ المُصـــطَفى المَحبـــوبِ

وكذلك قوله[٤]:

وَاللَـــه مـــا اِشـــتغلَت عَـــن ذكـــركم فِكـــري إلّا بِمَـــدح المَقـــام الناصـــر العـــالي

وكذلك قوله[٥]:

وَأقسِـــمُ أَيمانـــاً بِحَـــقِّ مُحَمَّـــدٍ لَقَـــد أَوحشـــتني مِنـــهُ تِلـــكَ الشَـــمائِلُ

وقد أقسم على أن موعد هداه عن صباه قد آن ، بقوله[٦]:

لعمـــري لَقَـــد آن النـــزوعُ عَـــن الصـــبا فَيـــا صـــبوتي حَتّـــامَ يَسترسـل المَـدى

ويقول[٧]:

أَقســـمت مِنـــه بِلُطـــف فـــي شَـــمائله أَيمـــانَ صِـــدق بِـــأَنّي لســـت بِالســـالي

ويقول[٨]:

قســـــماً بِسَـــــقمِ الطـــــرفِ قَـــــد أَهـــــدى لِجِســـــمي مِنـــــهُ قِســـــما

---

(١) الديوان : ١٥٠.
(٢) الديوان :١٧١.
(٣) الديوان :١٠٦.
(٤) الديوان :١٤٦.
(٥) الديوان :١١٩.
(٦) الديوان :١٢٦.
(٧) الديوان :١٤٦.
(٨) الديوان :١٥٩.

ويعبر عن ألمه لفراق أهله بالقسم أنه لم يبتعد عنهم كرهاً وإنما كان ذلك لضيق العيش، فيقول [١]:

فَواللَــــه مـــا فـــارَقتُهُم عَـــن مَلالَـــةٍ وَهَـل مَـلَّ ظـامٍ مَـوردِاً فيــهِ يَشـرَعُ

أسلوب الدعاء ، فقد أكثر من استخدام الدعاء ، من أمثال ذلك دعائه للبخاري ومسلم لما قدماه لهذا الدين، فيقول[٢]:

فَجَزاهُمـــا اللَـــهُ الكَـــريمُ بِفَضـــلِهِ أَجـــراً بنـــاءُ عَـــلاهُ لا يَتَهَـــدَّمُ

وفي دعائه للبيهقي [٣]:

فَيــا رَبِّ بالإحســانِ فــي الخُلــدِ جــازِهِ فَإِنَّـــكَ بالإحســـانِ كـــافٍ وَكافِـــلُ

وفي دعائه لمحبوبه ، يقول[٤]:

لا أَبعــد اللَــه أَحبــابي الَّــذين شــرَوا رقّ المحـبّ بمـا اِختـاروا مِـن الـثَمنِ

أما الرجاء ، فكان غرضه من قصائد المدح النبوي أن ينال شفاعة من النبي –صلى الله عليه سلم– ، فتراه يقول[٥]:

مَـدَحتُكَ اليَـومَ أَرجـو الفَضـلَ مِنـكَ غَـداً مِـنَ الشَـفاعَةِ فـالِحَظني بِهـا طَرَفـا

وقد يكون رجاؤه أن يأجره الله على مديحه للنبي –صلى الله عليه وسلم– بكل بيت غرفة في الجنة، فيقول[٦]:

وَالمَــدحُ فيــهِ قُصــورٌ عَــنكُمُ وَعَســى فــي الخُلــدِ يُبــدلُ مِــن أَبياتِــهِ غُرَفـا

---

(١) الديوان :١٦٩.
(٢) الديوان :١٠٤.
(٣) الديوان :١٢٠.
(٤) الديوان :١٨٩.
(٥) الديوان :١١٣.
(٦) الديوان :١١٣.

ويستخدم أسلوب الرجاء بـ (عسى) راجياً أن تكون أيادي الملك عبد العزيز وجوده ينسيه ما كان عليه من الهوى ، وتنعم باله[١]:

عَسى قَلبُ مَن يَهوى تنعِّمُ بالهُ أَيادي الرضى عَبدِ العَزيز وَجودُهُ

وقد استخدم أسلوب النفي ، فقال في وصف النبي صلى الله عليه وسلم [٢]:

وَعَينُ المال جاد بِها سَخاءً فَلَيسَ يَخاف فَقراً مِن عَطاءِ

ويقول في مدح الأمير يلبغا السالمي[٣]:

وَلَم أَرَ يَوماً في الفَصاحَةِ وَالذَكا نَعَم وَإِلى طُرقِ العُلا مِنهُ أَبلَغا

ويقول في المدح[٤]:

فَلا قاطِعٌ حَبلاً لِمَن هوَ واصِلٌ وَلا واصِلٌ حَبلاً لِمَن هُوَ يَقطَعُ

---

(١) الديوان :١٥١.

(٢) الديوان :

(٣) الديوان :١٦٧.

(٤) الديوان :١٧٠.

كما شاع في شعره **أسلوب الاقتباس**، وهو تضمين الكلام آية أو معناها ، أو حديث أو معناه ، مع عدم الاشارة إلى ذلك ، لتأخذ صفة الفجاءة ، فقد كان يقتبس معاني شعره من القرآن الكريم ، مما يمنحه التأثير القوي ، لما تحمله معاني القرآن وألفاظه من البلاغة والاعجاز البياني.

أما الاقتباس من القرآن الكريم فكان واضحاً كثيراً في قصائده متأثراً بمعانيه، وألفاظه، مثلاً في قوله[١]:

اللَـــهُ أَيَّـــدَهُ فَلَـــيسَ عَـــن الهَـــوى فـــي أَمـــرِهِ أَو نَهيـــهِ يَـــتَكَلَّمُ

مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾[٢]

وقوله[٣]:

فَليَحـــذَرِ المَـــرءُ المُخـــالِفُ أَمـــرَهُ مِـــن فِتنَـــةٍ أَو مِـــن عَـــذابٍ يـــؤلِمُ

مقتبس من قوله تعالى :﴿ . . . فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤]

وقوله[٥]:

وَلقـــابِ قَوسَـــينِ اِعتَلـــى لَمّـــا دَنـــا أَو كـــانَ أَدنـــى وَالمهَـــيمنُ أَعلَـــمُ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾[٦]

وقوله[٧]:

تَبـــوّؤا الـــدارَ والإيمـــانَ قَبـــلُ وَقَـــد آووا وَفَـــوا نصـــروا فـــازوا شَـــرَفا

---

(١) الديوان :١٠٠.
(٢) النجم: آية ٣.
(٣) الديوان :١٠٠.
(٤) سورة النور: آية ٦٣.
(٥) الديوان :١٠١.
(٦) سورة النجم : الآيتان ٨، ٩.
(٧) الديوان :١١٢.

مقتبس من قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقوله[2]:

لا يَستَوي مُنفِقٌ مِن قَبلِ فَتحِهِمُ بِمُنفِقٍ بَعدُ بالإنفاقِ قَد خَلَفا

﴿ . . . لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3] .

أما الاقتباس من الحديث النبوي الشريف فتجده مثل قوله عن العشرة المبشرين بالجنة[4]:

وَبِالرضى خُصَّ مِنهُم عَشرَةٌ زهُرٌ يا وَيحَ مَن في موالاةٍ لَهُم وَقَفا

سَعدٌ سَعيدٌ زبيرٌ طَلحَةٌ وَأَبو عُبَيدَةٍ وابنُ عَوفٍ قَبلَهُ الخُلَفا

مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة"[5]

الناظر إلى اقتباسات ابن حجر يظن أنها فقد في قصائد المدح النبوي لما لها من ارتباط وثيق بشخص النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – وسيرته ، ولكن لم تقتصر على هذا الغرض فقد تجد في كل غرض من قصائد ابن حجر اقتباساً من القرآن الكريم أو من الاحاديث النبوية.

---

(١) سورة الحشر : آية ٩.

(٢) الديوان :١١٢.

(٣) سورة الحديد: آية١٠.

(٤) الديوان :١١٢.

(٥) (سنن الترمذي حديث رقم ٣٧٤٧: ١٠١/٦).

ففي قصائد المدح، تراه يمدح الملك الأشرف اسماعيل بن العباس، يقول[١]:

وَيَرفَـــعُ للعليـــا قَواعِـــد بيتـــه وَمـن شـأنِ إسـماعيلَ رفـعُ القَواعِـدِ

مقتبس من قوله تعالى :﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٢].

وقال في قصيدة مدح أخرى[٣]:

لا يَســـــــتَوي البَحـــــــران ذا عَـــذبٌ وَذاكَ المِلـــحُ طعمـــا

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . . ﴾[٤]

وفي الغزل تجد اقتباسه من القرآن في مثل قوله[٥]:

لَهُـــم ديـــنهم وهـــوَ المَـــلام عَلَـــيكمُ وَلـــي ديـنُ حـبّ لـذّ فيـهِ لـي القَتـلُ

متأثر بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٦].

وكذلك في قوله:

لـــئن مـــالَ إنســـاني لرؤيـــة غيـــرهم فَوَالعصر إنّي بَعدَ ذا الصبر فـي خسرِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[٧].

وفي الرثاء تجد اقتباسه من القرآن الكريم في قوله[٨]:

---

(١) الديوان :١٣٩.
(٢) سورة البقرة :١٢٧.
(٣) الديوان :١٦٢.
(٤) سورة فاطر : آية ١٢.
(٥) الديوان :١٩٥.
(٦) سورة الكافرون: آية٦.
(٧) سورة العصر: آية١,٢.
(٨) الديوان :٢١٦.

اللَه أَكبَرُ ما هَذا سِوى ملك وَحـاشَ لِلَّـه مـا هَـذا مِـن البشـرِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿ . . . وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[١].

وقوله[٢]:

طَويـتَ عنّـا بِسـاطَ العلـم معتليـاً فَاِهنـأ بمقعـد صـدقٍ عنـد مقتـدرِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[٣].

وفي موشحاته كتب قائلاً[٤]:

وَقَـد سـأَلوا الرّبّـا فَقـال اِهبطـوا مصـرا

مقتبس من قوله تعالى: ﴿ . . . اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ . . . ﴾ [٥]

وقال في مقطوعاته[٦]:

يـا معشَـر التُّجـار أمـوالكم أدوا زكاتهـا ولا تكـابروا

مـن قبـل أن تصـيبكم قارعـة لأنكـم ألهـاكم التكـاثر

مقتبس من قوله تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾[٧].

وقال أيضاً في مقطوعاته[٨]:

خـاض العـواذل فـي حـديث مـدامِعي لمـا جـرتْ كـالبحر سُـرعَة سـيرِه

فكتمتـه لأصـون سـر هـواكم حتـى يخوضـوا فـي حـديث غيـره

---

(١) سورة يوسف: آية ٣١

(٢) الديوان :٢١٨.

(٣) سورة القمر : آية ٥٥.

(٤) الديوان :٢٣٦.

(٥) سورة البقرة : آية٦١.

(٦) الديوان:٢٤٣.

(٧) سورة التكاثر: آية١.

(٨) الديوان:٢٤٧.

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[1].

وقال في الزهد[2]:

أقل من أجل القيام العشا	**ولا تنم قبل صلاة العشا**
واقض مهماتك من قبلها	**ولا تسامر بعدها من غشا**
ونم لحظ العين شيئاً	**في الليل سلْ ربِّ العلا ما تشا**
فإنه أكرم من يرتجى	**وإنه أعظم من يخشى**
وإنه قال ادعني أستجب	**وما على صبح عطاه غشا**

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

التضمين:

وهو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء[4] ، ومن أمثلة التضمين وهو تداخل أو تقاطع بين النصوص في الألفاظ ، أو المقاطع ، أو السياق ، وهو قد يدلل على تأثر الشاعر بمعاني شعراء سابقين طرقوا نفس المعاني بأسلوبهم، وتجد ذلك عند ابن حجر في ديوانه، مثل قوله[5]:

وَدمتَ تعرى عَن الأسوا تَصومُ عَن الـ	**فحشا علاً وَسِواكَ الطاعِمُ الكاسي**

(١) سورة الأنعام: آية٦٨.
(٢) الديوان:٢٧٢.
(٣) سورة غافر: آية٦٠.
(٤) بغية الايضاح: ص ٦٩٣.
(٥) الديوان :١٨٤.

مقتبس من قول الحطيئة[١]:

دَع المكـــــارم لا ترحـــــل لبغيتهـــــا واقعـدْ فإنـك أنـت الطـاعم الكاسـي

وقوله[٢]:

يـا ظَبيـةً مـا رَعَـت عَهـدي وَقَـد نَفـرت ليهنـــكِ اليَـــومَ أَنَّ القَلـــبَ مَرعـــاكِ

مقتبس من الشريف الرضي في قوله[٣]:

يـــا ظَبَيَـــةَ البـــانِ تَرعـــى فـــي خَمائِلِـــهِ لِيَهنَـــكِ اليَـــومَ أَنَّ القَلـــبَ مَرعـــاكِ

وقوله[٤]:

أَلا لَيـــتَ شـــعري هَـــل أَبيـــتنَّ ليلـــة بِمَكَّـــةَ أَشـــفي ذا الفـــؤاد المفنّـــدا

مقتبس من قول الشاعر جميل بثينة ، في قوله[٥]:

ألا ليـــتَ شـــعري، هـــلَ أبيـــتنّ ليلـــة بـــوادي القُـــرى ؟ إنـــي إذَنْ لَســـعيد!

---

(١) ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السكيت ، دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ١١٩.

(٢) الديوان : ١٧٨.

(٣) ديوان الشريف الرضي : اعتنى به وشرح ألفاظه محمد بن سليم اللبابيدي ، طبعة المكتبة الأدبية في بيروت، ١٢٠٩، ٣٨/٢.

(٤) الديوان :١٢٧.

(٥) ديوان جميل بثينة : طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص١٦.

الصورة الشعرية

كان لقضية اللفظ والمعنى في التراث النقدي أهمية لإبراز الصورة الشعرية فالخلاف الحاصل بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى وغلبة أنصار المعنى على اللفظ وشيوع مصطلح المعنى واهتمامهم به أدى إلى ندرة استعمال مصطلح الصورة[١].

حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وخرج على هذه الفكرة، ولم ينظر إلى الشعر على أنه معنى أضيف إليه مبنى ، وإنما نظر إليه معنى ومبنى ، لا سبق لأحدهما على الآخر وهما ينتظمان في الصورة : واعلم أن قولنا "الصورة"، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"[٢].

وللصورة الشعرية أهمية أدبية كبيرة فهي تعد من القيم الهامة والأساسية في الأعمال الأدبية، وفي فن الشعر خاصة؛ لأنها هي الوسيلة الجيدة الدقيقة في إظهار التجارب الشعورية بما تحوي من أفكار وخواطر، ومشاعر وأحاسيس، وبدونها لا نعرف شيئًا بدقة عن تجارب الغير، فكما لا يستطيع الغير أن يعرف عن تجاربنا شيئًا[٣].

وقد حاول بعض النقاد وضع مفهوم للصورة الأدبية فقالوا بأنها التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر –يعني خواطره ومشاعره وعواطفه– المطلق من عالم المحسات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى، في إطار قوي نام محسن مؤثر، على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين[٤].

فالصورة هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية، ومن الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل[٥].

---

(١) بشرى موسى صالح : الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٣٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م. ص ٥٠٨.

(٣) انظر: علي علي صبح: الصورة الأدبية تاريخ ونقد ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، د.ت، ص١٠٩.

(٤) انظر: الصورة الأدبية تاريخ ونقد: ص ١٤٩

(٥) أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٤٩.

أما مقياس الصورة الأدبية، هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة والصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية، وهذا ومقياسها الأصيل، وكل ما نصفها به من جمال إنما مرجعه إلى التناسب بينها، وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويرًا دقيقًا، خاليًا من الجفوة والتعقيد فيه روح الأديب وقلبه، كأنا نحادثه، ونسمعه كأنا نعامله[١].

والخيال دور بارز في الصورة الشعرية فهي الملكة التي يستطيع بها الادباء أن يؤلفوا صورهم ، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها ، تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم ، حتى يحين الوقت ، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها[٢]

وقد جعل النقاد القدرة البيانية المتمثلة في الصورة الأدبية من عناصر الأدب القوي الخالد يقول أحمد الشايب: " إن الأدب القوي الخالد يقوم على ثلاثة عناصر:

١. صدق الشعور وصحة التفكير
٢. الرغبة الصادقة في نقلهما إلى القراء كما هي.
٣. القدرة البيانية المتجلية في الصورة الأدبية"[٣].

---

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص٢٥٠.

(٢) شوقي ضيف: في النقد الادبي، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٦٧.

(٣) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص ٢٥١.

الصورة الشعرية في قصائد ابن حجر:

الناظر والمتأمل في تصويرات ابن حجر في قصائده التي حاول بها تقريب ما أراده إلى ذهن المتلقي، يجد أن لديه خيالاً واسعاً، وخبرة عميقة، وقدرة على تطويع الألفاظ والمعاني لخدمة ما يصبو إليه، فمن خلال استقراء قصائد ابن حجر وما ضمنها من تشبيهات واستعارات وصور بيانية جميلة، رأيت أن أقسمها إلى أقسام أهمها:

أولاً/ التشبيه:

التشبيه لغة : التمثيل ، وهو مصدر مشتق من مادة شبه ، أما اصطلاحاً : الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بأداة من أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدرة(١).

ويعد التشبيه عنصر مهم من عناصر التصوير، لا تتأتى الإجادة فيه إلا لمن توافرت له أدواته من لفظ ومعنى وصياغة وسمو خيال ورهافة حس.

وتجد ديوان ابن جحر حافل بالصور التشبيهية التي يعد التراث، والطبيعة، ومشاهد الحياة التي ألفها ورآها في بيئته من أهم مصادره، فمن الصور المستمدة من التراث تجد يصور كرم ممدوحه بالبحر، يقول(٢):

فـإذا سـخوا كـانوا البحـار وإن سـطوا كـانوا الأسـود أو الشـراة الصـيدا

فهنا يصور جود وكرم صحابة النبي – رضوان الله عليهم – بالبحر في العطاء الفياض، وكذلك يصور شجاعتهم وقوتهم بالأسود في سطوتها، فأضفى على صفات الجود والشجاعة صفات حسية، وهو ما يطلق عيه التجسيم.

وصور النبي – صلى الله عليه وسلم – بالأسد في شجاعته، والغيث في كرمه وجوده، وقد عبر عن ذلك بالتشبيه البليغ، مبالغة في تأكيد المعنى وتفخيمه، يقول(٣):

اللَيـثُ وَالغَيـثُ فـي يَـومي نَـدىً وَردىً وَالصادِقُ الفعل في يَومي وَغى وَوفا

---

(١) انظر: من بلاغة القرآن ص ١٤٨.

(٢) الديوان :١١٧.

(٣) الديوان :١١٠.

وقد جمع بين صفتي الكرم والمهابة بتصويرها بالغيث الذي يجود بالخير، ويخيف الناس ببرقه ورعده، يقول[١]:

أضاف إلى البشر المهابة والندى كغيث همى مع برقه والرواعد

حيث شبه صفتي المهابة والندي بالغيث، وسر ذلك التجسيم.

وفي تقليل وصف كرم الممدوح بالغيث، فقد صوره بالذي يشبه البسام بالباكي، يقول[٢]:

يا مَن يُشَبّهُهُ بِالغَيثِ مِن كَرَمٍ مَن ذا الَّذي شَبَّهَ البسّامَ بِالباكي

أما التصوير المستمد من الطبيعة، فتراه في معجزات خير البرية – صلى الله عليه وسلم – في وضوحها وصدقها وتأييدها من الله –عز وجل – كالشمس لا تبقي مكاناً إلا ووصلت إليه، فأضاءت للبشرية نور الهدى، ولكن هذا النور محجوب عن من تنكر للهدى وعمي عن الحق، يقول[٣]:

ذي المُعجِزاتِ فَكُلّ ذي بصرٍ غَدا لِصَوابها بِالعَينِ ذا تَصويبِ

كَالشَمسِ ضاءَت للأَنامِ وَأَشرَقَت إِلّا عَن المَكفوفِ وَالمَحجوبِ

فجعل صدق المعجزات في وضوحه وبيانه للناس، كالشمس في لمعان بريقها للعيان، وهنا الغرض من هذا التشبيه التوضيح لأنه تصوير محسوس بمحسوس.

وقد شبه علم ممدوحه بالشمس، في انتشاره ونوره، لكن يختلف مع الشمس في أن الشمس تزول لكن علمه تنزَّه عن الزوال، على سبيل التجسيم، يقول[٤]:

وَعلومُهُ كالشمسِ لَن قَد تنزَّهَ عَن زَوالِ

فالشمس عنده رمز للوضوح والانتشار.

---

(١) الديوان :١٣٩.

(٢) الديوان :١٨٠.

(٣) الديوان :١٠٦.

(٤) الديوان :١٨٥.

ومن الصور المستمدة من الطبيعة والبيئة التي يحيا بها، صورة وجوه أصحاب رسول الله – رضوان الله عليهم – وقد شبهها بالدرِّ، في الجمال والنور المنبثق من هداهم، وما نالوه من السعادة في الدنيا والآخرة، يقول[1]:

وجـــوهُ أَصـــحابِهِ كَالـــدُّرِّ مُشـــرِقَةٌ إِذا رَأَيـتَ اِمـرءاً عَـن هـديهم صَـدَفا

نـــالوا السَـــعادَةَ فـــي دُنيـــا وَآخِـــرَةٍ وَالسَـبقَ وَالفَضـلَ وَالتَقـديمَ وَالشَـرَفا

وفي صورة الهرم والكبر ، فقد شبه المشيب بالنسر الذي يعشش في شعره المجاوز لشحمة الأذن، يقول[2]:

وَعشَّـــشَ نســـرٌ للمشـــيب بِلِمَّتـــي وَطـــار ببَينـــي والشـــباب غرابـــي

وعلى سبيل التشبيه البليغ فقد شبه متاع الدنيا بشهواتها ومتعها وزخرفاتها بالزهرة الجامعة لمعاني الحسن والجمال، والتي لم يقطفها النبي – صلى الله عليه وسلم –، بل تركها وابتعد عنها[3]:

لـــم يَقتَطِـــف زَهـــرَةَ الـــدُنيا وَزينَتَهـــا بَـل مـالَ عَنهـا وَلاحَـت رَوضَـةً أُنُفـا

وقال يرد على قصيدة للشيخ الامام إبراهيم الحجافي – حيث أرسل إليه قصيدة يهنئه فيها بالسلامة– ، حيث يصور قصيدته بنظمها وانسجامها بالغيث في تسلسله، يقول[4]:

ذو الـــــنظم كالغيـــــث انســـــجاماً إذا دعـــاه لا يخطـــئ صـــوب الصـــوابْ

ومن المعاني المستمدة من الطبيعة وصف المحبوب البدر في الجمال والغصن الطري، الذي يسرق العقول والقلوب ، يقول[5]:

مـــن لـــي بِـــهِ كالبَـــدرِ إِلّا أَنَّـــهُ كالغُصـنِ يسـبي المُجتنـي وَالمُجتَلـي

---

(١) الديوان :١١٢.

(٢) الديوان :١٩٣.

(٣) الديوان :١١١.

(٤) الديوان :٢٠٤.

(٥) الديوان :١٣٤.

ومن التصوير المستمد من الطبيعة تشبيه قوام المحبوبة بالغصن، لغرض تزيين المشبه، مثل قوله[١]:

وَأَهيـــفٍ خَطَـــرَت كَالغُصـــنِ قامَتُـــهُ فَكُـلُّ قَلـبٍ إِلَيهـا مِـن هَـواهُ هَفـا

وفي صورة تجمع القد والعجز، فتراه يرسم صورة الغصن المرتكز على الشجرة كثيفة الأوراق، يقول[٢]:

وَقَـدُّهُ قَـد رسـا مِـن تَحتِـهِ كفـلٌ كالغُصنِ فَوقَ الكثيبِ الراسِخِ الراسى

أما تمايل خصره وقده فهي كاليزني الناعم ، أما لحظه مثل السيف القاتل، يقول[٣]:

تَهتَـزُّ كـاليَزَنيّ اللَـدنِ قامتُـه وَإِنَّمـا لحظُـهُ سَـيفُ بـنِ ذي يَـزَنِ

أما صورة خده فهو كشقيقة النعمان الطري في جمالها ورقتها ، ولونها الأحمر البراق، فالشمس تبقى محجوبة خجلة من جماله، فيقول[٤]:

ذو وَجنَـةٍ كالشَـقيقِ الغَـضِّ فـي تَـرَفٍ يَظَـلُّ مِنهـا جَبـينُ الشَـمسِ منكسِـفا

وفي وصف الريق فقد شبهه بالخمر، لكنه يفوق الخمر حلاوة، يقول[٥]:

وَريقتُـهُ كـالخَمرِ لَكِنَّهـا حَلَـت وَحَلَّت فَكانَت فـي فَمـي مِنـهُ أَسوَغا

وعلى سبيل التشبيه البليغ تراه يصف الريق بكأس الخمر، يقول[٦]:

دَعـي العِتـابَ وَهـاتي كـأسَ فيـكِ فَمـا فـي ذا الحَـديثِ رَعـاكِ اللَـهُ أَوهـاكِ

وهذا التصوير المستمد من الطبيعة تراه غالباً يستخدمه في وصف جمال المحبوبة؛ لأن الطبيعة بأزهارها ، وأشجارها ، وسمائها ، وجبالها ، وغيرها من مظاهر الطبيعة منبع الجمال، وتجد الشاعر قد برع في استخدام هذا المظاهر في تصوير محبوبه.

---

(١) الديوان :١٠٩.
(٢) الديوان :١٨١.
(٣) الديوان :١٨٧.
(٤) الديوان :١٠٩.
(٥) الديوان :١٦٦.
(٦) الديوان :١٧٩.

وتراه يستمد صورته من أدوات الحرب ، مثل تشبيه بلاغة ممدوحه وفصاحته ، بالسيف الخاطف، يخطف به بصر الأعداء، مثل البرق الذي يخطف الأبصار، يقول[١]:

مِـن كُـلِّ حَـرفٍ مِثـلِ سَـيفٍ خـاطِفٍ بَصَـر العِـدا كـالبَرقِ لَمـعُ فرِنـدِهِ

وسر الجمال فيها التجسيم.

ويستخدم الرمح في وصف قد المحبوبة، والهدف لهذا الرمح هو القلب، وتراه يصورها بالرمح القاتل الذي يطعن القلوب، يقول[٢]:

لا طعـنَ فيـهِ وَقَـدُّ الـرُمحِ قامتُـهُ لَكِـنَّ قَلبـي لَـهُ أَضـحى كَبُرجـاسِ[٣]

أما نظرات محبوبه فهي قاتلة الشاعر فمقلتها كالسهم ، والحاجب قوسه ، والهدف الذي يرمى إليه هو قلب الشاعر[٤]:

كالسَـهمِ مُقلَتُـهُ وَالقَـوسِ حاجِبُـهُ وَمُهجَتـي لَهمـا قَـد أَصـبَحَت هَـدَفا

ومن كثرة قتلى عشاقه فقد صور رمح قامته بطاعون عمواس، يقول[٥]:

أَضـحى لعشّـاقِهِ مـن رمـحِ قامتـهِ طعـنٌ ذكرنـا بِـهِ طـاعونَ عَمـواسِ

أما جفن المحبوب فقد شبهه بالسيف، وشبه لمعان وجمال وبريق وجنتيها بما يرى من انعكاس ضوء السيف عليها، وغمد ذاك السيف هو القلب، فيقول[٦]:

وَجفـنٍ كَسَـيفٍ وجنتـاكِ فرِنـدُهُ صَـقيلٍ وَلَكِـنّ القلـوب غمـودهُ

فقد شبه الخد بالأخدود التي تسير فيه نار الدمع كناية عن شدة الشوق، يقول[٧]:

---

(١) الديوان :١٧٥.

(٢) الديوان :١٨١.

(٣) البُرْجاس : البُرْجاس : هدفٌ يُنصب على رُمح أو سارية (يونانية) ومعناه عندهم : رمح أو سارية في أعلاه كرة من ذهب أو فضة ، يرميها الحُذَّاق وهم على الجياد . والجمع : براجيس.(المعجم الوسيط: ٤٧/١).

(٤) الديوان :١٠٩.

(٥) الديوان :١٨١.

(٦) الديوان :١٥٨.

(٧) الديوان :١٢٩.

النـــارُ ذاتُ وَقـــودٍ فـــي جَوانِحِـــهِ شَـوقاً وَفـي خَـدِّهِ لِلـدمع أخـدودُ

فتجد الكلمات السيف والرمح، والقوس، البرجاس، الغمد، ألفاظ حرب وقتال ولها تأثير كبير في إحداث الجرح بالأعداء، وقد استخدمها الشاعر في وصف مدي تأثير جمال المحبوب فيه، فالرمح –وهو قد المحبوبة– أصبح قلب الشاعر الهدف الذي يسدد إليه، وكذلك السهم – وهي نظرات المحبوبة– ، والسيف –هو الجفن– أضحى القلب غمده، كلها صور تبين مدى التأثير في نفس الشاعر.

ومن الصور المستمدة من حياة الشاعر، استخدامه للتشبيه البليغ في تشبيه الموت بالكؤوس التي يتشرب منها الطغاة، وقد وردت هنا الكؤوس جمعاً، كعامل نفسي عجل من شفاء قلوب المؤمنين، يقول(١):

وَسَـقى الطُغـاةَ كـؤوسَ حتـفٍ عجّلَـت لِلمـــؤمِنينَ ذهـــابَ غَـــيظِ قُلـــوبِ

وتشبيه الشرك بالقميص، إنما كان هذا التشبيه لبيان هوان الشرك ،وخفته ، وعدم تماسكه، وسهولة تمزيقه، يقول(٢):

وَفـي حنـينٍ قَمـيصُ الشِـركَ لَـيسَ لَـهُ لَمّـا تَمَـزَّقَ رافٍ مِـن عـداهُ رَفـا

وهنا تجسيم للصفة المعنوية – الشرك – بتشبيهها بشيء محسوس وهو القميص.

وقد صور نفسه أسيراً بقيود الغرام(٣):

قولـــوا لِمَـــن ملـــكَ الفـــؤادَ بِأَســـرِهِ فَغَـــدا بِقَيـــدِ غَرامِـــهِ مَصـــفودا

فقد شبه الغرام بالقيد الذي يصفَّد به الإنسان، وسر الجمال هنا التجسيم.

---

(١) الديوان :١٠٦.

(٢) الديوان :١١١.

(٣) الديوان :١١٤.

ويشبه اللوم في هواه كالهواء، الذي لا يطفئ نار الشوق والحب، وشبه أيضاً الشوق بالنار، التي لا تخمد حتى بالبكاء، وشبه اللوم بالرياح، على سبيل التجسيم، يقول[1]:

هَـــوى فيـــهِ المَلامـــة كَـــالهَواء فَـــلا يَطمَـــع لِنـــاري فـــي اِنطِفـــاءِ

أعـــاذِلُ إنّ نـــار الشـــوق تَـــذكو وَلَـــم يخمِـــد تلهُّبهـــا بُكـــائي

ويبعـــد طفوُهـــا بِريـــاح لـــوم ومـــن جفنـــيّ لَـــم تخمـــد بِمـــاءِ

وقد شبه في مقطوعه كلام ممدوحه بالضرع الذي يدر المعاني الحسان، يقول[2]:

يـــا أيهـــا القاضـــي الـــذي مـــراده موافـــقٌ حكـــمَ القضـــاءِ والقـــدرْ

درَّ لـــــه ضـــــرع الكـــــلامِ حـــــافلاً حتـــى احتـــوى علـــى المعـــاني واقتـــدرْ

(١) الديوان :١٢٠، ١٢١.

(٢) الديوان :٢٤٦.

الاستعارة:

الاستعارة في اللغة : مشتقة من العارية ، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر، وفي الاصطلاح: استعمال اللفظ في غير وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي[١].

ومن مظاهر التصوير في الاستعارة : التشخيص والتجسيد في المعنويات ، وبث الحركة والحياة في الجماد فتحول الصورة من شكل صامت إلى شكل متحرك[٢].

وإذا نظرت في ديوان ابن حجر ترى أن شعره قد حفل بنوعي الاستعارة (التصريحية والمكنية)، وتلاحظ أيضاً أن الاستعارة المكنية الأكثر وروداً في شعره وذلك لما تتسم به من خاصيتي التشخيص والتجسيم.

الاستعارة المكنية:

وهي ما حذف منها المشبه به (المستعار منه) ، وبقيت صفة من صفاته ، أو لازمة من لوازمه، ومن أمثلة ذلك عند ابن حجر[٣]، قوله[٤]:

يا مخجلَ الشمسِ بالإشراق إنَّ فتى طلعْتَ في داره يوماً لمسعود

فقد شبه الشمس بشخص يخجل، وهو بذلك أضفى على الشمس صفة من صفات البشر وهي الخجل فيكون سر جمال التصوير هنا التشخيص.

ومن ذلك أيضاً، قوله[٥]:

فالغَيثُ مِن جودِهِ في الجَدبِ مغتَرِفاً كاللَيثِ مِن بأَسِهِ في الحَربِ معترفا

---

(١) من بلاغة القرآن ص٢١٥.
(٢) السابق : ص ٢٣٠.
(٣) السابق : ص٢١٧.
(٤) الديوان :١٢٩.
(٥) الديوان :١١٠.

فالغيث يغترف من جوده ونداه، والليث يعترف ببأسه وقوته، وهو بذلك قد أضفى على الغيث والليث صفات بشرية، لغرض التشخيص.

ومن ذلك قوله[١]:

والطيـف مـا زار إذ بـاب الزيـارة مـن فـرط السـهاد بفـتح الجفـن مسـدودُ

فقد شبه الطيف بإنسان يقع منه الزيارة، وسر الجمال التشخيص.

وقوله[٢]:

أحبابنـا عبثـت أيـدي السـقام بنـا مـن بعـدكم فبماضـي ودِّكـم عـودوا

فقد شبه السقام بإنسان له أيدٍ تعبث بالآخرين، وسر جمال التصوير التشخيص.

وقوله[٣]:

قد أمن الكون من خوف ونـوَّره منزلـةً أبنـاؤه الغـر أو آبـاؤه الصّـيدُ

فقد شخص الكون وجعله يأمن من الخوف.

وفي صورة الأمن والطمأنينة التي يعيشها رعاياه، فالبرق على ما فيه من القوة والقدرة على القتل، وما يثيره في النفوس من الخوف ، تراه يرتجف رعباً من الملك، يقول[٤]:

نـام الرَعايـا وَقَلـبُ البَـرق يَخفـق مـن رعـب بِـه وبطـرف الـنجم تسـهيدُ

فقد شخص البرق وجعل له قلب يخفق.

وقد صور حال رمحه وهو يسقيه من دماء الأعداء على سبيل التشخيص، لتخرج الثمار وهي هامات الأبطال، يقول:

سـقى الرمـاح دمـا الأعـداء مبتـدراً فكـان إثمارهـا هامـات أبطـال

---

(١) الديوان :١٣٠.
(٢) الديوان :١٣٠.
(٣) الديوان :١٣٢.
(٤) الديوان :١٣١.

ومن صور الرعب التي زرعها في قلوب أعدائه، فقد شبه الرعب بالسيف الذي يقطع الرقاب، يقول[١]:

سُـلَّت رؤوسـهم بالرعـب مِـن أَمَـدٍ وَطـرفُ مُرهَفِـهِ فـي الجفـن مَغمـودُ

وكذلك قوله[٢]:

إن مـاسَ تَجـري مُقلَتـي بِـدِمائِها فَكَـأَنَّني فيهـا طُعِنـتُ بِقَـدِّهِ

فعيناه لم تذرفا الدموع بل الدماء، كأنها طعنت بالرمح الذي هو قوام المحبوبة، فقد شبه قوام المحبوبة بالرمح الذي يطعن به، وسر الجمال هنا التوضيح وتقريب الصورة للمتلقي.

وشبه نفسه بالشجرة التي تحيا بالماء فتصبح مخضرة، وتذبل بدونه، وهذا الماء بالنسبة له هو وصال المحبوبة، يقول[٣]:

قَد اِصفرّ فـي يَـوم القِلـى منـك جسـمهُ وَمـا اِخضرَّ فـي يَـوم اللقـا بـك عـودُهُ

شبه آثار النبي – صلى الله عليه وسلم – بالدواء الشافي لمرض الذنوب، فيقول[٤]:

آثـارُ خَيـرِ المُرسَـلينَ بِهـا شِـفا داء الـذُنوبِ لِخـائِفٍ يَتهَـوَّمُ

وسر الجمال هنا التجسيم ، فالآثار أصبحت دواء.

الاستعارة التصريحية:

ويقول على سبيل الاستعارة التصريحية[٥]:

هِـلالٌ وَلَكِـنَّ القُلـوب مَحلُّـهُ غَـزالٌ وَلَكِـن العـذار زرودهُ

فقد شبه جمال المحبوبة بجمال الهلال في إضاءته ونوره ولمعانه.

---

(١) الديوان :١٣١.
(٢) الديوان :١٧٣.
(٣) الديوان :١٥١.
(٤) الديوان :١٠٠.
(٥) الديوان :١٥٠.

ومن الملاحظ أن ابن حجر استخدم علم البيان بأساليبه وأنواعه فتراه يكثر من التشبيه في تقريب الصورة لذهن السامع ،والاستعارة التصريحية وما لها من تأثير في النفوس يعتمد على الخيال، وعرض الصور حسياً مجسماً، فإذا كان التشبيه يأتي لبيان المعنى وإيضاح الفكرة ، فإن الاستعارة أكثر ما تكون تستعمل في القوة وشدة التأثير على السامعين[١].

وفي الاستعارة التصريحية ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: " من الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُستجَدَّةٍ تزيد قَدرَه نُبْلاً، وتوجب له بعد الفضلِ فضلاً، وإنَّكَ لَتجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ومن خصائصها التي تُذكرَ بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ"[٢].

وقد عمد أيضاً ابن حجر في صوره على التشبيه البليغ الذي ينبئ بالتطابق بين المشبه والمشبه به بدون فواصل – الأداة ووجه الشبه–.

---

(١) انظر : من بلاغة القرآن، ص ٢٢٩.

(٢) عبد القاهر الجرجاني(المتوفى: ٤٧١هـ) : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ت، ص ٤٣.

الموسيقى الشعرية

تعريف القدماء للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، جعل ما يميز الشعر عن غيره الوزن والقافية ، "فالوزن له قيمة كبرى في الشعر حتى عُدَّ أهم فارق بينه وبين النثر"[١] ، وقد أضاف إليه بعض النقاد الخيال فقال ابن خلدون : " الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي"[٢].

أما المحدثون وضعوا أركاناً ثلاثة يجب أن تتوافر في الكلام ليسمى شعراً :

أولها : أن معانيه تصب في صور خيالية تثير خيال القارئ أو السامع .

ثانيها : أن تتوافر في ألفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى ، وذلك بأن يكون اللفظ رقيقاً في موضع الرقة ، قوياً عنيفاً في موضع القوة والعنف ، وأن تتوفر فيه صفة الجرس الموسيقي ، وألا يكون اللفظ مبتذلاً أو كثير الشيوع لا يرتاح إليه الذوق الشعري.

ثالثها : الوزن الشعري وخضوع الكلام في ترتيب مقاطعه إلى نظام خاص[٣].

والناظر إلى نشأة علم العروض يرى مدى الارتباط بينه وبين الموسيقى فعلاقة الشعر وعلم العروض بالموسيقى علاقة السبب بالمسبب ، فدراية الخليل بن أحمد بعلم الموسيقى والإيقاع كان سبباً في تأليفه علم العروض [٤]، كما يقول القفطي " وله – أي الخليل– علم بالإيقاع، وله كتاب فيه. ومعرفته بالنّغم ومواقعها أحدث له علم العروض"[٥].

فبذلك يتضح أن بداية هذا العلم – أي الشعر– بداية موسيقية، ترتبط بما يوقعه هذا الكلام الموزون المقفى، على المتلقي من أثر وترنم.

---

(١) أحمد أمين: في النقد الأدبي، ص ٨٧.

(٢) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ط١ ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م، ص ١٩.

(٣) انظر: السابق، ص ٢٠.

(٤) انظر: (مقدمة البارع في علم العروض ، ص ٧٨)
ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) : البارع في علم العروض ، دراسة وتحقيق : أحمد محمد عبد الدايم، الطبعة الثانية، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، والسعودية، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥.

(٥) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٢م، ٣٧٨/١.

وقد ربط بعض النقاد الموسيقى بالشعر حتى جعلها بمثابة الألوان للصورة ، من ذلك ما قاله شوقي ضيف: "ولا تزال طوابع هذه النشأة بارزة في الشعر، فلا يوجد شعر بدون موسيقى ، وهي فيه تقوم مقام الألوان في الصورة ، فكما أنه لا توجد صورة بدون ألوان كذلك لا يوجد شعر بدون موسيقى وأوزان وأنغام"(١).

كما أن الموسيقى في الشعر خصائص تأتيه من الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية، والموسيقى الداخلية المتمثلة في ألوان البديع كالجناس، والمقابلة والتقسيم والتصريع وغيرها من ألوان البديع ، هناك نوع آخر من الموسيقى وهي الموسيقى الخفية كما أطلق عليها شوقي ضيف، واعتبر أن هذه الموسيقى الخفية التي تمييز بين الشعراء، فيقول: "على ان موسيقى الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقوافي ، ووراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"(٢).

أما وجه الشبه بين الشعر والموسيقى يتجلى في أن كلاً من الموسيقى والأوزان الشعرية تتنوع أنواعاً أربعة ، فالصوت يختلف عن الصوت بالطول والقصر ، وأنه جهوري أو خافت ، وأنه غليظ أو رقيق ، وأنه مرتفع أو منخفض ، وأنه يختلف باختلاف مصدر الصوت كعود ، أو كمان ، أما الاختلاف الأول نلاحظه في الشعر في اختلاف التفاعيل والبحور طولاً وقصراً ، والحركات والسكنات، فالطويل أطول في التفاعيل من الهزج مثلاً ، وهذا الاختلاف تأثير كبير في الأذن الموسيقية، أما الثاني الاختلاف في الغلظ والرقة ممكن أن تقابلها بما في الشعر من حروف ضخمة وتراكيب قوية ، أو حروف لينة رخوة وتراكيب ناعمة، وترى من جهة ثالثة ما يتناسب مع الهدوء والسكينة ، ويناسبه إنشاده في هدوء ورقة كشعر الغزل ، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش كشعر الحماسة، ومن ناحية رابعة تلاحظ في الموسيقى أن النغمة الواحدة تختلف

---

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص ٩٧.

(٢) السابق: ص ٩٧.

باختلاف المصدر ، وهذا يقابله في الشعر القافية ، فالقصيدتان قد تكونان في موضوع واحد ، ومن بحر واحد ، ولكنهما تختلفان في القافية، فتختلفان في درجة التأثير[١].

وأما علاقة الأوزان بالأغراض الشعري وما تحويه من معانٍ ومضامين ، فيقول حازم القرطاجي: "ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل مقصد"[٢].

(١) انظر: أحمد أمين، في النقد الأدبي، ص ٨٧ – ٨٩.

(٢) حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٩.

الموسيقى الخارجية :

أولاً : الوزن

اعتمد ابن حجر في صياغة قصائده على البحور الطويلة وذات المقاطع الكثيرة كالطويل والبسيط والكامل والوافر ، وهي بحور ظاهرة الشيوع في الشعر العربي، وأكثرها شيوعاً الطويل "فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي من هذه الوزن"[١]، وقد سار ابن حجر على منوال القدماء في الاعتماد على البحور الطويلة ، نظراً لأنها تتيح للشاعر الحرية في التعامل مع الألفاظ، وتمنحه الانطلاق في التعبير عن معانيه، وتعطيه مجالاً أوسع في تضمين كلماته ما يريد إيصاله من أفكار ومعانٍ، ونظراً لاتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات، ولأن الصورة التي يريد أن يرسمها لا تكتمل في البحور القصيرة، فهي بطبيعة تفعيلاتها، مقاطعها الكثيرة، تسمح بحشد الألفاظ المختارة التي يبلغ فيها ما يرمي إليه من التأثير[٢]، انظر الجدول رقم (١).

الجدول رقم (١)

ترتيب البحور الشعرية حسب نظمها في الديوان:

#	البحر	عدد القصائد	نسبتها	عدد الأبيات	نسبتها
١	الطويل	١٦	٣٧.٢	٤٩٩	٢٩.٥
٢	البسيط	٩	٢٠.٩	٤٩٢	٢٩.٢
٣	الكامل	٦	١٣.٩	٣١٠	١٨.٤
٤	مجزوء الكامل	٢	٤.٦	١٣٩	٨.٢
٥	الوافر	٢	٤.٦	٦٨	٤.٠
٦	السريع	٢	٤.٦	٥٤	٣.٢
٧	المجتث	٢	٤.٦	٤٧	٢.٨
٨	الهزج	٢	٤.٦	٣٠	١.٨

(١) ابراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص ٥٧.

(٢) انظر: نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٣٧٠.

٩	مخلع البسيط	١	٢.٣	٢٧	١.٦
١٠	مجزوء الرجز	١	٢.٣	٢١	١.٢
المجموع		٤٣	–	١٦٨٧	–

أما عن أكثر المواضيع التي طرقها ابن حجر فهي المدائح (النبوية و الملوكيات والأميريات) التي تجتمع في اثنتين وعشرين قصيدة من أصل ثلاث وأربعين ، أي بنسبة ٥١% ، أي حوالي نصف ديوان ابن حجر، أما عدد الأبيات فيفوق النصف بواقع ٦١.٦%، وهذا ما يفسر لجوئه للبحور الطويلة لما في المدائح من كثرة في المعاني ووفرة في التصوير والتشبيهات والاستعارات، انظر الجدول رقم (٢).

جدول رقم(٢):

قصائد المدائح (النبوية ، الملوكيات ، الأميريات)

ت	البحر	عدد الأبيات	عدد القصائد	متوسط عدد الأبيات في القصيدة
١	الكامل	٣١٠	٦	٥٢
٢	الطويل	٢٩٥	٨	٣٧
٣	البسيط	٢٥٠	٥	٥٠
٤	مجزوء الكامل	١٣٩	٢	٦٩.٥
٥	الوافر	٤٦	١	٤٦
المجموع		١٠٤٠	٢٢	٥١
النسبة المئوية		%٦١.٦	%٥١	–

أما طول قصائده في المدح فتجده يميل إلى القصائد الطويلة إلى المتوسطة فقد بلغت أطول قصيدة له في المدح من بحر مجزوء الكامل ١١٠ أبيات ، وأقصر قصيدة لديه ٢٢ بيتاً من بحر الطويل، وبلغ متوسط عدد الأبيات في قصائد المدح ٥١ بيتاً ، كما يتضح من الجدول رقم (٢).

أما قصائد الغزل فاقتصر فيها على بحري الطويل والبسيط ، الذَين يتصفان بالطول وكثرة المقاطع ، واستخدام ابن حجر لهذين البحرين في الغزل لنفس السبب الذي ذكرته في المدائح، ولكن اعتمد ابن حجر على القصائد قليلة الأبيات ، نظراً لأن غزله عبارة عن خواطر من الأشواق لأهله وبلده ولأحبابه ، فكانت أقصر قصيدة في الغزل من بحر الطويل تبلغ ١٢ بيتاً ، وأطولها أيضاً من بحر الطويل وصل إلى ٥١ بيتاً، وكان متوسط عدد الأبيات في قصائد الغزل ٢٧ بيتاً، أما نسبة قصائد الغزل إلى قصائد الديوان فبلغت ١٦.٢ % كما يتضح من جدول رقم(٣).

جدول رقم (٣):

ت	البحر	عدد الأبيات	عدد القصائد	متوسط عدد الأبيات في القصيدة
١	الطويل	١٢٩	٥	٢٦
٢	البسيط	٥٧	٢	٢٨.٥
المجموع		١٨٦	٧	٢٧
نسبة الشيوع		١١.٠	١٦.٢	–

أما الموشحات فلما لها من نغم موسيقى خاص نابع من وزنها الخاص حيث عرفه ابن سناء الملك بأنه " كلام منظوم على وزن خاص"[١].

ويأتي هذا النغم الموسيقى من تعدد الوزن والقافية، فهي لا تسير على النمط التقليدي في اختيار بحر معين وقافية موحدة في كل القصيدة.

وهذا نوع من التجديد في الموسيقى الذي نشأ في الأندلس متأثراً بالغناء الشعبي ، وهذا ما يفسر انتشار العامية فيه.

وقد قسم ابن سناء الموشحات إلى قسمين من حيث بنائها على الأوزان العربية ، فالأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها[٢].

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، دمشق، ١٩٤٩، ص٢٥.
(٢) انظر : السابق ص٣٣.

أما البحور التي تستخدم في الموشحة تتسع فيها الحرية والتنوع فيمكن أن تستخدم في الموشحة تاماً، ومجزوءاً، ومشطوراً.

وهذا ما التزم به ابن حجر في موشحاته فتراها سارت على النمط الاول القائم على أوزان الشعر العربي ، المتصفة بالخفة والسهولة ، والقليلة في المقاطع ، فالسريع مثلاً سمي بذلك لسرعته في التذوق والتقطيع[١]، والبحر المجتث سمي بذلك لاجتثاثه من البحر الخفيف لخفته في الذوق والتقطيع[٢]، وبحر الهزج الذي سمي بذلك تشبيهاً له بهزج الصوت أي تردده، وهو بحر ذو إيقاع ونغم[٣]، أما الرجز فهو بحر سهل الاستخدام أقرب للنثر[٤].

ونسج موشحاته على البحور التامة من أمثال السريع والمجتث والهزج ، والبحور المجزوءة مثل مجزوء الرجز ، ومخلع البسيط[٥]، كما هو مبين في الجدول رقم (٤).

جدول رقم (٤):البحور الشعرية في الموشحات.

#	البحر	عدد القصائد
١	المجتث	٢
٢	الهزج	٢
٣	السريع	١
٤	مخلع البسيط	١
٥	مجزوء الرجز	١
المجموع		٧

أما القطع الشعرية التي كتبها ابن حجر فقد تنوعت أوزانها الشعرية بين البحور الأكثر استخداماً ، وأقلها تناولاً بين الشعراء ، فاعتمد على البحور الطويلة في نظم مقطوعاته من أمثال الطويل والكامل والبسيط والوافر ، كذلك استخدم البحور الخفيفة ذات خصائص الخفة والسرعة

---

(١) انظر : عبد الخالق العف : العروض والقافية ، د.ط ، ٢٠٠٤، ص ٦٥.

(٢) السابق: ص٦٩.

(٣) السابق: ص٥١.

(٤) السابق: ص٥٣.

(٥) يعد مخلع البسيط صورة من صورة مجزوء البسيط التي تجيء مقطوعة العروض والضرب ، ثم يدخله الخبن. انظر : عبد الخالق العف : العروض والقافية، ص٣٦.

وسهولة تذقها من أمثال دائرة المشتبه (الهزج، والرجز ، والرمل) ، ودائرة المجتلب (السريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمقتضب والمجتث) ، وله أيضاً ثلاثة قطع على وزن (دو بيت)[١].

كما هو ملاحظ من الجدول رقم (٥) أنه استخدم جلّ الأوزان العربية، بالإضافة إلى وزن مستعار من الفارسية، ليظهر براعته في النظم.

جدول رقم (٥):

ترتيب البحور الشعرية حسب نظم القطع الشعرية

#	البحر	عدد القطع
١	الطويل	٣٢
٢	الكامل	٢٦
٣	السريع	١٦
٤	البسيط	١٦
٥	الوافر	١٤
٦	الخفيف	١٣
٧	المجتث	١٠
٨	الرمل	٧
٩	المنسرح	٧
١٠	الرجز	٦
١١	المتقارب	٥
١٢	المقتضب	٣
١٣	دوبيت	٣
١٤	الهزج	٢
المجموع		١٦٠

(١) هذا الوزن ليس وزناً مخترعاً ولكنه مستعار من اللغة الفارسية، وقد وصفه العروضيون بأنه (فعْلن متفاعلن فعولن فعِلن) فوزنه مستعار من اللغة الفارسية، لكن الذوق العربي لم يألف هذا الوزن، فاستخدموه بتنوع قوافيه، لكن في وزن عربي.(موسيقى الشعر: ٢١٤).

ثانياً: القافية

تمثل العنصر الثاني من عناصر الموسيقى الخارجية القافية معناها مؤخر العنق، وموقعها في الشعر في أواخر الأبيات، أما المعنى الاصطلاحي العام للقافية فهي : " المقاطع الصوتية التي تتكرر في أواخر أبيات القصيدة"(١).

والقافية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي: هي مجموع الحروف التي تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت الشعري مهما بلغت عدد المتحركات بين الساكنين"(٢).

أما ابن حجر فعمد إلى استخدام القوافي المطلقة " وهي التي يكون فيها الروي متحركاً"(٣)، وذلك لما لها من أثر موسيقي في أذن المتلقي فهو كثير شائع في الشعر العربي ويلتزم الشعراء حركته ، ويراعونها مراعاة تامة لا يحيدون عنها(٤)، أما القافية المقيدة " وهي التي يكون الروي فيها ساكناً"(٥) فلم يستخدمها إلا في قصيدة قصيرة من ٢٧ بيتاً ، حيث إن هذا النوع من القوافي قليل الشيوع في الشعر العربي (٦)، كما هو موضح في الجدول رقم (٥).

جدول رقم (٦): حركات الروي في قصائد الديوان(المدائح النبوية ، والملوكيات والأميريات والغزل) وعدد أبيات كل حركة:

#	حركة الروي	الأبيات	القصائد
١	الكسرة	٧٤٧	١٨
٢	الفتحة	٣٨٩	٨
٣	الضمة	٣٧٢	٩
٤	المقيد	٢٧	١
المجموع		١٥٣٥	٣٦

(١) عبد الخالق العف : العروض والقافية، ص ٧٣.
(٢) السابق: ص ٧٣.
(٣) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص٢٥٨.
(٤) السابق: ٢٥٨
(٥) السابق: ٢٥٨
(٦) السابق: ٢٥٨

وكذلك عمد ابن حجر في بعض قصائده إلى اتباع حركة الروي بألف الإطلاق بهدف الحصول على كثافة في الجمال الموسيقي، مثل قصيدته[1]:

وَإِن شَـــكَكتَ فَســـائِل عـــاذِلي شـــجني هَـل أَشـكو الأَسـى وَالبـينَ وَالأَسَـفا

وقصيدته[2]:

يـــا سَـــعدُ لَـــو كُنـــتُ اِمـــرءاً مَســـعودا مـا كـانَ صَـبري فـي النَـوى مَفقـودا

(١) الديوان:١٠٨.

(٢) الديوان:١١٤.

وقد حدد ابن حجر حروف الروي في أربعة عشرة حرفاً، وبنى عليها قوافيه في الأغراض المختلفة، ولم يقتصر روي ما على غرض بعينه، فقد كانت حروف الروي مشتركة في أغراضه المختلفة.

جدول رقم (٧):

حروف الروي في قصائد الديوان وعدد أبيات كل حرف

#	حرف الروي	عدد الأبيات	عدد القصائد
١	الدال	٢٧٥	٦
٢	اللام	٢٤٩	٧
٣	الباء	٢٠٢	٦
٤	الراء	١٩٣	٣
٥	الميم	١٨١	٢
٦	الفاء	٩٦	٢
٧	السين	٨٦	٢
٨	النون	٦٣	٢
٩	العين	٥٦	١
١٠	الهمزة	٤٦	١
١١	الكاف	٢٦	١
١٢	الغين	٢٢	١
١٣	الزاي	٢٢	١
١٤	الجيم	١٨	١
	المجموع	١٥٣٥	٣٦

والناظر إلى قوافي ابن حجر ، يجد أنها هي الحروف الأكثر شيوعاً في قوافي الشعر العربي، كاللام والدال والميم والباء والراء، والتي حددها اللغويون[١].

وقد نظم قصائد قليلة وقصيرة على قوافٍ نادرة الشيوع، مثل: الزاي، والغين.

(١) انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ص٢٤٦.

الموشحات

إن التنوع في قوافي الموشحات جعل لها بصمة خاصة في عالم موسيقى الشعر، وهذا التنوع بناء على القواعد الأساسية للموشحات بحيث تتفق أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر والقفل، أما الأقفال فتكون متفقة مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها[١]، وتجد هذا التنوع في القوافي لدى موشحات ابن حجر.

القطع الشعرية

إن القطع الشعرية التي نظمها ابن حجر تتنوع في الوزن والقافية من مقطوعة لأخرى، وكذلك النظم على (الدو بيت) وما له من خصائص تتعلق بعضها بالوزن، والآخر بالقافية.

و(الدو بيت) يأتي على أربعة أشطار على قافية واحدة والشطر الثالث ليس مصرعاً معها، وتجد ذلك في قوله ابن حجر[٢]:

يا من عذل المحب في عشق قمرِ ظلماً ونهى عن التلاقي وأمرِ
الليلة في الصدود لا أحملها والساعة في البعاد أدهى وأمرِّ

وكذلك يقول[٣]:

يا عين غَنَا من لام يا بلوائي ألغزتك في الحروف والأسماءِ
من حاجبك النون ومن صدغك لي واوٌ سلبتْ بالحسنِ عقل الرائِي

ومن التجديد في قوافي الشعر العربي المواليا الذي يتميز عن غيره في التحلل من إعراب بعض الألفاظ ، وذلك بإسكان أواخرها كما هو الحال في اللغة العامية، ثم التنويع في القافية ورويها، ويعد هذا تطور في القافية وتنويعها من ناحية ، وقواعد الإعراب من ناحية أخرى[٤].

---

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، ص ٢٥، ٢٦.
(٢) الديوان:٢٧٢,٢٧٣.
(٣) الديوان:٢٧٢.
(٤) انظر : موسيقى الشعر ٢٠٩.

وتجد المواليا لدى ابن حجر في قوله[1]:

يوسف ملك وقميص الحُسن ملبوسو

لمَّا عشقتو عليَّ أنعم بتكبيسو

قام العذول بتفنيدو وتعبيسو

واحسرتو حين أزور الحِبّ وابوسو

إن التنوع في قافية القطع الشعرية من مقطوعة لأخري يحدث أثراً موسيقياً جميلاً، كما يوضح الجدول رقم (١٠)، فإن ابن حجر استخدم أغلب حروف اللغة العربية في قافية قطعه وكان أكثرها النون بما فيه من نغمة موسيقية جميلة، وكذلك حرف الراء وما فيه من نغمة جميلة في ترديده، وغيرها من الحروف الهجائية.

(١) الديوان :٢٧٢.

جدول رقم (١٠):

ترتيب حروف الروي في قطع ابن حجر

#	الحرف	عدد القطع
١	النون	٢٦
٢	الراء	٢٢
٣	اللام	١٦
٤	الدال	١٣
٥	الميم	١٣
٦	الحاء	١٠
٧	الباء	٩
٨	السين	٧
٩	القاف	٦
١٠	التاء	٥
١١	الكاف	٥
١٢	العين	٤
١٣	الياء	٤
١٤	الهمزة	٣
١٥	الضاد	٣
١٦	الفاء	٣
١٧	الهاء	٣
١٨	الزاي	٢
١٩	الشين	٢
٢٠	الصاد	٢
٢١	الثاء	١
٢٢	الطاء	١
المجموع		١٦٠

أما حركات الروي في القطع فقد اعتمد ابن حجر في قطعه على الروي المكسور، ويلاحظ أنه اعتمد أيضاً على القافية المقيدة على غرار ما كان من نظمه لقصائده الطوال، انظر جدول رقم (١١).

جدول رقم (١١):

ترتيب حركات الروي في القطع الشعرية

#	حركة الروي	عدد القطع
١	الكسرة	٥٧
٢	الفتحة	٤٨
٣	المقيد	٣٣
٤	الضمة	٢٢
	المجموع	١٦٠

وقد نظم ابن حجر بعض مقطوعاته على ما يقرأ على وجهين في قافيتين ، وذلك مثل قوله[١]:

أيهـــا الشـــيخ المطيـــع هـــواه دعْ هذي الدعابة * قـــد أتـــى داعـــي الـــرَّدى

وخيـــوط هـــذا الشـــيبِ لا تنســـج بهـــا ثوب الصبابة * فهـــي مـــا خلقـــت ســـدى

وكذلك قوله[٢]:

نســـــــيمكم ينعشـــــــني والـــــــدجى طـــال فمـــن لـــي بمجـــيء الصَّـــبَا*حْ

ويـــــا صِـــــبَاح الوجـــــه فـــــارقتكمْ فشِـــبْتُ همَّـــاً إذ فقـــدتُ الصِّـــبَا*حْ

(١) الديوان:٢٤٥.

(٢) الديوان:٢٤٥.

الموسيقى الداخلية:

- **التصريع:** وهو بناء الشطر الأول من البيت الأول في القصيدة على رويها ، فهو أن يجعل العروض مقفاة تقفية الضرب، وهو مما استُحسِن ، حتى إن أكثر الشعر صُرِّع البيت الأول منه(١).

وتجد ذلك في كل مقدمات قصائد ابن حجر حيث سار على نهج القدماء الذين عمدوا إلى التصريع في البيت الأول من القصيدة ، ومن الأمثلة على ذلك، مطلع قصيدته(٢):

لا تَقطعــوا باتصــالِ الهَجــرِ أَوصــالي وَوافقــوني فَقَــد خالَفــتُ عــذّالي

وكذلك مطلع قصيدته(٣):

مُحِــبٌّ لَكُــم مــن هجــركُم يَتَوجَّــعُ نــديماهُ مُــذ غِبــتُم أَســىً وَتفجُّــعُ

وقد يجمع في تصريعه الجناس وهو أن تتشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى(٤)، وتجد ذلك في كثير من قصائده، وهو ما يطلق عليه ردُّ العجز على الصدر وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو آخره أو صدر البيت الثاني(٥) بأنواعه المختلفة فتجد مثلاً الجناس التام المماثل (٦) في تصريعه في مطلع قصيدته(٧):

لــو أَنَّ عُــذّالي لِوَجهِــكَ أَســلَموا لَرَجَــوتُ أَنّــي فــي المَحَبَّــةِ أَســلَمُ

فـ(أسلموا) الأولى بمعنى (استسلموا) ، والثانية بمعنى السلامة.

---

(١) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٦٥٩/٤.

(٢) الديوان:١٤٤.

(٣) الديوان:١٦٨.

(٤) بغية الايضاح : ٦٤٠/٤.

(٥) بغية الايضاح :٦٤٩/٤

(٦) والجناس التام هو أن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها ، والمماثل ما كانا من نوع واحد. بغية الايضاح : ٦٤٠/٤.

(٧) الديوان:٩٧.

ومثل قوله في مطلع قصيدته[١]:

سَـــرى وَالـــدراري ثغـــره وَعقـــودُهُ خَيـالٌ وَفَـت لـي بِالوصـال عقـودهُ

وقوله في مطلع قصيدته[٢]:

مـا كـانَ يَـومَ وَصَـلتِ الصَـبَّ أَفتـاكِ فَمَـــن بتعذيبـــهِ بِالصَـــدِّ أَفتـــاكِ

(أفتاك) الأولى بمعنى فتاة، والثانية أصدر لك الحكم.

وقوله في مطلع قصيدته[٣]:

آيـاتُ وَصـلِكَ يَتلوهـا عَلـى النـاسِ صـبٌّ تحرِّكُـهُ الـذكرى إِلـى الناسـي

فـ(الناس) الأولى تعني البشر، أما الثانية فتقابل التذكر.

وقوله في مطلع قصيدته[٤]:

إِن رُحـــتَ تَســـأَلُ عَـــن خِلالـــي فـــي الحُـــبِّ جِســـمي كَـــالخِلالِ

فـ(الخلال) الأولى هي الصفات والخصال ، أما (خلال) الثانية بمعنى المهازيل.

ومن ردِّ العجز على الصدر الذي يكون فيه بين اللفظين المكررين جناس مفروق[٥] تجده في كثير من مطالع قصائده ، مثلاً في مطلع قصيدته[٦]:

إِذا زَمـــزَمَ الحـــادي بـــذكرك أَو حَـــدا غَدَوتُ عَلى حكم الهَوى فيك أَوحَدا

فـ(حدا) الأولى بمعنى الغناء، أما (أوحدا) بمعنى الوحدة.

ومطلع قصيدته[١]:

---

(١) الديوان:١٥٠.

(٢) الديوان:١٧٨.

(٣) الديوان:١٨٠.

(٤) الديوان:١٨٤.

(٥) وهو ما تشابه ركناه لفظاً لا خطاً ، وسمي مفروقاً لافتراق الركنين في الخط. انظر(محمد علوان : من بلاغة القرآن ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م، ص ٢٨٢)

(٦) الديوان:١٢٥.

أَيــا بصــري حــالِف عيــون الفَراقِــدِ فَـذو السـهد وَجـداً لا يَكُـن إِلـف راقِـدِ

(الفرقد) بمعنى نجم في السماء يهتدى به وهما اثنان ويقال لهما فرقدان، ولكن الشاعر ذكرها بصيغة الجمع ليوضح حاله في كثرة ما يراقب النجوم في السماء ، أما (إلف راقد) بمعنى أن الذي يسهر بسبب الوجد والحزن لا يكون مستلقٍ على ظهره ألفة ومحبة بالسهر.

وتجد المفروق في مطلع قصيدته[٢]:

مـا دُمـتُ فـي سُـفُنِ الهَـوى تَجـري بـي لا نـــافِعي عَقلـــي وَلا تَجريبـــي

(تجري بي) بمعنى تسير بي، أما (تجريبي) بمعنى تجربتي .

وتجد المفروق في مطلع قصيدته[٣]:

فــراقٌ رمـــى قَلبـــي بِسُـــقم وأوصـــابِ وَيـا لَيتَـهُ للقرب مـن بعد أَوصـى بـي

(أوصاب) الأولى بمعنى المرض والهزال ، أما (أوصى بي) بمعنى الوصاية.

وأما الجناس الناقص فتراه في قوله في مطلع قصيدته[٤]:

أَســـتَغفِرِ اللَـــه لا ديـــنٌ وَلا حســـبُ لِخـائِنٍ غـدرَه الإِخـوانُ مـا حَسِـبوا

(حسب) الأولى بمعنى النسب والأهل ، أما (حسبوا) الثانية بمعنى ما كان في الحسبان.

والناظر إلى اهتمامه في مطالع قصائده بالتصريع تارة لوحدها ، وتارة يشملها الجناس بأنواعه وهو ما يطلق عليه رد العجز على الصدر، لما للمقدمة من دور في جلب أذن المتلقي ، فالتصريع يعطي نغماً موسيقياً جميلاً يجذب الأذواق ، والجناس يزيده رونقاً وجمالاً.

- أما ما كان من **رد العجز على الصدر** الذي يكون فيه أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في حشو المصراع الأول، فكثير عند ابن حجر، فيقول[٥]:

---

(١) الديوان:١٣٧.
(٢) الديوان:١٠٤.
(٣) الديوان:١٩٠.
(٤) الديوان:٢٠٧.
(٥) الديوان:٩٨.

وَلَقَــد كَتَمــتُ هَــواكَ لَكِــن مُقلَتــي شَــوقاً إِلــى مَغنــاكَ لَيسَــت تكــتمُ

وكذلك قوله[1]:

فاللَيــلُ يَظلمنــي فــيُظلِمُ بَعــدَهُم لَكِــن عَــذولي فــي هَــواهُم أَظلَــمُ

- أما الجناس المفروق فتجده في قوله[2]:

بَــرحَ الخَفــاءُ بِحُــبِّ مَــن ولهــي بِــهِ أَورى توقُّــدَ مُهجَتــي وَلَهيبــي

فكلمة (ولهي به) بمعنى حبي وتعلقي ، أما (ولهيبي) فمن اشتعال النار، وذكرها على سبيل الجناس المفروق يعطي رونقاً وجمالاً موسيقياً خاصاً.

وفي قوله[3]:

دَع عَنــكَ مــا تَهــذي بِــهِ عِنــدي فمــا كُلِّفــتَ إِصــلاحي وَلا تَهــذيبي

فكلمة (تهذي به) تعني الهذيان والتخريف ، أما (تهذيبي) فتعني الأدب والصلاح.

- **الجناس** وتجد الجناس بأشكاله المختلفة من ذلك الجناس التام في قوله[4]:

فقــدتكُمُ وَالوَجــدُ أَصــبح لازمــي فَيــا عجبــاً مِــن واجــد غَيــر واجِــدِ

فـ(واجد) الأولى بمعنى حزين ، أما الثانية بمعني لم أجدكم.

وتجد ذلك في قوله[5]:

أَفاضــوا دُموعــاً إِذ أَفاضــوا مَخافَــةً مِــنَ البــينِ أَحيــت لِلنُفــوس اِعتِلالهــا

(أفاضوا) الأولى بمعنى سكبوا، وأما الثانية بمعنى الانصراف، ومأخوذة من الإفاضة من عرفات إلى منى.

---

(١) الديوان:٩٩.

(٢) الديوان:١٠٤.

(٣) الديوان:١٠٤.

(٤) الديوان:١٣٨.

(٥) الديوان:١٤٣.

تكرار الألفاظ ، مثل قوله[١]:

وَعَلـــى قَرابتِـــكَ المقـــرّرِ فَضـــلُهُم وَعلـــى صَـــحابَتكَ الَّـــذينَ هـــمُ هـــمُ

وفي قوله[٢]:

فـــارفق بِمشـــتاقٍ بِحُبِّـــكَ مُفـــرَدٍ يـا صـاحِبَ الحسـنِ الغَريـبِ غَريـبِ

وفي قوله:

مَن قامَ في كَفٍّ كَفّ الكُفرِ حينَ سَطَت حَقّاً وَفي صَرفِ صرف الدَهرِ حينَ هَفا

وقوله[٣]:

وَحَيّـــا الحيـــا حيّـــاً لنـــا وَمعاهـــداً وَلا زالَ ذاك الحـــيّ حـــيّ المعاهـــدِ

فالحيا هنا المطر ، فجاء المطر مرحباً بحيٍ لهم ، وقد تلاحظ ما أحدثه تكرار كلمة (حيا) من نغم موسيقي جميل.

ومن التكرار في الألفاظ قوله في بيته[٤]:

معـذّبتي بالصَـدِّ مـا لـي وَمـا لَهـا وَمـا مـالَ قَلبـي عَـن هَواهـا وَمـا لهـا

فتكرار الكلمات في هذا البيت يعطي جمالاً موسيقياً ، وخاصة أن تحتوي على حرف المد الألف في وسطها.

ومن التكرار تكرار الحروف في البيت الشعري[٥]:

وَفـــي عَرفـــاتٍ عُرِّفـــوا بِســـعادة علـيهم بجمـع الشـمل شـاموا اِشـتِمالها

فترى تكرار حرفي العين والشين وما له من إيقاع جميل على المتلقي.

---

(١) الديوان: ١٠٣.
(٢) الديوان: ١٠٥.
(٣) الديوان:١٣٧.
(٤) الديوان:١٤١.
(٥) الديوان:١٤٢.

ومن أشكال الموسيقى في قصائد ابن حجر ترديده لكلمات تشترك في نهاياتها، فتجد ذلك في قوله[١]:

تَبــوّؤا الــدارَ والإيمــانَ قَبــلُ وَقَــد آووا وَفَــوا نصــروا فــازوا شَــرَفا

فتلاحظ ما يوقعه الشطر الثاني من البيت من أثر موسيقي جميل في أذن المتلقي.

- **العكس والتبديل:** وهو أن يقدم في الكلام جزءٌ ثم يؤخر[٢]، ومن أمثلة ذلك عند ابن حجر قوله[٣]:

سَـقى اللَـهُ دَهـراً كـانَ للشـملِ جامِعـاً بِــهِ فَهَــل الرضــوانُ لِلجَمــعِ شــامِلُ

فترديد الكلمة تارة في المقدمة وتارة في المؤخرة، يحدث بهاء وجمالاً ورونقاً.

- أما تكرار ما في البيت من حركات لتقوية الناحية الموسيقية الإيقاعية، فمثلاً يأتي تكرار تنوين الفتح في قوله[٤]:

وَيَــروي طالِــبٌ بِــرّاً وَعِلمــاً لَدَيــهِ عَــن يَزيــدَ وَعَــن عَطــاءِ

أما تنوين الكسر مثل قوله[٥]:

بــدا قَمَــراً بِبَــدرٍ فــي نجــومٍ مِــنَ الأَصــحاب أَهــل الإقتِــداءِ

ومثل قوله[٦]:

فَكَــم مــن غَــزالٍ لــي بِهــا كَغَزالــةٍ تملّــكَ روحــي بِالتفــاتٍ وَإِســفارِ

- ومن أشكال الموسيقي اشتقاق كلمات من جذر واحد في البيت بمعان ودلالات متنوعة ، تعطي إيقاعاً من الموسيقى الجميلة ، وتجد ذلك في قوله[٧]:

---

(١) الديوان: ١١٢.
(٢) بغية الايضاح ٥٩٢/٤.
(٣) الديوان:١١٩.
(٤) الديوان:١٢٢.
(٥) الديوان:١٢٣.
(٦) الديوان:١٩٨.
(٧) الديوان:٢٠٤.

غنّـــى غِنَـــا الـــورقُ أَوراقَهـــا فنقَّطَـــت عُجبـــاً بـــدُرِّ الســـحاب

وكذلك قوله[١]:

فـــالنَثرُ كـــالنثرة والشِـــعرُ كالشعـــ رى ضـــياءً فـــاقَ ضـــوءَ الشـــهاب[٢]

فهنا يمدح السبك في نثر ممدوحه بأنه عنقود من النجوم، وشعره في سطوعه وانتشاره بالكوكب المنير.

- ومن أشكال الموسيقى لديه ذكر مقاطع قصيرة متساوية في البيت الواحد، فمن ذلك قوله[٣]:

أَوعى المُلوك هدى أَوهى الملوك عدىً أَوفى المُلوك نَدىً في الحال بِالحالِ

الخلاصة : إن استخدام ابن حجر لألوان البديع المتنوعة في شعره ليدل على قدرته اللغوية الفائقة في تطويع الألفاظ والمعاني إلى ما يرنو إليه، مع نغم موسيقي رائع.

---

(١) الديوان:٢٠٤.

(٢) (النثرة) عنقود من النُّجُوم فِي صُورَة السرطان (المعجم الوسيط : ٩٠١/٢) ، (الشعرى) كَوْكَب نير يطلع عِنْد شدَّة الْحر(المعجم الوسيط : ٤٨٤/١).

(٣) الديوان:١٤٦.

الخاتمة والنتائج

الخاتمة:

تناول الباحث في هذه الدراسة الشيخ العلامة المحدث شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني حياته وشعره ، وانتهى البحث في ثلاثة فصول.

ففي الفصل الأول تناول الباحث حياة الشاعر فتحدث عن اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ونشأته ونسبته إلى أرض فلسطين، وحياته العلمية ورحلاته ، وطلبه لشتى العلوم مثل الفقه والحديث، والنحو، والأدب، وكذلك تحدث عن مصنفاته التي ملأت المكتبات.

وتناول الباحث عصر ابن حجر، وتحدث عن الأحداث السياسية الخطيرة التي كان لها الأثر الواضح في العالم الإسلامي، فقد كان هذا العصر الدرع الحامي لهيبة الإسلام، بعد أن تعرض لأقسى هجمة عليه، وتحدث أيضاً عن البيئة الاجتماعية وتقسيمات طبقات المجتمع في ذلك العصر، وتحدث عن الحياة الثقافية في عصره، وما أثر التنشئة الخاصة التي مروا بها ليصبحوا حماة الدين، فكانت تنشئة على القرآن والسنة والجهاد في سبيل الله، وعلى موائد العلم والعلماء، هذا ما يفسر كثرة الكتب والمؤلفات الموسوعية التي عجت بها مكتبات العالم الإسلامي، وتحدث عن الأسباب التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية في ذلك العصر.

أما الفصل الثاني تناول الباحث فيه الموضوعات الشعرية في شعر ابن حجر العسقلاني وقد تضمن ذلك تمهيداً عن الشعر وتعريفه وشروطه، وأقسامه، ثم تحدث عن كل غرض من أغراضه التي صنفها – أي الشاعر – إلى أربعة أقسام: استفتحها بالمدائح النبوية حيث كتب فيها سبعاً من القصائد، سار فيها على نهج القدماء حيث بدأها بمقدمة غزلية وكان محبوبه فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– شوقاً وتقرباً له لينال شفاعته التي هي غرض قصيدة المدح النبوي، وتحدث عن المدح بقسميه الملوكيات والأميريات، ثم تناول قصيدة الغزل لدى الشاعر والتي تحدث في مضمونها عن الشوق والحنين لأهله ومصر، وتحدث الباحث في القسم الأخير عن الأغراض المختلفة وهي الرثاء والزهد، والاعتذار، والشكوى من الخيانة.

وفي الفصل الثالث تناول الباحث الدراسة الفنية التي تضمنت البناء الفني للقصيدة، وتبين فيها أن الشاعر قد سار على نهج القدماء في قصائده، فكانت قصائد المدح النبوي تبدأ بمقدمة

غزلية، ثم ينتقل إلى مدح النبي- صلى الله عليه وسلم- فيشيد بأخلاقه ومعاركه وغيرها من مواطن المدح، ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة وهي طلب الشفاعة من النبي – صلى الله عليه وسلم-، ثم ينتقل إلى خاتمة القصيدة بالصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم-، وهذا النهج سار عليه في قصائد المدح الملوكيات والأميريات إلا أن الغرض تنوع بتنوع الأشخاص كما بين الباحث، وكان يختم قصيدته بالدعاء للممدوح.

أما لغته الشعرية فقد نأت عن الخشونة والتوعر، وتميزت بالسهولة والبساطة، حيث خلت من الألفاظ الوحشية النافرة، فكانت لغته متجانسة مع كل موضوع يتطرق إليه، فتجد الجدية والجزالة في قصائد المدح، وتجد الرقة في قصائد الغزل.

أما أسلوبه فكان واضحاً قوياً شعورياً، جميلاً ذوقياً، وكان الاقتباس من معاني القرآن من أبرز الأساليب التي استخدمها.

أما الصورة الشعرية فقد اعتمد شاعرنا في إبداعها على خياله الواسع، واستمد عناصرها من وحي ثقافته العميقة.

وفي ضوء الاستقراء ثبت استخدام شاعرنا ابن حجر للأوزان الشعرية شائعة الاستعمال، وقد عمد إلى التجديد فكتب في الموشحات، والمواليا والدو بيت في القطع، وكذلك رأينا مدي التناغم المؤثر والإيقاع المعبر عن المعني في ألفاظه المتمثلة في الموسيقى الداخلية.

النتائج:

بعد الدراسة والبحث في شعر ابن حجر وحياته، لا بد من تسجيل بعض النتائج التي توصل إليها الباحث، ويمكن إيجاز أهم النتائج كما يلي:

- أن وصف العصر المملوكي بالدونية والانحطاط أمر يرمي صاحبه إلى مصاف الجهل، لأن الدارس لهذا العصر يرى ما أنتجه من الكنوز العلمية التي يجدر بالباحثين سبر أغوارها والتعمق في جواهرها.
- أن الشعر لا يختص بفئة دون أخرى فابن حجر هو شيخ محدث عالم فقيه، ولكن له من الأدب نصيب وافر من خلال ديوانه الذي درسه الباحث.
- أن شخصية الشاعر وحياته لها تأثير على شعره، فترى شخصية ابن حجر الدينية كعالم وفقيه ومحدث لها الأثر الواضح في ألفاظ ومعاني الشاعر كما بينه الباحث.
- أن مدائح ابن حجر للملوك والأمراء مدائح يصفها الباحث بالصادقة؛ لأن الناظر إلى سيرة من مدحهم سيتيقن له السبب.
- أن كثرة مقطوعات ابن حجر العسقلاني دلالة على قوة سليقته والثروة اللغوية لديه، فقد كان يقول المقطوعة حسب الموقف أو الحالة النفسية التي مرَّ بها.
- أن الصور الشعرية التي صاغها ورسمها شاعرنا ابن حجر تدل على خياله الواسع ونظره الناقد وبراعته في انتقاء الألفاظ الملائمة.
- سار شاعرنا ابن حجر على نهج القدماء في بناء قصيدته، التي تبدأ بمقدمة غزلية، والانتقال للمدح، ثم الغرض الأساسي للمدح، ثم الدعاء للممدوح.
- ترى تأثر شاعرنا ابن حجر بقصائد المدح النبوي التي اشتهرت في عصر شاعرنا وخاصة قصيدة البردة للبوصيري في مدح النبي –صلى الله عليه وسلم– التي تأثر بها الشعراء وذلك من خلال سيرهم على طريقته في تناول قصيدة المدح النبوي.
- أن شعر الغزل لدى ابن حجر لم يكن في أغلبه على حقيقته ولكن اتسم بالحنين، والشوق للأهل وبلده.

- أن غزل ابن حجر بنوعيه (قصائد مستقلة، أو مقدمات قصائد المدح) قد اتسم بالعذري العفيف فتجده يصف مرارة الشوق، ونار البعد عن أحبابه، وإن خالط الأمر بعض الحسية لكنه غزل محسوس عفيف.

وفي الختام لابد الإشارة إلى أن هذه النتائج التي توصل إليها الباحث ، لا تمثل كل ما توصل إليه، وإلا فهناك الكثير من الأمور التي عالجها الباحث وتوقف عندها وخرج منها بنتائج يمكن أن تعد سمات عامة لشعر ابن حجر العسقلاني يمكن ملاحظتها في ثنايا البحث.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع القديمة:

- إبراهيم بن حسن البقاعي ، عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ،٢٠٠١م .
- ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) : البارع في علم العروض ، دراسة وتحقيق : أحمد محمد عبد الدايم، الطبعة الثانية، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، والسعودية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥.
- ابن اياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، ط١، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- ابن بطوطة (المتوفى: ٧٧٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.
- ابن تغري بردى ، أبو المحاسن يوسف(ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر العسقلاني: ديوان شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني : تحقيق ودراسة : د. فردوس نور علي حسين، دار الفضيلة ، القاهرة.
- ابن خلدون (المتوفى: ٨٠٨هـ) : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس

- ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، طبعة دمشق، ١٩٤٩.
- ابن طباطبا (المتوفى: ٣٢٢هـ) : عيار الشعر ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، طبعة مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت.
- ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
- ابن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، طبعة دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ،عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، طبعة دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥هـ.
- أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) : دلائل النبوة ، تحقيق : د. عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- أبو بكر بن أبي شيبة (المتوفى: ٢٣٥هـ) : الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أبو داود السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) : سنن أبي داود ، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- البخاري. محمد بن إسماعيل أبو عبدالله : صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) الجامع الكبير -سنن الترمذي ، تحقيق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ١٩٩٨ م.
- تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ

- تقي الدين المقريزي (المتوفي ٨٤٥هـ) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. كرم حلمي فرحات ، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م.
- تقي الدين المقريزي(المتوفي ٨٤٥هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٩.
- جميل بثينة : ديوان جميل بثينة : طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- حازم القرطاجي(ت ٦٨٤هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨م.
- حسان بن ثابت: ديوان حسان بن ثابت : شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبد أ. مهنا، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- الحطيئة: ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السكيت ، دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ، ١٩٩٥م.
- الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء ، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ -١٩٨٥ م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى: ٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق :عمر عبد السلام التدمري، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

- السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، د.ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ): طبقات الحفاظ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٣.
- الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي : اعتنى به وشرح ألفاظه محمد بن سليم اللبابيدي ، طبعة المكتبة الأدبية في بيروت، ١٢٠٩.
- عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر ، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- عبد القاهر الجرجاني(المتوفى: ٤٧١هـ) : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ت.
- علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، طبعة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.
- قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، الطبعة: الأولى مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، ١٣٠٢هـ.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٢م.
- القلقشندي، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) : مختار الصحاح ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ، الطبعة الخامسة، الدار النموذجية، بيروت، ١٤٢٠هـ –١٩٩٩م.
- محمد بن سلّام الجمحي (المتوفى: ٢٣٢هـ): طبقات فحول الشعراء ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، طبعة دار المدني، جدة، د.ت.

- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل : تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد، وآخرون، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى ، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٧م.

ثانياً : المراجع الحديثة:

- إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م.
- إحسان عباس، فن الشعر، بيروت 1959 .
- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- أحمد أمين: في النقد الأدبي ، الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت–لبنان ، ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م.
- أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر للطباعة، ١٩٩٦م
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل : معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- بشرى موسى صالح : الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
- جبران مسعود : معجم الرائد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ١٩٩٢م
- خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) :الأعلام ، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار/ مايو ٢٠٠٢ م.
- رمضان إسحاق الزيان : دراسات في الحديث الشريف وعلومه، الطبعة الأولى، دار المنارة، فلسطين ، غزة ،٢٠١١م.

- رينهارت بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربية (المتوفى: ١٣٠٠هـ) نقله إلى العربية وعلق عليه: (جـ ١ – ٨: محمد سليم النعيمي) (جـ ٩، ١٠: جمال الخياط) الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، من ١٩٧٩ – ٢٠٠٠م.
- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ،ط١ ، دار الحداثة بيروت ،1986.
- شوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف، د.ت.
- شوقي ضيف : في النقد الادبي ، الطبعة التاسعة، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ،القاهرة، د.ت.
- صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض، ٢٠٠٣م.
- عبد الله إبراهيم ،التفكيك الأصول والمقولات ، دار إفريقيا الشرق المغرب ،1989.
- عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م.
- علي علي صبح: الصورة الأدبية تاريخ ونقد ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، د.ت.
- قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- محمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ) : القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، دار الندوة الجديدة ، بيروت، د.ت .
- محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ) : فقه السيرة ، الطبعة الأولى، دار القلم ، دمشق، ١٤٢٧هـ.
- محمد صالح الشنطي : فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه ، الطبعة الخامسة، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، حائل ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.
- محمد علوان : من بلاغة القرآن ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م

- محمود رزق سليم : الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، طبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧
- محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ،القاهرة ، ١٩٦٢م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
- من بلاغة القرآن، محمد علوان، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م
- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر ، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
- نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، الطبعة الأولى، دار المقداد، غزة، ٢٠٠٨م
- نوري حمودي القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، الطبعة الأولى، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، د.ت.

الفهرس

الموضوعات	رقم الصفحة
البسملة	أ
الإهداء	ب
الشكر	ج
مقدمة البحث	د
خطة البحث	و
الفصل الأول: حياة ابن حجر العسقلاني وعصره	١-٢٩
حياة ابن حجر العسقلاني	٢-١٠
مولده ونشأته	٣
حياته العلمية ورحلاته	٧
مصنفات ابن حجر	٩
عصر ابن حجر العسقلاني	١١-٢٩
الحياة السياسية	١٢
الحياة الاجتماعية	٢٠
الحياة الثقافية	٢٥
الفصل الثاني: الدراسات الموضوعية	٣٠-١٠٨
تمهيد	٣١
المدائح النبوية	٣٧
المدح	٦٢
الغزل	٨٧
الأغراض الأخرى	١٠٠
الفصل الثالث: الدراسة الفنية	١٠٠-١٨٤
بناء القصيدة	١١١
الأسلوب واللغة	١٢٣

الصورة الشعرية	١٤٨
الموسيقى الشعرية	١٦٢

الخاتمة	١٨٥
النتائج	١٩٠

المصادر والمراجع	١٩٠
الفهرس	١٩٨